جبران خليل جبران

ميخائيل نعيمه

جبران خليل جبران

حياته . موته . ادبه . فنه

الطبعة الثالثة

مكتبة صادر
بيروت

مطبعة المناهل ٦٦ - ١٩٥١

اعتذار

ترددت كثيراً قبل ان اقدمت على وضع هذا الكتاب . لاني لست اؤمن بأن في الناس من يستطيع ان يصف من حياته حتى لحظة واحدة بكل ما فيها من معانٍ مشتبكة بمعاني الحياة الكونية . فكيف بمن يحاول ان يحصر بين دفتيّ كتابٍ حياةً غير حياته ، سواء اكانت حياة عبقري ام حياة بربري ، وسواء اكان نصيبه من فن الكتابة وفيراً ام يسيراً ؟ وعندي ان كل ما يرويه الناس عن الناس باسم التاريخ ليس الا رغوة متطايرة فوق بحر الحياة الانسانية . اما اعماق الانسان وآفاقه فأبعد واوسع من ان يتناولها قلم او يستوعبها بيان . فنحن حتى اليوم لم نكتب «تاريخ» انسان ولا «تاريخ» شيء على الاطلاق . ولو اننا كتبنا تاريخ انسان واحد لقرأنا فيه تاريخ كل الناس . ولو اننا دوّنّا تاريخ شيء واحد لطالعنا فيه تاريخ كل شيء .

ثم ان في حياة كل انسان «اسراراً» يكتمها عن الناس . وانا قد وقفت على البعض من اسرار جبران وفاتني منها الكثير . فهل يليق بي ان ابوح ولو ببعض البعض الذي اعرفه ؟ وان انا كتمته فما معنى الذي اكتبه ؟ أأخون نفسي والقارىء وجبران بكتمان ما ليس مكتوماً في سجل الحياة الكبرى – وان يكن مستوراً عن اعين الناس – فأصوّر صورةً لا وزن بين ظلالها وانوارها ، لأرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن

ولا رأي لهم في الحياة ، واجور على ذوقي وادفن رأيي في التراب ؟ وان انا لم اكتمه فكيف لي ان ابوح بـه من غير ان اظهر في عين القارىء كما لو كنت ادين اخي بهفوات قد لا اكون بريئاً منها ؟

وبعد ذلك فكيف لي ان اكتب عن جبران من غير ان اذكر نفسي ، وقد كان بيننا من القرابة مـا كان ؟ وان انا لم اجد بدّاً من ذكر نفسي فهل يفهم القارىء اني مـا فعلت ذلك الا مضطرّاً واني اكره التحدث عن نفسي لاسيما في كتاب احدّث فيه عن سواي ؟

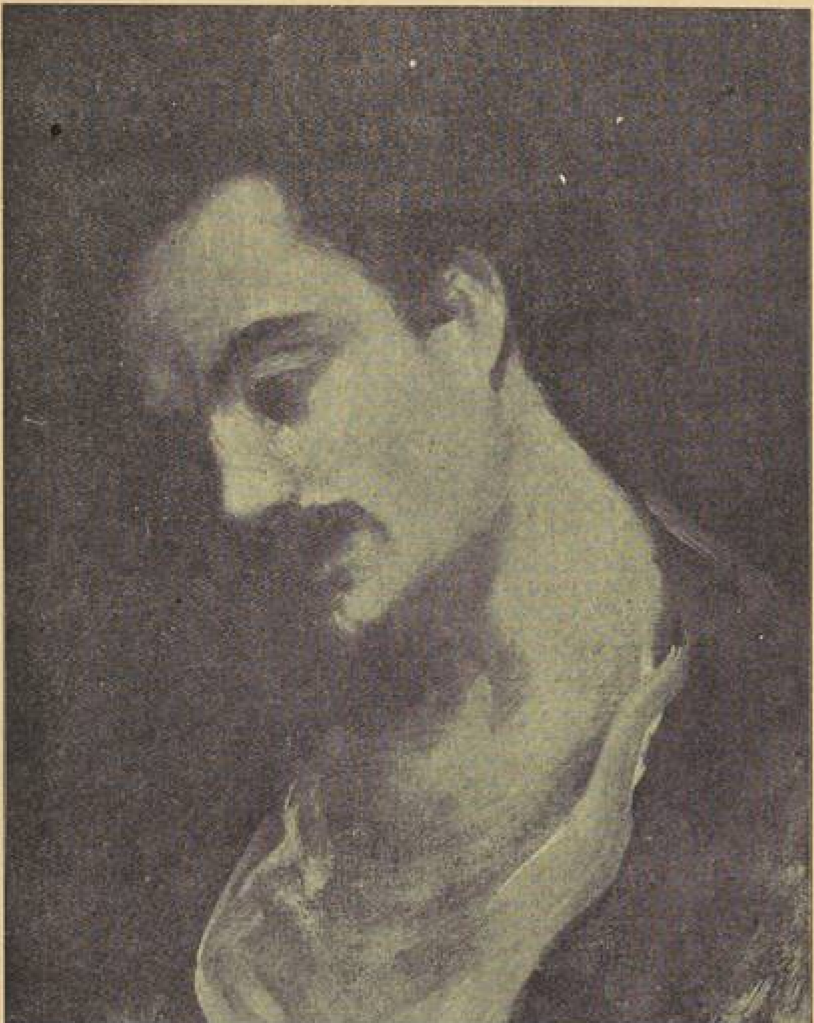
تلك بعض الاسباب التي دعتني الى التردد في وضع هـــذا الكتاب . لكنني عندما عدت الى الشرق بعد عـام لوفاة جبران وجدت صديقي يكاد يكون اسطورة من الاساطير حتى في بلاده . فهو ليس جـــبران الذي رافقته خمس عشرة سنة وخبرت احـلامه وآلامه ، وبلوت قوته وضعفه ، ورقبت جهاده العنيف مع نفسه والعـــالم ، وقاسمني اشواقه وافكاره وشاركته في افكاري واشواقي . ولـكم سمِعت ادباء ومتأدبين يطالبونني بكتابة ما اعرفه عنه . فمن قائل ان ذاكَ دَين في عنقي . ومن قائل انـه واجب عليّ للادب ولا مناص لي من تأديته . ومن قـائل ان سكوتي في مثل هذه الحالة ضرب من الاثم .

فكان من ذلك كله اني تغلبت عـلى التردد فألّفت هذا الكتاب ، على امـل ان يطالع القـــارىء من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا « تاريخ » حياته الذي لا يعرفه احد . وان يقع فيه عـلى دروس في الحياة التي يشتركِ فيها كل الناس بالسواء . وها انا ارسله في سبيله عالماً حق العلم ان مـا فيه من صراحة سيرضي البعض ويغيظ البعض ويدهش الكثير ممن

لم يعرفوا جبران الا في ما قرأوه من ادبه واطلعوا عليه من فنّه . لكنها صراحة لستُ لأتخلّى عنها . فلولاها لما كان الكتاب اهلاً للنشر . ولولاها لانطمس اجمل ما في حياة جبران . وهو صراعه المستتب مع نفسه لينقّيها من كل شائبة ويجعلها جميلة كالجمال الذي لمحه بخياله وبثّه بسخاء في رسومه وسطوره . فالفن مهما تسامى في نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء ما لم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من عقالات المعيشة المحدودة الى حرّية الحياة التي لا تُحدّ — من الانسان في الله ، الى الله في الانسان . والادب ، مهما جمل ، لا معنى له الا على قدر ما يكشف معنى الحياة الذي هو اثبت من الارض وابقى من السماء .

ميخائيل نعيمه

بسكنتا ، لبنان ، في ١٥ حزيران سنة ١٩٣٤



جبران في الثامنة والعشرين

عن صورة زيتية من شغل يوسف الحويك

١

الشفق

الاحتضار

حشرجة الموت !

كم سمعت بها قبل ان اسمعها . اما منذ تلك الليلة – ليلة العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ – فاني لا اكاد اسمع غيرهـا . اسمعها في دقّات قلبي وفي انفاسي . اسمعها في صوتي وفي كل صوت . اسمعها في همس النسائم وحفيف الاوراق . اسمعها في سكينة الليل وجلبة النهار .

الا تباركتِ حياةٌ تلتقي الآزال والآباد في لحظة منها . فيندمجُ النقيضُ بالنقيض ، وتستوي الاضداد كالانداد . تباركتِ لانك تهزإين بمقاييس البشر . وفي هزئك قساوة . وفي قساوتك عدل . فلا تخجلين من ان تجمعي بين العرَض والجوهر ، بين الهزل والجد ، بين المتاجر والمقابر ، بين حشرجة الموت وقرقعة التلفون !

النهار الجمعة . والساعة نحو الخامسة والنصف . انا استعد للانصراف من محل أتجر فيه كل يوم ساعاتٍ بكارى من حياتي لعددٍ محدود من مومسات الريالات ، وقلما اسمع حديثاً الا عن البيع والشراء ، عن الربح والخسارة ، عن سوق تصعد وسوق تهبط . يقرع جرس التلفون فيطلبونني اليه . أهو احد الزبائن يرغب في بضاعة او يشكو بضاعة او يعتذر عن عدم مقدرته على دفع ما عليه ؟

«هلو ... نعم . انا هو . مرحباً . مرحباً ... ماذا تقول ؟ جبران في المستشفى ؟ »

« في مستشفى القديس فِنسِنْت . وهو في غيبوبة . والطبيب لا يقدّر انه يعيش حتى منتصف الليل . وليس حواليه احد من رفاقه وخلانه . فرأيت من واجبي ان اخبرك لعلمي انك اقرب الناس اليه . »

***

« تاكسي ! مستشفى القديس فِنسِنْت – اسرع ايها السائق ، اسرع ! »

وكيف لهذا المسكين ان يسرع في شوارع مكتظة بالبشرية المسرعة على اقدامها وعلى دواليبها ؟ والى اين يسرع هؤلاء الناس ؟ – كل الى مستشفاه . ومستشفى الكل واحد .

ومن هو هذا القديس فنسنت وبماذا تقدّس حتى يُقدَّس ؟ ليس بيني وبين مستشفاه غير ميل واقل من ميل . لكنه اطول ما قطعته في حياتي من المسافات . جبران على فراش الموت . أأدركه حيّاً ؟ اسرع ايها السائق ، اسرع !

« انا اليوم رجل صحيح يا ميشا[1] . » هذه آخر كلمات سمعتها منه وقد خاطبته بالتلفون قبل ذلك بايام مستفحصاً عن صحته . فتواعدنا ان نلتقي فنتعشى معاً في احد المطاعم ونقضي السهرة عندي . وها انا ذاهب لأتناول واياه العشاء على مائدة الموت في مطعم القديس فنسنت !

« انا اليوم رجل صحيح يا ميشا – انا غريب في هذا العالم يا ميشا –

---

١ هو الاسم الذي كنت اعرف به عند اصحابي الاخصاء في نيويورك . وهو صيغة التصغير والتحبب بالروسية من اسم ميخائيل .

انا احب هذا العالم يا ميشا . » — الصحة والعلة . والموت والحياة . والوطن والغربة — ألا مَنْ يريني ما بينها من الفروق ؟

اسرع ايها السائق ، اسرع !

***

« في اية غرفة جبران خليل جبران ؟ » — سؤال اوجهه الى رجل جالس الى مكتب قريب من الباب داخل المستشفى . فيندفع يفحص تحت حرف « الجيم » في قوائمه المنظمة كأنه يفتش عن كلمة في قاموس غير مبالٍ ان صوت الرجل الذي يخاطبه يتهدج بصوت الموت .

« ليس عندنا عليل بهذا الاسم يا سيدي . » واذ اؤكد له ان عندهم عليلاً اسمه جبران يحيلني الى رجل آخر عند مدخل للمستشفى من شارع آخر فأخرج من حيث دخلت واسرع الى المدخل الذي ردّني اليه . وهناك اعرف ان جبران في غرفة كذا في الطبقة الثالثة من تلك البناية المتعددة الطبقات . فأصعد سلالم كثيرة . وادور في منعرجات كثيرة . واتفحص ابواباً كثيرة قبل ان اهتدي الى الباب الذي اطلبه . ووراء كل باب أقترب منه جسدٌ يتكوى بالاوجاع . وروح تحارب القدر . ربّاه . ربّاه . ربّاه ! هوذا جانب من خليقتك التي تطلب جابراً لما تكسّر من عظامها . وراتقاً لما تفتّق من جلودها . وجامعاً لما تفتت من اكبادها . فلا تحصل الا على عقاقير ثم عقاقير . فاين دواؤك ؟ ام هو الالم مصهر المحبة — محبتك التي لا توصف . وسبيل الخلاص — خلاصك الذي لا يثمّن ؟

راهبات يمررن بي وامرّ بهنّ كأنهنّ خيالات من عالم لا اعرفه ، وفي

سواد اثوابهنّ ما يسوّد القلب . وممرضات يدخلن من باب ويخرجن من باب ، وفي بياض البستهنّ ما يجرح العين .

« اين الغرفة كذا يا اختاه ؟ – الى اليمين ؟ اشكرك . »

امام باب الغرفة رجل تحيط بـه نسوة ثلاث . واذ أقترب تنفرد من الثلاث واحدة طويلة القامة ، عظيمّة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادّة الانف ، غارقة العينين . فتخطو نحوي مادّة يمناهـــا اليّ . هي شاعرة اميركية في النصف الاول من عقدها السادس . عرَفت جبران منذ سبع سنوات فتقربت منه وكانت تساعده في نسخ مؤلفاته . وقد التقيتها مرّة عنده . واذ اضع يدي في يدها تتنهد وتقول :

« اشكر الله . اشكر الله لانك هنا . »

في قلبي وفي عينيّ وعلى وجهي سؤال واحد يتردد لساني في طرحه فتجيبني عليه هذه السيدة قبل ان تسمعه من فمي :

« لم يبقَ من امل . لم يبقَ من امل . »

« اخبريني ماذا جرى . »

« كنت البارحة عنده فوجدته يعاني آلاماً لم يعانِ مثلها من قبل . دعونا الطبيب وسألناه اذا كان من ضرورة لنقله الى المستشفى في الحال . فأجاب ان لا بأس لو بات ليلته في بيته . ولم اشأ ان اتركه وحده فقضيت الليل عنده . وفي الصباح – صباح اليوم الجمعة – اشتد عليه الوجع فجئنا به الى هنا بين الساعة العاشرة والحادية عشرة . »

« ولماذا لم تخبريني امس . او اليوم باكراً ؟ »

« امس كنا نظن انه عارض ويزول . واليوم عندما جئنا بـه الى هنا

كنتَ اول من خطر ببالي . غير اني اجهل رقم تلفونك . فبقيت افكّر بواسطة اتوصل بها اليك الى ان خطر لي – وكان ذلك إلهاماً ربّانياً – ان اتلفن الى ادارة مجلة « العالم السوري » لتطلعك على الامر . وهكذا كان . والآن اشكر الله لانك اتيت . »

« كيف هو الآن ؟ »

« غاب عن الوعي بعد الظهر بقليل ولا يزال في غيبوبة . »

« هل عرض عليه احد ان يعترف ويتناول ؟ »

« سألته الراهبة – هل انت كاثوليكي ؟ فأجابها بنبرة قوية « كلا ! » فتركته وانصرفت . وبعد ان انتقل الى حالة الغيبوبة جاءه كاهن سوري – هو رجل قصير لعلك تعرفه – وأخذ يناديه بأعلى صوته : جبران . جبران . جبران ! وجبران لا يعي . ولقد بلغ استيائي من ذلك الكاهن وخشونته حداً تمنيت معه لو كانت لي القوة الكافية لطرحه من النافذة . »

« هل فعل الكاهن شيئاً ؟ »

« هذا كل ما فعله . »

« واين الطبيب ؟ »

« ها هو » مشيرة الى الرجل الواقف امام الباب .

« ما هي علته ايها الطبيب ؟ أليس من أمل ... بالطب – بالجراحة ؟ »

« سرطان في الكبد[1] . لا اظنه يعيش حتى منتصف الليل . هو الآن في غيبوبة ولا اخاله يفيق منها . » – كلمات تلفّظ بها كأنه يحدّث عن

---

[1] لقد اثبت الكشف الطبي بعد الوفاة تحجراً في الكبد مع بداية سل في احدى الرئتين .

الطقس . ولا عجب فليست هذه اولى مقابلاته للموت . ترى ايقابل موته بالبرودة عينها التي يقابل بها موت سواه ؟

الطب . الطب . الطب ! اله العالم المتوجع ووجهه الاكبر ..

« أتسمح لي بالدخول على المريض ايها الطبيب ؟ »

« لا مانع على الاطلاق . »

***

غرْ – غرْ ... غرْ – غرْ ... عنْ – – نْ ...

صوت غريب يفاجىء اذني حالما افتح الباب واغلقه بهدوء ورهبة فأشعر عندما أجتاز عتبته كأني قد اجتزت من عالم لا سرّ فيه الى عالم كله اسرار. وانسى ان هذا العالم في ذاك . وذاك في هذا . وان لا ابواب بين الاثنين ولا عتبات سوى الابواب والعتبات التي يقيمها جهلي وتبصرها عيني الكليلة من خلال اغشية الحواس المحدودة .

ادنو من السرير الابيض الصغير القائم خلف الباب فلا ابصر لاول وهلة معاون الطبيب الواقف عند رأسه ، اذ تتسمّر عيناي بوجهٍ عرفتاه من زمان فأحبّتاه ، والآن لا تكادان تعرفانه . فقد كان بلونِ الرمل يسقيه دم الحياة ، فأصبح رملاً يعلوه رماد المنية .

ها هو الانف المستقيم الارنبة ، الممتلىء المنخرين ، قد انتصب نحو السقف الباهت القاسي ، وليس فيه من الدم الا بقية ضئيلة تنهزم لحظةً فلحظة من وجه عساكر الانحلال . فهو لا يكاد يتنفس كأنّ به زكاماً من انفاس الارض والسماء . وكأن الطبيب الاكبر – الموت – يداويه بنفحاتٍ من سماءٍ غير سمائنا وارض غير ارضنا .

ها هما العينان اللتان كانتا تبوحان باسرارهما . فكم رأيت فيهما من بريق إلهام ومن حرقة شوق ومن نور بهجة . كم رأيتهما تغتسلان بالدمع . وتلتهبان بالضحك . وتتغلغلان في وجوه الناس والطبيعة لتستجليا معانيها . واحياناً تذبلان وتذهلان عن كل ما حواليهما كأنهما تتطلعان الى ما وراء الستار او تداعبان طيوف افكار وعواطف لا تجول في ازقة الناس ومساكنهم ومعابدهم . والآن لست ارى فيهما لا رعشة ولا ومضة . فهما مطبقتان تحت حاجبيهما المقوسين وقد اسدلتا اهدابهما الطويلة حتى الوجنتين فلا تبوحان بما أغلقتا عليه من اسرار . وقد يكون خلف اجفانهما وميض بروق كثيرة . فمن يدري ما في غيبوبة الموت من ظلمات وانوار ؟

ها هما الشفتان الحسّاستان وقد كانتا بلون القرمز فأصبحتا بلون الرماد . كم انفرجتا من قبل عن بسمة ، وكم تكمشتا بالم . كم قبّلتهما أمٌ واخت وحبيبة ، وكم من الشفاه تشتاقهما حتى الساعة ! وتلك الشفة العليا كم ارتجفت بغضب شديد او بفرح قوي او بحزن عميق . اما الآن فها هي قد التصقت باختها السفلى في خط كأنه خاتم الحكمة الصامتة او الحد الفاصل بين ما يمكن وبين ما لا يمكن التلفظ به . ولا تنفصل عن اختها الا لتفتح الباب لأنّة هي اشبه بزفرة مذبوح منها بأنّة مريض .

ها هي الجبهة العالية التي تقهقر عنها الشعر فزادها ارتفاعاً . وابيضّ عن جانبيها فزادها جمالاً . وجعّدتها السنون تجاعيد لطيفةً فأكسبتها جلالاً . هي الجبهة التي كنت اذا نظرت اليها أكاد المس وابصر ما خلفها من الاشباح والرسوم والمقاصد والمتاعب . اما الآن فهي ابعد من مجال بصري ولمسي .

هـا هو الشعر الكستنائي ، وقد عبث المشط بنصفه ، وبيّض الشيب نصف مـا تبقى منه ، يغطي الآن جـانباً من الوسادة وكأنه ، بعد ان هربت منه الحياة ، خصل من صوف لا لمعان فيها ولا تجاذب .

« بلى » – تقول لي عيني – « بلى . هذا هو رفيق احـلامك . وصديق افكارك . وشقيق روحك . هذا جبران . وهو الآن يحتضر . فـاعلم انك في حضرة الموت . »

« جبران ! » – ينـاديه قلبي وتناديه كل جوارحي . امـا لساني فلا يتحرك وشفتاي لا تنفتحان . لانني عندما احدق في وجهه ، وقد امسكت بعضلاته اصابع الالم القاسية ، وعندما اسمع تلك الغرغرة الهائلة في حلقه ، والزفرات المتقطعة الهـاربة من صدره ، اقول في نفسي : « لعله ان انا ناديته يسمعني فيتألم اذ لا مقدرة له على الجواب . » ثم اقول : لعله يبصرني . واسمع في داخلي صوتاً يقول – بـل هو يبصرك . فأرتاح هنيهةً الى هذا الصوت ، واهبط الى كرسي بجـانب السرير فأصغي طويلاً الى غرغرة تلك النارجيلة الجهنّمية في حلق اخي والى الزفرات التي تولدهـا فأهم ان اصيح به – الا اتقلها من فمك . الا تقيأها . جاهلاً انه ساعة يتفلها يتفل معهـا آخر انجابه . وبعد ان أستسلم الى القدر النافذ امام عيني اغرق في بحر من التأمل هو ملجاي في كل شدة . واشعر كأن جبران يحدثني وكأني احدثه . وكم تحدثنـا قبل ذلك بالصمت ! – فأطمئن بعض الاطمئنان لاعتقادي انه شاعر بوجودي معه ، عـارف انه ليس وحده وان قلب صديق يشيّعه في عبوره من هذا الشاطىء الى ذاك .

***

ادير طرفي في الغرفة فأتناول كل ما فيها . عرضها ثلاثة اذرع . وطولها ستة . وعلوها اربعة . في جدارها المقابل الباب نافذة تطل على الشارع . وفي النافذة طاقة من الازهار الذاوية . الى جانب النافذة خزانة صغيرة للثياب وبجانبها طاولة صغيرة بيضاء عليها عقاقير وطلاسم طبية . ووراء الطاولة السرير . وعند رأس السرير معاون الطبيب بسترته البيضاء وقد اخذ بذراع المريض يجسُّ نبضها بين الفينة والفينة ويحقنها بمخدرات او منبهات هو ادرى بها .

« هل هو يشعر بألم يا حضرة المعاون ؟ »

« ولا بشيء . »

« كم تدوم هذه المعركة ؟ »

« لقد قاربت النهاية . »

وينتهي حديثي مع المعاون . فأعود الى حديثي مع جبران . ومع الموت . ومع نفسي . فأقول لجبران :

« ما الذي تزودته يا اخي لرحلتك هذه ؟ » فيجيبني جبران :

« غر – غر ... غر – غر ... غذ –– ن . »

واقول للموت :

« ما انت فاعل بأخي يا موت ؟ » فيجيبني الموت :

« غر – غر ... غر – غر ... غذ –– ن . »

واقول لنفسي :

« ماذا تبصرين يا نفسي وماذا تسمعين ؟ » فتجيبني نفسي :

« غر – غر ... غر – غر ... غذ –– ن . »

ويصعد قلبي الى اذنيّ فيقرعهما قرعاً عنيفاً . واذ اسأله عن قصده يجيبني : « غر — غر ... » فتدلهمّ آفاق فكري وتضيق . ولكنها لا تلبث ان تتسع وتلتهب بوابل من شهب الذكريات وبلعلعة بروقٍ كثيرة من الخيالات الدفينة في اعماق الروح . وكلها لا ينقاد الى نظام ، ولا يتقيد بزمان . فقد تشتعل الذكرى الواحدة وتنطفىء مرات متوالية ، حين ان اختاً لها لا تنير إلا مرة واحدة . وقد تلمع ذكرى قديمة قبل ذكرى حديثة . ويبرق خيال هَرِم بنور اسطع من نور خيال لمّا يزل فتياً . وعلى انوار هذه الذكريات والخيالات تبدو لعيني حياة المحتضر امامي صفحات مبعثرة . لكنها مخطوطة بقلم واحد ، ومدادٍ واحد ، ويدٍ واحدة . واليد التي خطتها تعرف ان ليس فيها صفحة زائدة او حرف مهمل . ولاني اعرف ذلك احاول ان افهم الصلة بين هذا السطر وذاك ، وتلك الكلمة وهذه : بين بِشَرّي ونيويورك . فم الميزاب ومستشفى القديس فنسنت . جبران خليل جبران والنسوة الواقفات خارجاً . وبين كل من عرفهم وعرفوه من رجال ونساء واطفال . والذين قرأوا ويقرأون في هذه اللحظة مؤلفاته ، او تأملوا ويتأملون الآن رسومه . والذين اسعدهم بحياته واشقاهم ، او اسعدوه واشقوه . وبينه وبيني — لماذا تلاقينا وتآخينا في لحظة من الزمن لا في سواها ، وفي فسحةٍ من المكان لا في غيرها . ولماذا كُتب له ان يموت بين يديّ ، ولي ان اشيعه من هذه الديار ؟ فهل تراه يستقبلني في تلك ؟ او تراه يدرك ما هو فيه الآن ؟ كم تحدثنا عن الموت فرأيناه ولادة اخرى . وكم دعوناه والحياة توأمين . اتراه يقول الآن ما كان يقوله امس ؟ وان كان لا يفكر الآن لا بالأرض ولا بالسماء ولا بالموت ولا بالحياة ،

فماذا يفكر ؟ ام ترى غيبوبة الاحتضار اعمق من الفكر والحلم والخيال . فقد تكون انعتاقاً قصيراً من الحس بالوجود الى الوجود الذي لا حسّ فيه . او تمهيداً الى الانعتاق الابدي من الوجود الادنى للحظوة بالوجود الاسمى – باللاّوجود .

لا اكاد افلت بخيالي من عالم الحسّ حتى تجذبني حشرجة الموت اليه . فتتدفق عليّ من النافذة امواج حياة المدينة – اصواتها المبلبلة ، شهواتها الملتهبة ، مطامعها المنسابة كالأفاعي ، افراحها الظاعنة واوجاعها المقيمة . وتنسكب كلها في مقطعين صغيرين : « غر – غر ... » ثم تنفرج جدران الغرفة وتتراجع الى وراء الافق . ويتقلص سقفها كما لو كان سحابة من دخان ، فأدخل بيوت النائمين ، ومعابد المصلّين ، ومخازن المتاجرين . واطلّ على مخادع الحاملات ، ومضاجع العرائس ، واسرّة المحتضرين ، وعروش الملوك ، وكهوف المتنسكين . وامشي مع الاسرى والمعتقلين ، واجلس مع القضاة والمجرمين . اطوف الارض كلها واصيخ الى اصواتها ، واجوب الفضاء وما فيه من عوالم محسوسة فأعود منها كلها بنغمة واحدة – « غر – غر ... » وتستقر هذه النغمة في اعماق كياني كأنها كانت هناك منذ الازل . فأستغرب كيف لم اسمعها من قبل . ويخيل اليّ انها نغمة الحياة المثلى ولغتها الوحيدة . وان كل ما تدور به النجوم ، وتتلظى به الشموس ، وتتغنى به الارض ، ويتلفظ به الناس معناه « غر – غر ... » وان الـ « وَعْ وَعْ » التي يقذفها صدر الطفل عندما يطلُّ على عالمنا هذا هي عين الـ « غر – غر ... » التي تنسلُّ من صدر المحتضر عندما يشرف على عالم غير هذا العالم .

خيالات بشري

١

« وَعْ ! وَعْ . »

الصوت خارج من ذات الحنجرة التي تخنقها الآن امامي غرغرة ولادة اخرى . غير ان القابلة التي تسمع ذاك الصوت لا تسمع فيه هذه الغرغرة فيبرق وجهها عندما تلتفت الى الوالدة الملقاة على فراش المخاض وتقول لها بصوت متهلل :

« صبي . صبي ! الحمد لله على خلاصك بخير يا روحي . »

وكما تنشب اشعة القمر الناعمة في الغيوم تنشب ابتسامة هادئة في تجاعيد الوجع الذي يقنّع وجه الوالدة . فتجيب القابلةَ بصوت لا يكاد يُسمع : « الله يشكر حمدك يا اخيّتي . » وبطرفة عين يمتلىء ذلك البيت الصغير بكلمة واحدة ترفرف في كل جوانبه كأنها عصفورة افلتت من قفص . فهي على ألسنة القريبات والجارات الجالسات حول الموقد بالقرب من فراش الوالدة . وهي في الجدران العمياء من كل بصر الا الباب . وهي في السقف الذي جعل الدخان اخشابه بلون القير . وهي في الريح الصرصر خارجاً – ريح كانون الاول تذرّ قلبه الابيض على اعماق وادي قاديشا ، وعلى ذوائب بنات ارز سليمان وحفيداتها ، وعلى رأس فم الميزاب –

«صبي ! صبي !» وتهنىء النسوةُ الوالدة وبعضهن بعضاً كأنّ المولود مولودُ كل واحدة منهن :

«مبارك ما جانا . مبارك ما جانا !»

بين وعوعة الطفل ، وتنهدات الوالدة ، وتمتمة القابلة ، ولغط الجارات والقريبات ينفتح الباب فتندلق من الخارج موجة من انفاس كانون الباردة ، ويبقى الباب مفتوحاً وفيه رجل ربع القامة ، اشقر البشرة ، ازرق العينين ، كستنائيُّ الشاربين ، حسن تقاطيع الوجه ، قوي العضل ، دون الاربعين بقليل ، فتصيح به القابلة :

«قبَّرَتْك أمّك . اغلق الباب . فأنت تكاد تميتنا وتميت الصبي برداً .»

عندئذ يغلق الرجل الباب بعنف وبوثبة او وثبتين يدرك فراش الوالدة فيقف هنيهة بجانبه حابساً انفاسه . وفجأة تشرق اسرّته فيمسد شاربيه ويهتف :

«صبي ! صبي !»

فتجيبه القابلة بين المزح والجد :

«يا لضياعه فيك !»

«لا يا ام حنا . لا ! خليل جبران يستاهل اكثر من ذلك . صحيح اني سكران لكن خوف الله بقلبي . كامله ! — مخاطباً زوجته الملقاة على الفراش — كامله ! والله لاغسلنّ رجليك واشرب ماءهما . مبارك ما جانا . أتعرفين ماذا سنسميه ؟ جبران — جد العائلة . أرّخي يا امرأة أرّخي . كم اليوم من الشهر ؟ ستة ؟ أرّخي — ولد جبران خليل جبران ليلة السادس من كانون الاول سنة ١٨٨٣ في قصبة بشراي من اعمال لبنان .»

تتململ الوالدة في فراشها وتبتل حدقتاها الواسعتان الوديعتان بدمعتين تجمدان عند اطراف الاهداب . وتطفو على وجهها الاسمر النحيل سحابة من الكآبة تغطي ما لمع فيه من اشعة البهجة قبل ذلك بقليل .

« كامله . كامله ! يا للعيب ! انت تبكين ؟ اذا لم اسكر في مثل هذه الليلة فمتى ؟ »

« هنيئاً لمن رآك صاحياً ولو مرة واحدة . » – هذا من القابلة .

« ام حنا . ام حنا . الزمي حدودك . مهنتك سحب الاطفال من بطون الامهات ، لا سحب الرجال من بطون الادنان . كامله . كامله ! يا للعيب ! مليح . مليح . تركنا الكاس . وحياة جبران وبشرف هذين الشاربين . » ويمسك خليل جبران بشاربه الايمن وبلمح الطرف يقفز الى خزانة صغيرة في زاوية البيت فيتناول منها كمية من الزبيب والجوز واللوز ويأخذ يفرقها على النسوة اللواتي في البيت :

« « كلوا . كلوا . » هذه « حلوينة » جبران . »

النسوة يأخذن ويأكلن ويدفعن ثمن ما يأكلنه طلبات من أجل الوالدة والمولود – « ان شاء الله يكون من اولاد السلامة . الحمد لله على خلاصك بخير . »

وبعد قليل يشعلن مصابيحهن وينطلقن في دجنّة كانون الاول كل واحدة الى بيتها . ما خلا القابلة التي لا تترك الوالدة ولا الطفل .

ومع النسوة العائدات الى بيوتهن ، وعلى انوار مصابيحهن ، تدرج في الارض حياة لا يعرفن من اسرارها سوى انها صبي . ولا يسمعن من اصواتها إلا « وع . وع . »

٢

تنام الوالدة ليلتها وبجانبها كتلة اللحم والدم التي انحدرت عنها والتي تدعوها ابنها ولا تعرف من شأنها اكثر مما يعرف ميزاب العين من شأن المياه المنحدرة عنه — من اين جاءت ، والى اين تمضي ، وما غايتها من الارض وغاية الارض منها .

ولو كان لكامله جبران ان تُبصر الصلة التي بين فراشها في بشرّي وبين السرير الابيض الصغير في مستشفى القديس فنسنت في نيويورك ، لو كان لها ان ترى قطرات الحياة التي انبثقت من رحمها تلك الليلة تغور بعد ثمانٍ واربعين سنة في رحم الزمان ، وفي بلاد قصيّة ، لتحولت بهجتها الى رعشة ولعادت الى قلبها ومفاصلها آلام المخاض دون آماله . ولو كان لها ان تلمس اسلاك الروح الخفية التي تربط طفلها برجال ونساء واطفال كثيرين في العالم ، وبارواح ما برحت خلف الستار تُعِدُّ لها الاقدار معدّاتها لتبرزها الى مسرح هذا الوجود — ومنها روح كاتب هذه السطور — لو كان لكامله جبران ان تلمس تلك الاسلاك لتكهربت من شدة الدهشة ووقفت انباضها .

غير ان الحياة التي هي أم كل أم تشفق على بناتها وابنائها . فلا تضع في حدقتي مخلوق من نورها اكثر مما يحتاج اليه ذلك المخلوق ليستدل على طريقه . ولا تودع ساقيه من قوّتها اكثر مما يلزمه لقطع المسافة التي تخطها له .

٣

لا يطلع الفجر في بشري حتى يكون الخبر قد تمشى من باب الى باب بان كامله ابنة الخوري اسطفان رحمه وزوجة خليل جبران قد وضعت صبياً . فتعيد جارة بيت جبران على زوجها ما قالته له الليلة السابقة ، ولا فاصل بينهما وبين جيرانهما سوى جدار مشترك بين البيتين :

« صدقني ، كامله تستحق . لماذا الجدال ؟ امرأة عندها من الآدمية ما يفيض عنها . ليس ارجح من عقلها ، ولا احسن من طباعها ، ولا ادفأ من لسانها . تمشي فلا تحسّ بها الارض . لكن ربنا ــ سبحانه في ملكه ــ لم يوفقها بالرجال . تزوجت حنا عبد السلام رحمه ، وكان رجلاً طيباً ، فأخذها الى البرازيل ومات هناك بعد ان وضعت له بطرس . والآن اخذت هذا السكّير ــ خليل جبران ــ اتراها تقبره كذلك بعد ان جاءته بهذا الصبي ؟ يا ضياعها معه . خنصرها يسواه . »

« لماذا لا تقولين يا ضياعه معها ؟ اخذها ارملة وعندها صبي . »

« وان تكن ارملة ــ اليست بعد في مقتبل العمر ؟ فهي لا تزيد على الخمس والعشرين . »

« بل تخجلين ان تقولي الخمس والثلاثين . ان تكن هي صبية فهو ليس عجوزاً . »

« عجوز وزيادة . عنده اربعون وما فوق . »

« ولا رأى الست والثلاثين . مع ذلك اخبريني بماذا هي احسن

منه ؟ بسبحتها ؟ ام بوجهها الاسمر الهزيل ؟ إنْ طلبتِه للرجولة فقليل هم الذين يرفعون اثقالاً كالتي يرفعها . وان طلبته للكلام فلست اعرف كثيرين يفوقونه بذلاقة اللسان . وان طلبته للصورة فكم تعرفين في بشريّ من هم احسن منه صورة ؟ وان طلبته للبسط والعشرة فليس اطيب من عشرته واقرب من بسطه . »

« من حيث البسط – الحق معك . متى حضر القدح فلتخرب الدنيا . ألا دعني منك ومنه ومن كل الرجال الذين على شاكلته . »

٤

يفبق بيت خليل جبران على وعوعة المولود الجديد . فينهض من فراشه في الزاوية صبي في السادسة من سنيه . وللحال يلتقفه خليل بين ذراعيه ويقبل وجنتيه المتوردتين وعينيه الواسعتين الناعستين ثم يضعه من يديه ضاحكاً وقائلاً :

« بطرس ! اعرفت ان امك جاءتك بأخ ؟ أتحب ان تراه ؟ تقدم يا روحي تقدم . » فيدنو بطرس من فراش امه بخطوات مترددة ، وقلب خافق ، ووجه يحاول ان يخفي الفرح الطافح عليه . ويجثو بقرب الفراش فوق امه التي تمد يدها الى شعره الحريري وتحني اليها رأسه الجميل وترسم قبلة حنوناً على جبينه النيّر وتقول له بصوت هادىء كله محبة :

« ماذا تريد ان تسمي اخاك ؟ »

« عنتر ! »

فتضحك الوالدة ويقهقه الوالد قهقهة يسمعها الجيران ، ويأخذ وجه بطرس بين يديه ويضغط على خديه :

« جبران اسمه . جبران — جد العائلة . جبران احسن من عنتر . »

***

في تلك الساعة ينتصف الليل في مدينة تدعى كولومبيا من ولاية سَوث كارولينا ، من اعمال الولايات المتحدة ، فتجلس في سريرها فتاة اميركية اسمها ماري ، لها من العمر عشر سنوات ، وتفرك عينيها بشدة كأنها تحاول ان ترى في ظلمة اليقظة ما رأته في نور المنام .

فقد حلمت انها ذاهبة الى المدرسة وان كلاباً كثيرة انبرت من جانبي الطريق تنبح عليها وتكشّر عن انيابها . فأخذت تستغيث برفيقاتها ، ورفيقاتها يقهقهن ساخرات بها وقائلات : « افتحي فمك الجميل يا ماري تهرب الكلاب ! » فأجهشت بالبكاء وطفقت تعدو بكل ما في رجليها الصغيرتين من السرعة الى ان دخلت غابة من الادغال الشائكة . فوقفت هناك لتستعيد انفاسها ، وإذا بها وحدها ولا كلاب ولا رفيقات ولا طريق . فامتلك عليها الجزع كل حواسها وما درت إلاّ وهي على ركبتيها تصلي .

وبينما هي تصلي شعرت بقوة تجذبها الى الامام حتى كادت تهمي على وجهها . فالتفتت واذا بخيط من الحرير الابيض قد شُدّ على وسطها ظنته لاول وهلة خيط عنكبوت . واذ حاولت ان تقطعه وجدته امتن من حبل قنّب ، ورأت انه يمتد في الغابة كأنه شعاع من نور في ظلمة . فنسيت في الحال كل ما بها من جزع وراحت تلملم الخيط وتتبعه لافّة إياه على يدها ، وقد اصبح شاغلها الاكبر ان تصل الى طرفه الآخر لتعرف بماذا شُدّ ويد

من تشدّها بـه . وما فتئت تمشي مـع الخيط الى ان بلغت شاطىء بحر عجاج . فالتفتت واذا بالخيط يمتد فوق الامواج الى ما وراء الأفق . عندئذ جلست عـلى الرمل تفكر في بهلوان رأته يوماً في ملعب يمشي عـلى سلك واحد وتقول في نفسها : « ليتني بهلوانة . » وظل هذا الفكر يساورها الى ان نهضت وبعزمها ان تفعل كالبهلوان ، فما وضعت رجلها على الخيط حتى افاقت من نومهـا وقلبهـا الصغير ينبض كقلب خشف يطارده ذئب . فأخذت تتلمس وسطها ويديها علهـا تجد اثراً للخيط . وإذ لم تقع له عـلى اثر عادت فغرقت في فراشهـا ، وشدّت اللحاف الى فوق رأسهـا ، وانغمست في نوم عميق .

٥

كانت ليلة الخميس من سُبتة الآلام . وكانت كامله جبران جالسة على حصير في بيتها ، وعلى صدرها طفلتها سلطانه ، وعمرها سنة ، والى جانبها مريانا ، التي سبقت اختها سلطانه الى هذا العالم بسنتين ، وقد القت برأسها على فخذ امهـا ونامت نوماً هنيئاً ، وامام الام بكرها من زوجهـا الثاني وهو شاخص اليهـا ومصغٍ الى كلامها بكل مـا في سنيه الخمس واشهره الاربعة من الشوق الى استماع الحكايات .

في تلك الليلة نام جبران وخلف اجفانه تتسابق خيالات غريبة : أكمة عليها صليب . وعلى الصليب رجل بلحية شقراء وشعر اشقر مسترسل وقد سُمّر بيديه ورجليه ، ولا ذنب له إلا انـه نزل من السماء ليجعل الناس

كلهم صالحين ، ومن حواليه جماهير يبدون تارة اقزاماً بلا شعور ، وطوراً عمالقة بلحى سوداء تكاد تلمس الارض . وفي ايديهم حراب يطعنون بها الذي على الصليب باصقين في وجهه ومتهكمين عليه واسمهم اليهود . وفي « السماء » كرسيّ كبير مرتكز على اربعة نجوم ، وعلى الكرسي « الرب » وقد تدلت لحيته العظيمة البيضاء الى الارض وهو يقول : « هذا هو ابني الوحيد . » ثم ينفخ في نار ليصبها من فوق على رؤوس اليهود . وعند اسفل الصليب امرأة اسمها العذراء تنتحب وتصيح – يا ابني ! يا ولدي ! .

أفاق جبران مع فجر الجمعة « الحزينة » فرأى في الباب اخاه بطرس وزمرة من رفاقه ، وكلهم حفاة وعلى اهبة الخروج من البيت . وإذ سأل أخاه الى اين ؟ اجابه بانهم صاعدون الى الجبل « ليتعذبوا » مع المسيح ويأتوا بازهار يضعونها على محمله في حفلة جنازه في الكنيسة . فتوسل اليه ان يأخذه معه . ومال بطرس الى ذلك لانه كان يحب اخاه من امه محبة جمة ، لكن رفاقه شدوه من كمه وخرجوا به في الحال قائلين ان لا وقت لهم « لمداداة » الاطفال وتمسيح دموعهم .

بكى جبران وانتحب طويلاً ، ولم تستطع امه ان تعزيه لا بالزبيب ولا بالوعود . ولم يزده ضرب ابيه ، الذي كان يدخن سيكارته ويمتص قهوته المرة ، والخصام الذي ادّى اليه الضرب بين والديه ، إلاّ عويلاً ودموعاً . فما كان من ابيه إلاّ ان دفعه الى خارج البيت واغلق الباب قائلاً : « حرمتني لذة قهوتي وسيكارتي . انقذف من وجهي . »

مضى الظهر ، وحان وقت الجنازة ، وجبران لم يرجع . فقالت امه لعله ذهب مع بعض ابناء الجيران الى الكنيسة . وانطلقت مع زوجها وجاراتها

وجيرانها الى الكنيسة . فرأت هناك بطرس ورفاقه وقد جاؤوا بالكثير من الازهار . اما جبران فلم ترَ له اثراً . وانتهت الحفلة فسألت بطرس عن اخيه فأجابها انه لم يره كل ذلك النهار . فقالت لعله عاد الى البيت . لكنها عندما رجعت الى البيت لم تجده هناك . فاضطربت افكارها وانهالت على زوجها توبخه وتلقي المسؤولية عليه اذا – لا سمح الله – حلّ بابنهما سوء . واخيراً اخذت بطرس وبعض رفاقه وراحت تفتش معهم عن جبران . فوجدوه قبيل الغروب في المقبرة خلف الكنيسة وفي يده طاقة صغيرة من « بخور مريم » ، وعندما اقبلت عليه لتؤنبه على فعلته تحول كل غضبها الى حنان ومحبة بعد ان سمعت من فمه كيف انه ذهب الى البرية وحده « ليتعذب » مع المسيح . وكيف جاء بازهار ليضعها على محمله في الكنيسة فوجد الكنيسة مقفلة . وعندئذٍ قصد المقبرة ليفتش ما بين القبور عن قبر المسيح فيضع ازهاره عليه .

٦

ذات يوم عاد جبران من مدرسة القرية دامي الفم ، مهشم الاذنين ، ممزق القمباز . وعندما استنطقته امه عن السبب اجابها ، والدموع في عينيه ، بان احد رفاقه دعاه « سهيان وبكّاء » ، فلم يقبل الاهانة وردها بلكمة . غير ان رفيقه كان اقوى منه ، لانه اكبر منه سناً ، فرد له اللكمة لكمات . ولو لم يكن اكبر منه لكان « قَبَرَهُ » ولكنه سيكبر ويقبره بعد . فألقت عليه امه موعظة في حسن السلوك وتجنب الشرّ ، اما ابوه فدعاه جباناً وزاد في لكماته لكمتين .

٧

وفي يوم آخر عاد بطرس من المدرسة الى البيت عند الظهر ، وخلافاً لعادته ، لم يكن معه اخوه جبران . وإذ سألته امه عن السبب اخبرها بان الخوري «زرب» اخاه لأمرين : اولاً لانه لم يحسن قراءة مثالته السريانية ، وثانياً لان الخوري فرض عليه كتابة المثالة عشر مرات . وعندما جاء يفحص دفتره وجد انه بدلاً من كتابة المثالة قد صور في الدفتر شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء ، وفي احدى اذنيه قد عُلق كتاب وفي الاخرى مخلاة .

وكان قبل ذلك بايام قد دخل ابو جبران البيت فوجد ابنه وفي يده فحمة يرسم بها على الحائط اشكالاً لم يفهم الوالد لها معنى – كأنها بيت وليست بيتاً ، وكأن امام البيت فتاة كئيبة وليست فتاة كئيبة . فضربه وعنفه قائلاً ان خير له ان يدرس مثالته السريانية من ان يسوّد الحائط . لذلك عندما سمع بما فعله به معلمه الخوري قال من كل قلبه : «بيستاهل .»

٨

كان جبران يلعب خلف البيت عندما رأى رجلاً غريباً يسوق بغلاً عليه قربتان وينادي «الزيت الحلو» فأطلت من باب بيتها عجوز في يدها

سبحة طويلة وسألت الرجل ان يذيقها زيته ففعل . وبعد جدال عنيف اتفقت واياه على السعر ثم دخلت البيت وعادت بزجاجة فارغة وقالت لبائع الزيت ان يكيل لها ثلاث اواق فكالها . وقبل ان يفرغها في الزجاجة سألته العجوز عن دينه فأجابها انه روم . فأدارت في الحال ظهرها عنه وعادت بزجاجتها الفارغة الى بيتها واقفلت الباب وراءها بعنف وهي ترسم علامة الصليب وتتمتم كلمات مبهمة .

بعد قليل كان جبران بجانب امه يسألها :

« ما هو ديننا يا امي ؟ »

« نحن موارنة يا ابني . »

« ومن هم الروم ؟ »

« هم نصارى مثلنا . »

« ولماذا اسمهم روم واسمنا موارنة ؟ »

« عليك ان تسأل الخوري يا ابني فهو ينبئك احسن مني . »

« هل يخنقنا الرب اذا اشترينا زيتاً من رجل روم ؟ »

« كلاّ يا ابني . »

وما ان اتم الولد أسئلته حتى دخل ابوه البيت ونادى بزوجته ان تأتيه بزجاجة فارغة ليبتاع زيتاً . فأطل جبران من الباب ورأى بائع الزيت الذي التقاه سابقاً . ورأى أباه يأخذ منه زيتاً وينقده الثمن ويلح عليه بتناول العشاء معهم وتمضية الليلة عندهم . فكاد يرقص فرحاً . لكنه بكى عندما انصرف الزيات في سبيله شاكراً لأبيه لطفه وكرمه .

٩

« نويتَ السفر في الغد من غير شر ؟ »

« نويت . »

« ودبرت فرساً ؟ »

« دبرت اثنين . »

« ولمن الثاني ؟ »

« لجبران . »

« لجبران ؟ لقد فقدت عقلك اذا كنتَ لا تمزح . »

« لا . لست امزح . »

« وكيف لولد عمره احدى عشرة سنة ان يتجول في وعور هذه الجبال على ظهر فرس وان ينام في خيام البدو وبين المعزى والاغنام ومع القمل والبراغيث ؟ ام انت تريد ان تدرّبه منذ الآن في الطريق التي سلكتها بالتزام عدّ الاغنام والمعزى ، وتظلم اصحابها ورعاتها ، ليشبع سنة ويجوع اثنتين ، ويقضي حياته فقيراً كما نحن فقراء ؟ »

« بل اريد ان اعلمه منذ الآن ان قرصة البرغوث والقملة لدغدغةٌ لطيفة بالنسبة لقرصات لسان امه . وان بعر المعزى والغنم لأطهر من جواهر الناس . وخيمة البدوي لأشرف من قصورهم . وبعد ذلك ، ان كنتِ تعرفين له طريقاً اكثر كسباً وسهولة من طريق ابيه فدليه عليها . »

وادّى الجدال الى خصام بين الوالدين اشترك فيه الاولاد . فأخذ بطرس جانب امه والابنتان الصغيرتان جانب والدهما . وبقي جبران على

الجياد لانه كان يحب امه حتى العبادة ، ولم يشأ ان يغيظ اباه خوفاً من ان يحرم السفر معه في الغد . وانتهى الامر بان العشاء الذي كانوا قد جلسوا يتناولونه على صينية مستديرة محوكة من قش الحنطة ظل كما كان . فعاد الخبز الى « المعجن » والطبخ الى القدر . وبرزت ألفيّة العرق من مخدعها فنقل ابو جبران بعض ما في جوفها الى جوفه — ولم يسافر في الغد .

١٠

عاد بطرس الى البيت عصر ذات يوم فوجد امه وحدها ودموعها تترقرق على خديها . وقبل ان يفوه بكلمة بادرته بقولها :

« لا تخف يا بني ، لا تخف . هو القلب يضيق به الصدر في بعض الاحايين فيهرب من العينين . ومتى كان الصدر صدر أمّ فيا ويل قلبها ، ويا ويل عينيها ! انت مصرّ على السفر الى اميركا منذ سنين ، وانا وقفت في سبيلك حتى الآن . اما اليوم فقد فكرت طويلاً وصليت لربي طويلاً . وعرفت انك مصيب في عزمك . فلا حياة ولا مستقبل لك هنا . وها انت بلغت سن الرشد . فانا اقول لك «بحفظ الله» . إنما ستطأ رجلي ظهر الباخرة قبل رجلك . وسيكون اخوك جبران واختاك مريانا وسلطانه معنا . اما **هو** — هو يبقى هنا . وسنفعل كل ما في طاقتنا لنجعل حياته هنيئة وسهلة . فهو ، كما تعرف ، تهمه سيكارته وقهوته و كأسه أكثر من كل شيء . »

« اذا وفقني الرب يا أمي فسيكارته لن تنطفىء وقهوته لن تنقطع وقدحه لن يفرغ . فأنا أحبه بالرغم من كل ما سببه لكِ من ألم . وسينال

جبران قسطه من العلم . ومثله مريانا وسلطانه . وستكونين انت معززة مكرمة . وسندفن الفقر باذن الله . »

« وفقك الله يا ابني . وفقنا الله جميعنا . ان قلبي يتفتت عليه . فهو سيبقى هنا كوتدٍ ولا اطناب مشدودة به . ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة وقد هرب مني الصبر ؟ انني اخشى هذه السفرة يا بطرس . من يدري متى نعود ؟ وقد لا نعود الى بلادنا . داخلُ البحر مفقود ، والخارج منه مولود . لقد اتكلت على الله يا ابني . فاتكل عليه معي . »

« لا تخافي يا أمي . ففي بوسطن حيث نحن ذاهبون عدد غير قليل من ابناء بشرّي . نحن نعرفهم وهم يعرفوننا . وسيسهلون لنا السبيل في بادىء الامر . »

وجفَّ دمع الوالدة وتوشح وجهها النحيل بسحابة من آلام ما كان ومخاوف ما سيكون . اما بطرس فمشت في عروقه عزيمة سنيه الثاني عشرة . وتفشت في وجهه الناعم حمرة الشباب العذر . واتقدت عيناه الواسعتان بنور الأمل المكتّم . وراقه ان اصبح في عين امه رجلاً تُلقى عليه مسؤولية الرجال . ولم يخطر له ولا لأمه ببال انهما ، حتى ولو شاءا لما تمكنا من ان يحيدا عن الخطة التي رسماها قيد شعرة . وان ما ندعوه « قضاء » ليس إلاّ ما نقضيه على انفسنا ، كل حسب اعماله في هذه الحياة وما سبقها . وانهما في ما اختطّاه لنفسيهما كانا يتممان مشيئات عديدة غير مشيئتيهما ، وكلها مقنّع ومكتوم . ومنها مشيئة الحياة التي لم يبصرا منها حتى ذلك الحين إلا اثنتي عشرة سنة برموزها المبهمة ، وانوارها المتحجبة ، وظلالها المتنقلة — وهي حياة جبران .

خيالات بوسطن

لبوسطن « روح » تمتاز بها عن كل مدن الولايات المتحدة . فهي اذا نُسبت الى بعض مدن العالم القديمة ، مثل دمشق واورشليم ورومة ، كانت طفلة بنت يوم ، بل بنت ساعة . غير انها بين مدن الولايات المتحدة من اقدمها ، وهي تباهي كل المباهاة بقدمها . حتى اذا عيّرها احد بأزقّتها الضيقة الملتوية دلّته في الحال على ما فيها من آثار تاريخية تعود الى الثورة وما قبلها وبعدها . واذا نافستها مدينة جديدة بعدد سكانها اشارت الى عدد كبير من ابنائها الذين كان لهم ابعد اثر في تحرير البلاد ، وتوجيه سياستها وتدريب حياتها الداخلية والخارجية . وهي تفاخر بلقبها « مدينة العلم » . ففيها من المعاهد العلمية والفنية ما ليس في سواها . وقد انجبت نفراً من خيرة الكتّاب والشعراء والفلاسفة في اميركا . وهي ضنينة بسمعتها ، شديدة الحرص على ثقافتها . وقد بلغ بها حرصها هذا حدّاً اصبحت معه حياتها خليطاً من التقاليد المتحجرة والكبرياء الفارغة . فمن اكبر مفاخرها ان فيها دماً انكلوسكسونياً اكثر مما في سواها من مدن اميركا . وانها لم تمزج هذا الدم بدم اجنبي الى حد ما فعلته اخواتها . فمدينة كنيويورك او شيكاغو ليست اميركية في نظرها ، وان تكن في اميركا . فالاميركيون في عرفها انواع ثلاثة : — أصلاء ، وشبه أصلاء ، ودخلاء . اما الاصلاء فهم سلالة الذين نزحوا اولاً من بلاد الانكليز — وهولاندة — الى اميركا الشمالية . وفي مقدمتهم « الحجاج » الذين قطعوا المحيط الاطلنطيكي على

مركب شراعي يدعى «مايفلور» واستعمروا مقاطعة «انكلترا الجديدة» (نيو إنكلند) في الشمال الشرقي من البلاد التي اصبحت فيما بعد الولايات المتحدة . حتى ان اعظم شرف تدعيه عائلة اميركية اليوم هو رد نسبها الى احد اولئك الحجاج . وقد تضخم عدد هؤلاء «الاشراف» — وبالاخص في بوسطن وجوارها — الى حد ان الاسطول الانكليزي بمجموعه لا يكاد يُقل في عام ١٩٣٤ ما اقله ذلك المركب الشراعي في عام ١٦٩٢ من اسلاف «شرفاء» اميركا اليوم — اذا صدق ادعاء كل المدعين !

وشبه الاصلاء هم الذين نزحوا قبيل الثورة وبعدها من اوروبا الشمالية بما فيه المانيا والدانمرك واسوج ونروج . اما الدخلاء فهم المهاجرون الذين اخذت جيوشهم تتدفق على الولايات منذ منتصف القرن الماضي ما بين يهود وايتاليان ومجر وسلاف وسوريين وسواهم . وهم محتقرون جداً في نظر الاصلاء واقل احتقاراً في نظر شبه الاصلاء .

في بوسطن احياء مختلفة لمختلف الاميركيين الدخلاء . وكلها حقير وقذر . واحقرها واقذرها حي الصينيين . مررت فيه يوماً في صيف سنة ١٩٢٥ فكدت اضع منديلاً على انفي لشدة الروائح المتصاعدة من كوم الاقذار الملقاة في الشوارع وفيها قشور البطيخ والليمون والموز وفضلات المطابخ السابحة في بحيرات صغيرة من السوائل القاتمة . وللذباب عليها اعراس ومهرجانات . وللكلاب فيها صيد وفير . وعن جانبيها بيوت كالحة الجدران عابسة المداخل تطل عليك من بعض نوافذها قمصان وكلسونات وكلسات تتنشف في الهواء ان عزّت الشمس . وامامها صينية وبنات من صينيين وسوريين وارلنديين يلعبون ويتشاتمون ويتشاجرون .

ذاك هو الحي الذي اختاره في بدء هجرتهم اكثر السوريين الذين قصدوا بوسطن للارتزاق . فجاوَرتْ فيه نارجيلةُ التنباك نارجيلةَ الأفيون ، وكان بينهما ما يكون بين الجيران . ولك ان تصور لنفسك هذا الحيّ كيف كان في عام ١٨٩٥ حين حلت فيه كامله رحمه جبران مع اولادها الأربعة .

١

« جبران . قم يا ولدي ، قم . كفاك درساً . »

« وماذا تطبخين لنا عشاءً يا أمي ؟ »

« مجدّرة ، يا روح أمك . أنت تحب المجدرة . »

« كل ما تطبخينه يا أمي لذيذ . وكل ما تصنعينه حسن . سلم الله يديكِ . »

« ما كان ابوك يقول كذلك . واخوتك كثيراً ما يتذمرون من طبخي . »

« ما لك ولأبي واخوتي . عندك جبران وكفى . »

« ما بالك تنسى اخاك بطرس ؟ »

« وعندك بطرس وهو سيجمع لنا مالاً كثيراً . كنت في مخزنه بعد انصرافي من المدرسة فباع وانا هناك قميصاً بدولار وبرنيطة بدولارين . بطرس سيكون غنياً وسنعود الى بشرّي فنبني بيتاً كبيراً . وسنجعلك سيدة ونأتيك بخدم كثيرين . »

« ادامكم الله لي يا ابني . فانا راضية مـا زلتم معافين . العافية خير من المال . »

« وسأكتب انا روايات كالتي اقرأها الآن . »

« وماذا تقرأ الآن ؟ »

« كوخ العم طام . »

« بالانكليزية ؟ »

« أبالعربية اذن ؟ طبعاً بالانكليزية . »

« لكن الصليب سياجك يا ابني ، أفي سنتين حفظت الانكليزية الى ان أصبحت قادراً على قراءة كتاب كبير كهذا الكتاب ؟ »

« معلمتي الانكليزية تحبني كثيراً . وهي التي تسميني «خليل» لانها تستهجن ان يكون اسمي الاول كاسمي الاخير . وقـد اعطتني اليوم هذه الرواية . مـا ابشع الناس يا أمي واظلمهم ويا ليت لكِ ان تقرإي حكاية العم طام وكم ذاق من ظلم الناس . سأقصها عليكِ عندما انتهي منها . »

« لقد غيرت الحديث وانسيتني مـا كان بخاطري ان اقوله لك . وهو ان تترك كتابك وتخرج فتلعب قليـــلاً . من الكتاب في المدرسة الى الكتاب في البيت . ستهلك صحتك . »

« ومع مَن ألعبُ ؟ مع اولاد الصينيين ام الارلنديين ام السوريين ؟ ما اكثر السفهاء والاشقياء بينهم يا أمي — حتى بين البنات . ومـا اجمل اللسان النظيف والقلب النظيف . اني لأحسن حــالاً في معتزل عنهم مع كتبي ودفاتري واقلامي الرصاصية . فهي نقية طاهرة . »

« مع ذلك لا بأس لو خرجت وتمشيت ولو نصف ساعة . »

« اوَما اخبرتك بما فعلته معلمة التصوير ؟ جاءت اليوم برجل قالت انه مصور – يصور بيده يا أمي لا بالآلة – وأرته بعض رسومي . فقال لي : « انت فرخ مصوِّر . » ودعاني لزيارته في الغد . »

« وهل انت ذاهب ؟ »

« طبعاً . »

« اوَما كان الأفضل لك ولنا يا ابني لو ترددت في اوقات فراغك على مخزن أخيك ودرست تجـــارته لتصبح في المستقبل عوناً له بدلاً من ان تصرف وقتك في التصوير ومطالعة الروايات ؟ »

« يا للعيب ! أأم جبران تقول هذا القول ؟ خنصر مصوِّر يسوى الف تاجر يا أمي . – ما عدا بطرس . وصفحة من الشعر اثمن من كل مـا في المخازن من الانسجة . »

« لكننا في حاجة الى المال . »

« وسآتيك بالمال . لا تخافي . اذا قصر بطرس لن يقصر جبران . »

« ليحفظكم لي الرب يا ابني . »

٢

ما صدّق جبران ان انتهت الصفوف بعد ظهر اليوم التـالي حتى راح يفتش عن العنوان الذي اخـذه امس من المصوِّر . كان يمشي ولا يبصر الازقة وما فيها ومن فيها ، كأنه محمول على سحابة ، وكأن خلف الباب الذي يقصده عـالماً مملوءاً اسراراً ، والرجل الذي سيفتحه له سيكشف له

الستار عن سر تلو الآخر . أوَلم يقرأ ويسمع كيف ان بعض مشاهير الفنانين ابتدأت شهرتهم الفنية عن يد انسان مجهول ساقته اليهم المقادير او ساقتهم المقادير اليه ؟ ولا شك في ان هذا المصوّر هو الرجل المقدور لجبران خليل جبران – هو ملاكه الحارس الذي سيفتح له ابواب الارض والسماء .

كان جبران يؤلف في فكره الحديث الذي سيدور بينه وبين المصوّر وابداً ينتهي بان يترك المصوّر مشدوهاً بغزارة مواهبه ، وجميل منطقه ، وحسن مظهره ، وطيب أخلاقه ، هاتفاً : « من كان مثلك حرام ان تضيع مواهبه بين اناس لا يعرفون لها قيمة . اني سأهتم بتربيتك الفنية . وستكون مصوراً عظيماً . » وكان خياله الفني الخصب يورق ويزهر ويثمر برسوم مستقبل زاهر عندما قرع الباب .

رحّب المصوّر بزائره واخذ بيده وقاده الى سيدة جالسة في كرسيّ على دكة خشبية صغيرة وقال لها : « هوذا الشاب السوري الذي اخبرتك عنه . وقد رأيت في رسومه قوة خيال غريبة وذوقاً فنياً دقيقاً . »

مدّت السيدة يدها الى جبران فأخذها بيده واحس بدمه يصعد الى وجهه ثم يهرب منه . وبرعشة تتمشى في كل عروقه فترتبط لسانه وتضغط على حلقومه . ونكس عينيه الى الارض لكيلا يرى صدر السيدة المكشوف حتى الثديين وذراعيها العاريتين حتى الكتفين .

« انت خجول يا مستر جبران . تقدم . تقدم واسمح لي ان أمرّ اصابعي في شعرك الكستنائي الناعم . شعرك طويل كشعر الفنّانين . اذن انت فنان منذ الآن . دعني اقبّلك على جبهتك الجميلة – هكذا ، هكذا .

بظني ان بلادك جميلة وكل اهلها اصحاب فنون . أليس كذلك ؟ انا أحب الفن . لكن شغلي فيه حتى الآن لم يتعدَّ جلوسي في هذا الكرسي لاصوَّر لا لاصوِّر . ما قولك في صورتي هذه ؟ انها لمّا تكتمل بعد . وقد أوشكَت ان تكتمِل . » — واشارت السيدة الى خـــامة على المنصب لا يزال دهانها رطباً .

عند ذاك رفع جبران عينيه الى الخامة وقـال ، وكأنه بما قاله شاء ان ينتقم من محدثته لانها عاملته كما لو كان صبياً صغيراً لا رجلاً مدركاً :

« لا تكتمل الصورة حتى من بعد ان يتركها المصوِّر . نحن لا نصوِّر إلا بدايات او مقدمات . اما الصورة الكاملة فلا يبدعها الا الله . »

« كلامك اكبر من سنيك . فكم عمرك يا مستر جبران ؟ »

« اربع عشرة سنة . »

« لا غير ؟ »

« وشهران . »

« انت لم تعطني بعد رأيك في صورتي . قُل رأيك بالتمام . وانا اكفل ان صديقنا المصوِّر لن يغتاظ ابداً . »

اخذ جبران ينقل عينيه من السيدة الى الخـامة ومن الخامة الى السيدة وهو لا يكاد يبصر لا تلك ولا هذه ، لأنه ظلَّ حانقاً على نفسه كيف انقاد للسيدة فتركها تداعب شعره وتقبّله على جبينه . ولو انه كان الرجل الذي يعتقد لما تجرأت السيدة ان تفعل بـه ما فعلت . لقد كان من الواجب ان يريها بتصرفه وحديثه انه ليس صبياً بعد . وها هي تسأله رأيه في صورتهـا فهل يجيبها ام لا ؟ الافضل الا يجيبها لتعلم انـه ليس طوع بنانهـا وانه —

كرجل – له الحق ان يتمرّد . وكفنّان – ان يحتفظ برأيه لنفسه .

ولكن ، أليس من الانسب ان يعطيها جواباً يدهشها ويدهش المصور فيبرهن لهما انه ليس الصبي الذي يعتقدان . وانه ، على حداثة سنه ، ذو قدم راسخة في الفن ؟ غير انه لم يهتدِ الى جواب يرضيه لانه كان يفكّر بالسيدة التي امامه : ترى كم عمرها ؟ خمس وعشرون ؟ اكثر . ثلاثون ؟ هي اقرب الى الثلاثين منها الى الخمس والعشرين . لكنها فتّانة وما اجمل الالفة الفنيّة بين ثوبها المخملي الارجواني وبشرتها المشربة بالدم والمائلة الى السمرة .

« انا بانتظار جوابك يا مستر جبران . »

يسمع جبران في صوتها لهجة الكبير يداعب الصغير او يتلطف معه . فيزداد حنقاً على نفسه وعلى السيدة . لكنّ لسانه يتحرّك بغير ارادته فيجيبها بجدّ :

« سأقول رأيي عندما تكتمل الصورة . »

« حسن جداً . ستكون الصورة عندي غداً . فهلاّ تكرّمت عليّ بزيارة ؟ تعالَ من كل بد . سأنتظرك عند الساعة الرابعة بعد الظهر . واليك عنواني . »

٣

خرج جبران من عند المصوّر وفي جيبه ورقة عليها اسم السيدة وعنوانها ، وفي يده رزمة من الاقلام الملوّنة اهداها اليه المصوّر « تذكاراً

لزيارته » . وفي رأسه خيـالات غير التي رافقته من المدرسة الى الباب المجهول . فقد تبين له ان المصور ليس ملاكه الحارس ، أفلا يمكن ان تكون السيدة التي لاقاها عنده ذلك الملاك ؟ لكنها اظهرت شيئاً من « السماجة » في بدء حديثها معه . كيفما كان الامر ، هناك باب جديد يطرقه في الغد . ولعله الباب المؤدي الى فردوس احلامه .

في تلك الليلة ، وهم يتناولون العشاء ، قص جبران على اهل بيته ما كان له عند المصوّر .

« المصور لا بأس به كمصور . وكرجل هو لطيف للغاية . لقد دعاني ان اجلس له ... »

« ان تجلس له ؟ وما معنى ذلك يا ابني ؟ »

« معنى ذلك يا أمي ان اجلس امامه مثلما يريدني ان اجلس ليصورني مثلما يريد ان يصورني . »

« يصوّرك ؟ ما لنا وللصور يا ابني . ومن اين نأتي بالمال لندفع ثمن الصور ؟ »

« لا يا أمي . لا . انت لا تفهمين من التصوير اكثر بما افهم من التركيّة . المصوّر يحتاج الى رجال ونساء من كل الاعمار والاشكال ليستعين بهم على تصوير ما في خاطره . مثلاً : لو أردت أن أصوّر مريم العذراء — وأنا قط لم أرَ مريم العذراء — فقد أصورك ، لكن بالثياب التي أختارها ، وقد أصورك واقفة او جالسة ، او منحنية — باسمة أو باكية — وقد أختار ان أصور على ذراعيكِ طفلاً — حسبا يوحيه خيالي . أفهمت الآن ؟ »

« ليتني لا اعيش لأفهم . »

« وهكذا فأجلس انا لهذا المصوّر عندما يدعوني . وقد وعد ان يعطيني ادهاناً زيتية بديلاً من الاجر . »

« ليته يعطيك نقداً . »

« فأشتري بالنقد أدهاناً . وهكذا أظل حيث انا . »

« أهذا كل ما فعلته في غيبتك الطويلة ؟ » – السؤال من بطرس .

« لم اخبركم عن الأهم بعد . والأهم هو اني التقيت هناك سيدة هي من أشرف أشراف بوسطن ومن الاميركيين الاصلاء الاصلاء . وهي بلا شك من اكبر الاغنياء . وقد أحبّت ان تطلع على رسومي . فدعتني لزيارتها في الغد . »

هنا انهالت الاسئلة على جبران بغير انتظام ومن كل واحد من أفراد العائلة :

مريانا – أصبيّة هي أم عجوز ؟

« تقارب الثلاثين . »

الام – أمتزوجة أم عازبة ؟

« لا اعرف ولا يهمني أن أعرف . »

سلطانه – أجميلة هي ؟

« جميلة جداً . »

مريانا – وما اسمها ؟

« ذلك سرّ . »

بطرس وأمه معاً – أوَذاهب أنت لعندها غداً ؟

« طبعاً . »

وهبطت على الكل سكينة عميقة أحس معها جبران بمرارة تتفشى في دمه . فنهض عن كرسيه وضرب الطاولة بيده قائلاً : « حتى متى تنظرون إليّ نظركم الى صبيّ جاهل ؟ أنا اليوم رجل ولي الحق أن أفعل ما أشاء وأذهب حيث أشاء . أتظنون أني قاصر عن الدفاع عن نفسي وأني لا أعرف الصلاح من الطلاح ؟ »

فقالت أمه بصوت حنون مخنوق :

« وقانا الله يا ابني ساعة التجربة . »

« انا أكبر من التجربة . وقد أخطأت عندما أخبرتكم ما أخبرتكم عن هذه السيدة . »

ولو كان لغريب ان يراه ويسمعه في تلك الحالة لعجب لحمل صغير يقلّد بثغائه زأر الأسد .

٤

« أهلاً وسهلاً بصديقي اللبناني . لقد جئت – ولا بأس . ولو كنت أعرف رقم تلفونك لتلفنت لك ان تؤجل زيارتك الى الغد . لأنني نهضت اليوم بصداع أليم في رأسي . فلزمت فراشي طول النهار . لذاك تراني كما أنا – في قميص النوم والكيمونا . فاعذرني . واعذرني اذا ما استقبلتك في مخدعي ، لأني أكون أكثر ارتياحاً اذا اتكأت في فراشي . وأنت لا شك تريد لي الراحة . ومن ثم فالصورة – صورتي – معلقة على جدار

مخدعي . فتعالَ معي وقل لي لماذا لم تعطني رأيك فيها البارحة . ولعلك تفعل اليوم ما لم تفعله أمس . »

وقادت صاحبة البيت زائرها الى مخدعها وأجلسته في كرسيّ كبير من الحرير ، وهو يهم بالاعتذار والانصراف .

« قد يكون من الافضل يا سيدتي لو تركتكِ الآن وعدت في الغد . »

« لا . لا . انتَ هنا الآن . ولعل صداعي يذهب بوجودك معي . فقد بدأ يخف . وبيننا حديث طويل . فأنت شرقي وأنا أحب الشرق وما فيه من سحر أبدي . فكيف به اذا اتحد ذلك السحر بسحر الفن ؟ وها أنا ، إكراماً لقدومك ، سأحرق لك بخوراً شرقياً . »

وجاءت بمجمرة من الفضة في شكل تنّين ورشّت فيها مسحوقاً من خشب الصندل وأشعلته بثقاب . فتصاعد دخانه الأبيض العطري وامتزج بما في الغرفة من عطور . ثم وثبت الى سريرها واتكأت بمرفقها على وسادتها ساندة رأسها بيدها ، وقد استرسل شعرها الأسود اللامع ، بعضه على صدرها والبعض على زندها العارية . وأشرق في عينيها السوداوين الواسعتين نور لم يره زائرها من قبل .

« اعذر ما بدا مني البارحة . فأنا لن ألعب بشعرك ، ولن أقبّلك على جبهتك . وهات قلْ رأيك في الصورة قبل كل شيء . »

« تمنيت لو قام ليوناردو من قبره ليصوركِ ، اذن لما أعطاكِ عينيْ نعجة قريرة ، بل عينيْ نسر جريح . ولما أطبق شفتيك على بسمة الوردة للشمس ، وفي قلبها قطرة من أجفان الفجر ، بل على بسمة الوردة وقد

طارت من قلبها لؤلؤة الصباح . إني لأرى في وجهك حزناً ليس في الصورة ، وقناعاً من الغبطة الكاذبة يبدو في الصورة حقيقة راهنة . »

« انك لشاعر وفنان وساحر في وقت واحد . فمن أطلعك على أسرار حياتي . ومن أنبأك أن أهلي زوجوني من تاجر جلود طمعاً بماله فأفلس بعد زواجنا بشهرين . وأنه يزيدني سناً بأكثر من عشرين سنة . وأنه لا يعرف من العالم إلا جلود البقر والمعزى والغنم . وأني قد قضيت في بيته عشر سنوات هي عشرة دهور من الألم والمرارة ؟ هنيئاً لمن يقع في هذه الدنيا على قلب يفهم قلبه . انها لأكبر غبطة يا صديقي . وأراك ، بالرغم من سنيك ، صاحب قلب فهيم . صدّق ان هذا البيت لقبرٌ لي . اقترب مني قليلاً . اقترب . ودعني أضع يدي في يدك لعلني أكتسب من شعرك وفنّك وسحرك ما ينسيني الذي انا فيه . »

« أوَيجور زوجكِ عليكِ كثيراً ؟ »

« يعاملني كما لو كنت حظيّة عنده اشتراها بماله . وأنا في الواقع حظيّة وقد ابتاعني بماله ولو كان بامكانه لما سمح لي بالخروج من البيت . ولكن دعنا منه . وهات حدّثني عنك وعن شرقك الجميل . »

« وأين زوجك الآن ؟ »

« لقد جدد تجارته منذ عامين وهو الآن في مكتبه وعنده الليلة أمور وجلسات هامة لن يتخلص منها قبل نصف الليل . حاولت كثيراً أن ألبسه جلد انسان بدلاً من جلد ثور ، وأن أليّن من طباعه الشرسة ، فلم ينلني من ذلك سوى الوجع المبرح – وجع الجسم ووجع الروح . وما صداعي اليوم إلا نتيجة معركة جرت بيني وبينه في هذا الصباح . »

« وهل خفّ صداعك الآن ؟ »

« لقد كدتَ تزيله بما لقيته فيك من جميل الحس وطيب الادراك . ولعلك لو وضعت يدك على جبهتي لزال ما تبقّى في رأسي من وجع . اقترب مني قليلاً . اقترب . »

وارتفع صدر السيدة بتنهدة عميقة ، ولمعت في عينيها دمعتان . وللحال اجابتهما عينا جليسها بالمثل . وكان سكوت .

« لست أهلاً لدمعة من دموعك يا صديقي . وقد كان الأولى بي أن ألجم لساني وأبقي ألمي دفيناً في قلبي مثلما كان كل هذه الأعوام . فاعذرني . »

« منذ اليوم أصبح ألمكِ ألمي . »

« ما أحنّ قلبك وأجمل روحك — وما أضعف النساء ! اني لأشعر بثقلٍ على صدري ، وضغطٍ في حنجرتي ، ودوخة في رأسي — اقترب مني قليلاً ... اقترب ... »

٥

ودّع جبران « ملاكه الحارس » نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ومعها ودّع صباه وعفّة الصبا وطهارته . وأحس عند خروجه من ذلك البيت كأنه خارج من أتون . وكأن كل قطرة من دمه قد تحولت الى جمرة ملتهبة ، وهو لا يدري كيف يهرب منها وبماذا يبرّدها . لكنه ما مشى بضع خطوات في الشارع حتى تحول اللهيب في داخله الى قشعريرة

اشمئزاز وندم . وراح يؤنّب نفسه تأنيباً موجعاً . وتذكر كلمات امه « وقانا الله ساعة التجربة . » وجوابه لها انه أكبر من التجربة . « بلى . أنا أكبر من التجربة . ولن أقترب من امرأة فيما بعد إلا التي أختارها زوجة لي . وسأخبرها بزلّتي هذه . – التجربة . الزلة . – ما هي التجربة ؟ ما هي الزلة ؟ الزلة هي أن تسمع استغاثة قلب ولا تغيثه . والتجربة أن يدعوك الحب لتقدم نفسك محرقة على مذبحه فلا تقدمها . أأتركها فريسة لتاجر الجلود ؟ لله ما أجملها ، ولقد اختارتني من بين كل مَن في بوسطن – بل في العالم – من رجال . فما أسعدني ! » وعادت النار تشبُّ في داخله فلا تلبث أن تنقلب الى قشعريرة ، وهكذا بين اللهيب والقشعريرة بلغ بيته ، وبخطوات كأنها خطوات خيال صعد السلم الخشبي اللولبي المظلم الى الطبقة الرابعة – وهي الاخيرة – حيث كان يسكن مع عائلته . وكان كلما صعد درجة يردد كلمات أمه « وقانا الله ساعة التجربة . »

كان مَن في البيت قد ناموا – إلا أمه . فهي كانت تنتظره في ردهة الاستقبال الصغيرة التي كانت غرفة مائدة كذلك . وما أحسّت بوطأته على الدرج حتى هبّت الى الباب ففتحته . وما وقع نظرها على ابنها حتى شعرت بغربة تقصيها عنه ما شعرت قطُّ بمثلها من قبل .

« جبران . أطلت غيبتك عنّا هذه المرة أكثر من كل مرة يا ابني . انتظرناك للعشاء حتى الثامنة . وقد طبخت لك طبخة تحبها . شغلت بالنا كثيراً كثيراً . هل تعشيت يا روحي ؟ »

« ما معنى شغل البال يا أمي ؟ هل انا طفل ؟ انني رجل وأكره أن أقدّم حساباً لأحد – حتى لأمي – عن كل خطوة أخطوها . »

« هل آتيك بالعشاء يا روح أمك ؟ »

« لا . فقد تعشيت . »

« عندها ؟ »

« نعم . عندها . »

« كنت وإياها لا غير ؟ »

« بل كان رهط من علية القوم وأشهر الفنانين في بوسطن . »

« وزوجها كذلك ؟ »

« لم أرَ زوجها . ولا أعرف اذا كان لها زوج . »

« أهي جميلة جداً ؟ »

« اذا كان لكِ حديث عن غيرها يا أمي فهاتي نتحدث وإلا فالنوم أفضل . »

« قُم الى فراشك يا عين أمك . واجتهد أن لا توقظ أخاك بطرس . فهو – واوَلداه – تعبان . وقد نام باكراً ولم يأكل غير لقمة أو لقمتين . »

٦

مرّ عام مزدحم بالزيارات السرّية الى البيت السرّي . وباللذة والألم . فقد ظن جبران في بادىء الأمر – عندما قطف الثمرة المحرّمة – أن بامكانه أن يأكل حلالها دون حرامها ، وأن يتذوق حلاوتها دون مرارتها . ولعله لم يفكر في حلالها وحرامها على الاطلاق . بل كان يربّت نفسه لتوصله – في سنه – الى ما يشتهيه الكثير من الرجال ولا يدركونه .

غير أنه عندما شعر بالمرارة وأحب أن يطرح الثمرة من يده وجد بذورها في كل نقطة من دمه ، ووجد انه اذا طرحها سيطرح معها قلبه . فازداد تعلقاً بها واعتقاداً بأن المرارة ليست فيها بل في الذين حرموها . وبكل ما في فكره الفتي من حماسة وفي خياله من لهيب ، راح يعالج في نفسه شرائع البشر وقوانينهم ، وبالأخص ما تعلق منها بالزواج . فيراها زردات من فولاذ قاسٍ ، لا قلب لها ولا خيال ، وقد حبك الجهل منها شبكة هائلة لكل مَن له خيال كخياله وقلب كقلبه .

لكن التكتم أصبح جراباً من الحيّات والعقارب يتوسده في نومه فيعكر عليه أحلامه . ولماذا التكتم ؟ خوفاً من الفضيحة . وأنّى المهرب من الفضيحة ؟ بالتكتم . انها لدائرة مسحورة ومن الواجب تحطيم حلقاتها كيما يتحرر الناس من سحرها ، وهو سيكرس حياته لذلك الواجب حباً بالانسانية المتألمة . ولكن في التكتم لذة الجهاد . فلا يتكتم إلاّ من في قلبه سر عميق . ولا يحمل في قلبه سرّاً عميقاً إلا من كان رجلاً كبيراً . وها هو – جبران – يحمل في قلبه سرّاً عميقاً والعالم كله يحاول انتزاعه منه . فهل يقوى عليه العالم ؟ معاذ الله ! انه لأقوى من العالم .

على وقع هذه الأفكار وأمثالها كانت خطوات جبران تتسارع في أول الليل الى البيت السرّي . وما ان أدرك الباب ورفع يده ليكبس زر الجرس الكهربائي حتى رأى خلفه – على ضوء مصباح الشارع – رجلاً طويل القامة ممتلئها ، حليق الوجه ، لطيف المعاني ، لا يزيد عمره على الخمسة والثلاثين ، وقد تأبط محفظة جميلة من الجلد الاسود .

« سأريحك يا سيدي من دق الجرس . » – وأخرج الرجل مفتاحاً من جيبه وفتح الباب وقال لجبران بصوت كله لطف وتأدب :

« تفضل يا سيدي وادخل . »

دخل جبران متردداً ، مضطرباً ، ودخل وراءه الرجل ونادى صاحبة البيت باسمها فكانت أمامه بلحظة . وارتمت على عنقه تقبّله ، وقد امتقع لونها وهي تحاول أن تستر رعشتها ودهشتها :

« ماذا جرى يا عزيزي – ماذا جرى ؟ »

« لا تجزعي . لقد نسيت محفظة الدراهم ، فعدت في الحال من المحطة . اسرعي إليّ بها قبل أن يفوتني القطار . »

فجاءته بها وقالت وهي تناوله اياها :

« لقد أصبحت كثير النسيان في هذه الأيام يا عزيزي . وقد تسربت العدوى منك إليّ . فقد أنسيتني بلهفتك وسرعتك أن أسلم على المستر جبران وأن أعرفك اليه . فهو فنّان شرقي التقيته أمس عند بعض الأصدقاء . وقد تلطف الليلة وجاء يحدثني عن فنه . هذا زوجي يا مستر جبران . »

« اني لسعيد بمعرفتك يا مستر جبران . وكنت أتمنى لو لم أكن مضطراً الى السفر لأعرفك أفضل من هذه المعرفة القصيرة . فاعذرني ، والى اللقاء القريب ان شاء الله . »

وقبّل الرجل زوجته وانصرف .

٧

بعد شهر من تلك الليلة كان دخان الصندل يتصاعد من فم التنين الفضي فيتكاثف لحظة ثم يكاد يتقلص ، ويلتوي هنـا ، ثم يستقيم هناك ، وجبران يرقب رقصته الهـادئة وينفخ فيه بين الفترة والفترة من دخـان سيكارته فتتكوّن من مزيج الاثنين ألوان وخيـالات غريبـة . وكان في الغرفة صمت عميق .

« الى مَ تعذبني يا خليلُ ؟ »

« لا تسميني فيما بعد « خليل » اسمي المستر جبران . »

« ما كنت أظنك حقوداً قاسياً الى هـذا الحد . ألأني قلت في صورتي الزيتية ، التي كانت سبب تعارفنا ، انها أجمل من صورتي التي رسمتها أنت بقلم رصاص ، تمزق ما رسمت وتفعل بي ما فعلت ؟ »

« لم أفعل جزءاً من مائة ممـا كان من الواجب أن أفعـل . أنتِ لا تفهمين من الفن شيئاً ولا تميزين بين رأسه وذنبـه . لقد صوّرتك شفافـة كروح ، جميلة كخيال ، بعيدة كحلم . صوّرتكِ مثلما أراكِ بعين حي . فاستغربتِ الصورة لأنكِ من تراب ولا تبصرين نفسك إلا بعين من تراب . ومن كان من تراب لا يعرف العذاب . فبأي لسان تقولين إني أعذبكِ ؟ أما صديقك الذي صوّر هذه الصورة ، والذي تفاخرين بصداقته وتعظمين فنه ، فهو لا يفهم من الفن اكثر مما تفهمين . فالحقي به ودعيني وشأني . »

« عيب عليك أن تقول ذلك . وللرجل مقامه وشهرته في عالم الفن . ولعلك متى بلغت سنه ، وحويت اختباره ، تكون أعظم منه . أما الآن فأنت ما تزال في أول عمرك ... »

« في بنصري من الفن أكثر مما في كل رأسه . ومن ثم فاعلمي أنني أكبر منكِ ومنه . وأنك إن كنت لا تزالين تحسبينني صبياً فبقدرتي أن أريكِ كيف تستغني الرجال عن النساء . »

« أما أنا فأريك كيف لا تستغني النساء عن الرجال . »

ومدّ « الملاك الحارس » جناحيه وغمر بهما « محروسه » وكان سكوت ، تلته دموع . وكان عتاب ، تلاه انقلاب .

« لقد أنسيتني المهمّ المهمّ ، وهو سفرك الى لبنان . أفلا مردّ لما أقرّه أهلك ؟ »

« قلت لكِ ان رأي أهلي رأيي . ولولا ذلك لما أقدمت على السفر . فأنا لا أكاد أعرف من لغة أجدادي إلا ألِفها وباءها . ولا أعرف من بلادي غير مسقط رأسي . ومن الضروري لي أن أدخل مدرسة في بيروت لأتعلم لغتي في الأقل ، وأتعرّف الى بلادي . »

« قد يكون قصد أهلك من ذلك إقصاءك عني . لقد نجحوا . لقد نجحوا . فستنساني يا خليل . ستنساني . »

« ان نسيتك فلتنسني يميني . »

« لقد أعطيتني زهرة شبابك يا خليل — لقد أعطيتني رجولتك . »

« بل لقد أعطيتِني رجولتي . »

هدية الموت

في شمس نيسان سحر ليس تعرفه بقية الشهور . لا سيما في المدن المكتظة بالسكان مثل نيويورك ولندن وباريس ، حيث يقضي الناس الشتاء وكأنهم في حصار . أما العدو المحاصر فهو البرد . وأما عساكره فالعواصف والثلوج والأمطار والغيوم العابسة الغضوب . وهو عدوّ لا يكفّ عن المهاجمة ولا تصدّه الجدران الغليظة . بل يدخل على الناس في منازلهم ومعابدهم ومصانعهم والأبواب مقفلة والنوافذ مغلقة . وحيثما لمست أصابعه الخفية أجسادهم تقهقر الدم أو تجمد . لذلك يكافحونه بالنار والبخار والألحفة الدافئة . واذا ما التقوه خارجاً نازلوه وعليهم دروع ثقيلة من الأكسية الكثيفة ، وفي أرجلهم أحذية من الجلد والمطاط تكاد تكون أغلالاً . وتراه ، مع ذلك ، يسد بالزكام أنوفهم ويفتك في صدورهم وظهورهم ومفاصلهم . لكنهم عندما تطل عليهم شمس نيسان يشعرون أن بجانبهم حليفة لا تُقهر ، وأنهم سينالون الفرج عن يدها . فيفتحون لها نوافذهم ، ويخرجون للاقاتها جذلين ، ويطربون عندما تغتسل وجوههم بذوب طاهر من أشعتها الدافئة . واذا ما أحسوا فيها بلذعة برد قالوا هو عدونا يتقهقر عنا ويعضنا عضته الأخيرة . لكنه قد شاخ ولا قوة بعد في أنيابه .

كان الرابع من نيسان عام ١٩٠٢ وكانت الشمس تدغدغ مويجات نهر السين وتسكب على باريس سيولاً من النور الدافىء ، فتبدو المدينة كلها ،

ببناياتها الكالحة المخنوقة بأنفاس الشتاء ، وشوارعها المنكمشة من ملامس البرد ، كأنها سجين أطلق سراحه ، او جبّار كان في صدره غصة وزالت . فالناس من باريسيين وغرباء ، كانوا يسيرون في الشوارع أنهراً وجداول ، تتلاقى ، فتمتزج ، فتفترق . وفي سيرها خفة وسهولة . كأن أغراضها المتضاربة اندغمت في غرض واحد . ومجاريها المتشعبة تحولت الى مجرى واحد .

وعلى مقعد منفرد بالقرب من كاتدرائية «نوتردام» كان شاب غريب كأنه في خضمّ البشرية الباريسية نقطة من الزيت في بحر من الزئبق . عليه ثياب تكاد تكون ثياب فقير لولا ما فيها من نظافة وهندام . ومن تحت قبعته البنية قد تدلت خصل من شعره الكستنائي الطويل . وعيناه المثقلتان بالأهداب قد أطبقتا حتى نصفيهما كأن بهما نعاساً . وفي وجهه النضر كآبة من يُبصر غير ما يشتهي . او يشتهي غير ما يبصر . وكان يحدث نفسه صامتاً :

« زحمتك السنون يا جبران . وهي مصيبة في ما تقول : — من كان بطيء الخطى فليتنحّ من طريقنا . — وأنت بطيء الخطى . فماذا فعلت حتى اليوم ؟ وراءك عشرون عاماً — انها لمقدمة طويلة للاشيء . كفاك تفرجاً مع المتفرجين وآن لك أن تكون بين من يتفرّجُ عليهم المتفرجون . ليوناردو لم يكن متفرجاً . ولا ميكلانجلو ولا بوتيتشيلي ولا تيتسيان ولا رمبراندت ولا روبنس ولا فيلاسكس . هوذا اللوفر — يؤمُّونه بالملايين من المشارق والمغارب ليتفرجوا على من فيه من رجال الفن المعدودين . لكن من فيه لا يمشون ولا يبشون . ولا يخرجون الى أزقة الناس

ليتفرجوا على الناس ، لأنهم أعظم من الناس . لله ميكلانجلو ! يا ليتك ولدت في زمانه ، إذن لتوسلت اليه أن يسمح لك بالتتلمذ عليه . ما كان أجمل الفن وأسهل التقرب من الفنانين في ذلك الزمان . وما اكثر العقبات في طريق من يرغب فيه اليوم !

أنت كثير الأحلام يا جبران . من أين تأتي بالمال لتدرس الفن كما تشاء أن تدرسه ، وأنت ما تزال عالة على سواك بدلاً من أن تعول سواك ؟ أمك تشتغل ، وأخوك يشتغل ، وأختاك تشتغلان ليقوموا بأودهم وأودك وأود أبيك . وأبوك سلم دفته لشريك محتال فأضاع كل ما كان لديه من قليل رزق ومال . وهو ، مع ذلك ، لا يفارق قهوته وسيكارته وقدحه . مسكين أبوك ما أسلم نيته ، وأقل تدبيره ، وأطيب معشره . وما أحسنه رفيقاً في السفر — بعلبك . الهرمل . حمص . حماه وسهولهما وعاصيهما . وصرود لبنان الشمالي وقراه . لولاه لما عرفت شيئاً من جمالها . وتلك الليلة التي قضيتها واياه على « ظهر القضيب » في خيمة رعاة الغنم ، والبدر والنجوم من فوقك ، والأغنام الآمنة ، والتلال البيضاء من حواليك — والبحر تحت قدميك — لله كم كان فيها من روعة ومن سحر !

فم الميزاب وبرج ايفل . نهر أبي علي والسين . نوتردام ودير مار سركيس . شوارع باريس ووادي قاديشا . اللوفر ومغارة قاديشا . الأرز وغابات بولونيا . بيروت وباريس . مدرسة الحكمة والسوربون — ما أغرب هذه المقابلات !

أربع سنوات على مقاعد مدرسة الحكمة — ماذا نفعتك ؟ اشكر ربك فقد نجوت من الصرف والنحو والمعاني والبيان والعَروض والقوافي .

وانك ، وان فـاتتك قواعدهـا ، لم يفتك جوهرهـا . واشكر ربك فقد نجوت من الصلوات في الصباح والمساء . وقد صليت في أربع سنوات ما يكفيك حتى آخر حيـــاتك . فأنت لن تدخل كنيسة منذ الآن . لأن يسوع الذي تحبه لن تجده في كنيسة قطّ. ما أكثر المعابد وأقل المتعبدين . وما أوفر الصلوات وأقل المصلين !

هي كانت تعرف معنى الصلاة والعبـــادة . وهي كانت تعبد « بالحق والروح » لأنها كانت تعبد بقلبها ، وان كان عقلها في حوزة الكاهن . آه ما أظلم الموت . وما أقسى تقاليد الناس ! يا ليتها بجانبك الآن . فقد كان لك في كل بسمة من بسماتها النقية بلسم لكل جرح . وفي كل لمسة من أناملها الناعمة الطاهرة جناح لكل فكر . لقد وقاك الله « ساعة التجربة » معها ، فصنت عفتها وعفتك ولم تُدَنس سنواتها الست عشرة بشهوة . مـا أجمل الحب اذا كان نظيفاً ! وما أعظم الفرق بينها وبين « الملاك الحارس » !

ماذا تقول غداً « لملاك الحـارس » اذا لاقيتها في بوسطن ؟ ومـاذا عساها تقول فيك اذا عرفت أنك هجرتها من أجل سواها ؟ لتقل ما تشاء ، فهي ليست الملاك الحـارس الذي كنت تحلم بـه . وهي من التراب وفي التراب وللتراب ، وليس في استطاعتهـا أن تفهم حلماً من أحلامك أو تلمس شوقاً من أشواقك .

ومن ذا تهمّه أحلامك وأشواقك يا جبران ؟ لا بد من أن يكون لك ملاكٌ حارس يفهمها فيقودك اليهـا . من هو ؟ من هي ؟ بلى . ففي قلب أمك السـاذج محبة تفهم بالاشارة . وفي صدر أخيـك بطرس ورأسه أحلام وأفكار تكاد توافق أحلامك وأفكارك . غير أنه يسترها عن أعين الناس ،



جبران في مدرسة الحكمة

حتى عن عينيه وعينيك ، كيما يتفرغ لتحصيل الرزق لك ولذويه وذويك . اذا لم يكن لك غير أمك وأخيك يا جبران لكفاك . لكن لك كذلك أختين نبيهتين ، ومجتهدتين . فمريانا تحصل مالاً من ثقب ابرتها . وسلطانه ؟ – لقد تركتها فتاة في أول صباها وهي اليوم عروس في السادسة عشرة من عمرها . ترى هل تعرفها عندما تقابلها غداً في بوسطن وهل تعرفك ؟ بل هل يعرفك الباقون من أهل بيتك وجيرانك ؟ لقد تغيرت كثيراً في هذه السنوات الأربع التي قضيتها في لبنان . وقد اشتدّ بك الشوق الى أهلك . فأنت لا تصدق متى تضمهم اليك ويضمونك اليهم . وأنت عيب عليك أن تعود اليهم فارغ اليد . في جيبك كمية قليلة من المال اذا أنت اقتصدت في نفقاتك فاض لديك منها نحو اربعة ريالات . فانهض وابتع بها هدايا لأهلك ولتكن أجمل هدية لسلطانه . »

وأخرج جبران محفظة صغيرة من جيبه وعدّ ما فيها من الدراهم . ثم نهض ومشى وهو لا يعرف أين يقصد وماذا يبتاع .

وبجانبه مشى الموت حاملاً على ذراعيه روح أخته سلطانه التي كان قد تقبّلها في تلك الساعة ، وراء المحيط ، هدية من يد الحياة .

غير أن جبران لم يكن يبصر لرفيقه وجهاً ، ولا يسمع لقدميه وقعاً . بل كان يفكر في ما سيبتاعه هدية لأخته الصغيرة المحبوبة .

خيالات بوسطن

٨

دقت الساعة الثانية بعد نصف الليل والظلمة المخيمة في غرفة بطرس رحمه وأخيه جبران لم تسمع للنوم نفَساً ولا حفيف جناح . وكان كلا الأخوين اذا ما تقلب في سريره من جانب الى جانب فعل ذلك بهدوء وتحفظ خشية أن يوقظ أخاه النائم على بعد ذراعين منه . وأخيراً سمع بطرس تنهدة بليلة خارجة من تحت لحاف أخيه . فخاطبه همساً :

« جبران — يا أخي — يا روحي — أتبكي حتى في مثل هذه الساعة من الليل ، وأنت منهوك من سفر البحر وفي حاجة الى النوم ؟ نم ولو قليلاً . »

« الدموع لا تعرف الساعات يا بطرس . لقد ذرفتَ حصتك منها ، فدعني أذرف حصتي . لست أبكي سلطانه وانما أبكي الله . فقد مات الله اذ ماتت سلطانه . وقد نهشت رئتيه مكروبات السل مثلما نهشت رئتيها . وما ذاك غير الحق . فمن يُمِت بالسل يَمُت بالسل . كما يؤخذ بالسيف من يأخذ بالسيف . لقد كان لي رب وكان مصدوراً . وكنت أداويه بعقاقير الكنيسة وتعاويذ اللاهوتيين . واليوم قضى . ولن يُنشر حتى في يوم النشر . بلى . بلى . لقد مات ربي عندما أمات سلطانه . فكيف أحيا بعد اليوم بغير رب ؟ »

« جبران – أنت محموم يا أخي . أنت سكران من الحزن والتعب . لا تنكر كل ما تجهله . »

« السل . السل . – جيوش خفيـة جرارة – جيوش الله الخفي القدير يرسلها لتحتل صدر مخلوق من مخاليقه ولتسترد منه في سنة او سنتين نَفَساً نفخه فيه بأقـل من طرفة عين . ولتهدم في طرفـة عين هيكلاً ظل يبنيه سنين . مـاذا جنت سلطانه الطاهرة ليشنّ الله عليهـا مثل هذه الغـارة ؟ ولماذا اختارها من بيننا ، وهي أنقانا ، وهي زنبقة مكممة ما يزال أريجها في قلبها ؟ »

« قـد لا يكون الموت قصاصاً يا أخي . وقـد تكون في غفوة الموت أحلام أجمل من كل ما في صحوة الحياة . من يدري ؟ »

« ولماذا اختار لها هذه الميتة من بين كل أصناف الموت ؟ »

« ستعرف طرق الله عندما تصبح الهاً . »

« ولماذا جاء بها من أحضان الأرز النيّرة الرحبة ليميتها في غرفة ضيقة مظلمة – من بشرّي الى بوسطن – من بيت عـلى كتف الوادي المقدس الى بيت في حي الصينيين في بوسطن ؟ »

« لا بـد من سرّ في كل ذلك . غير أني لا أعرفـه ولا أعرف من يعرفه . »

« ولماذا جعلها أختاً لي وجعلني أخاً لها ؟ ولماذا أماتهـا في هذه السنّ ، وفي هذه السنة ، لا في سواهما . وفي الرابع من نيسان لا في الخـامس من أيار ؟ »

« دعك من « لماذا » يا أخي . فقد حرقت قلوباً كثيرة قبل قلبك . »

« آه – بطرس ، بطرس . في رأسي الآن الف لماذا ولماذا . وهي تصارعني بألف سيف وسيف . فإمّا تصرعني فتدفنني مع ربي في لحد واحد ، وإما أصرعها فأنهض وينهض ربي معي قوياً ، عادلاً ، جميلاً ، سرمدياً . »

« خلّنا الآن من ذلك يا جبران . وما زال النوم بعيداً عن أجفانك ، وأجفاني ، فهات أخبرني شيئاً عن بشرّي . كم مرة دخلت المغارة ، وتسلقت جبل الأرز ، وانحدَرْت الى الوادي المقدس ؟ وهل كنت تنهض مع الفجر وتترقب مواكب النور صاعدة من البحر لتلاقي الشمس عندما تطلُّ من وراء ظهر القضيب ؟ وهل قلت للشمس المشرقة – ولو مرة – بطرس يسلم عليكِ ؟ وهل زرت دير مار سركيس وصليت في معبده الحجري المهجور ، أو سرقت من كرمته عنباً وأكلت ، ولو حبة واحدة ، عن أخيك بطرس ؟ ما كان أجهلنا يا جبران ، وما أسوأ الساعة التي ابتعدنا فيها عن خرير شلال قاديشا وظلال واديه المقدس . انها لساعة سوداء . ولعلنا ، لو رضينا ببلادنا ، لرضي الله عنا وما أخذ سلطانه منا . والآن – ست سنوات – سبع سنوات – وماذا فعلنا ؟ لا علمٌ ولا مال . بلى فأنت قد تعلمت . وأنت ستكفّر عن كل قصورنا . لقد كنت أقرأ رسائلك بلذة فائقة ، وأشعر كأني أقرأ فصولاً من سفر أيوب أو من مزامير داود أو من نشيد سليمان . فما عدت أعرف – هل أنت في التصوير أقدر منك في الكتابة ، أم في الكتابة أقدر منك في التصوير . ولعلك ستكون كاتباً ومصوراً معاً . »

« لقدْ نسي الناس فن الكتابة يا بطرس وانشغلوا عنه بصناعة رصف الكلام . فلا روح ولا جمال في ما يكتبون . ولو عادوا الى سفر أيوب

والمزامير ونشيد الأناشيد لعرفوا أن العواطف اذا ما فارت والأفكار اذا ما ثارت ضاقت دونها القوالب المحدودة وغصت بها المجاري المألوفة . لكنهم لا عواطف فيهم تفور ، وينظمون كما لو كانت لهم عواطف . ولا أفكار لهم تثور ، وينثرون كما لو كانوا ذوي أفكار . فهم أموات في ما ينظمون وينثرون . »

« ترى أنعود الى لبنان بعد ؟ هيهات ، هيهات ! أنا أعرف أنني لن أبصر تلك القمم النظيفة . وأصلّي من أجلك لكي تراها عني وعنك . هيهات . هيهات ... »

وأخذت بطرس نوبة من السعال ارتجّت لها الظلمة بما فيها من دموع وحزن وحرقة .

٩

« الحق الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التي تقع في الأرض ان لم تمت فانها تبقى وحدها ، وان ماتت أتت بثمر كثير . »

كانت سماء كانون الثاني تنثر من دموعها البيض على بوسطن ، وكان جبران يطالع في الانجيل . فوقع على هذه الآية في الفصل الثاني عشر من يوحنا ، ومع أنه قرأها وسمعها مراراً عديدة من قبل ، شعر كأنه يقرأها للمرة الأولى . وكأن ستاراً أزيح عن عينيه ، فرفعهما عن الكتاب وغرق في بحر من التأمل : — كل شيء يموت لكي يحيا . الصخرة تموت لتلد حجارة لبناء الهيكل . والشمعة تموت لتتحول نوراً . والخشبة تموت ليظهر

ما فيها من نار . والثمرة تموت لتنبت الشجرة . والشجرة تموت لتعطي الثمرة . كل شيء يموت ليعود الى مصدره . الحياة ذهاب والموت إياب . والحياة كساء والموت عُري . والحياة فكرة بارزة والموت فكرة خفية . والله هو الموت والحياة معاً .

وللحال أخذ جبران دفتر الرسم وقلم رصاص وبدأ يرسم في أعلى الورقة خطوطاً ودوائر ونصف دوائر . وما هي إلاّ دقائق حتى برز من تلك الخطوط المبهمة شكل رأسٍ منحنٍ الى الأمام. واليد التي تمسك القلم تحس كأن يداً خفية تحركها ، والقلم يتنقل بسرعة من جانب في الرأس الى جانب وحينما انتقل ترك أثراً بيّناً لمعنى من معاني الوجه – هنا حاجباً ، وهناك شبه فم أو أنف ، وهنالك موجة من الشعر . وكانت السبابة تارة ، وطوراً الوسطى تساعدان القلم في بعض وثباته ، فتزيدان من ظل أو تخففان من ظل ، وكان جبران ، كلما انتهى من حركة ، يبتعد عن الورقة قليلاً ويزورها بعينيه لحظة ثم يعود اليها عودة العاشق الى معشوقه أو العابد الى معبوده . وقد نسي سيكارة كان قد أشعلها فاحترقت من تلقاء ذاتها حتى آخرها . ولم يقف ليشعل ثانية حتى انتهى من العينين وقد احتار هنيهة ما بين ان يجعلهما مفتوحتين او مطبقتين .

بأقل من ساعتين برز الوجه بجبهته المغسولة أعاليها بنور علوي ، والمظللة ما بين الحاجبين وخلفهما بظلال ناعمة ، دافئة ، خفيفة . وبأجفانه المنفرجة بعضها عن بعض قيد شعرة أو شعرتين ، كأنها تخشى ، لو تدفق كل ما خلفها من سر وسحر ومحبة دفعة واحدة ، أن تغرق الناظر اليها بدلاً من أن ترفعه . وبفمه المفتوح نصف فتحة وكأن فيه كل بركات النعيم

وجماله . أما الشعر فقد امتد في مويجات جميلة ذات اليمين وذات اليسار ثم تدلى الى أسفل في شكل مستدير ، وتقارب طرفاه تحت الذقن ، دون أن يلتقيا ، كأنهما جناحان منعكفان واحدهما نحو الآخر دون ان تتلامس قوادمهما . ومن أسفل الورقة قد ارتفع لهيب من نار في شكل جسم بشريّ عارٍ ، لكنه خفيف كالنسيم ، شفاف كالنور ، وقد أدار ظهره الى الناظر . له تقاطيع جسم بشري إنما دون اللحم والعظم والدم . اذا ما نظرت اليه لم تره خطوطاً جامدة على ورقة جامدة ، بل تخيلته يرتفع الى فوق ، دونما أقل تعب أو جهد على الاطلاق ، حتى تلامس قمة رأسه شفة الوجه السفلى ، وكتفاه طرفي الشعر . فيبدو الشعر كأنه ذراعا أُم أطلت على طفلها من فوق فانتشلته اليها لتضمه الى صدرها وتباركه بقبلة المحبة .

« عادت سلطانه من حيث أتت – الى الله . ينبثق الشعاع من الشمس ويعود اليها . والشجرة من الأرض وتعود اليها . والروح من الروح فتعود اليها . هي عودة لا بد منها . »

ونظر جبران الى صنع يديه فرآه جميلاً . لكنه ما كاد يرفع القلم ليوقع اسمه بأسفل الصورة حتى دخل عليه أخوه بطرس وكأنه محمول على ذراعي الموت :

« أسرع وراء الطبيب يا جبران . أسرع ما تمكنت . ولا ترجع الى هذا البيت . فهو ينهار علينا بسقفه وكل جدرانه . وأرضه تهرب من تحت أرجلنا . فانجُ أنت في الأقل من بيننا ... أمك في خطر ، وأخوك بطرس على أهبة السفر . أسرع ! »

١٠

خرج الطبيب من البيت تاركاً في أذن جبران كلمة سوداء ما لبثت أن تغلغلت في سقف البيت فتدلت منه ثعابين وأفاعي . وفي الجدران فأطلت منها عقارب وأنياباً محددة . ووقفت في الأبواب والنوافذ تنانين فاغرة أفواهها .

« السل . السل . — جيوش خفية جرارة — جيوش الله الخفي القدير وفي الدرجة الثالثة ! أين أنت يا ربي ، أين أنت ؟ كنت دفنتك ودفنت نفسي معك . وأمس ظننتني وجدتك ، فأقمتك من الموت وقمت معك . أوَأنت تسخر بي أم تراني أسخر بنفسي ؟ أمس أخذت أختي الحبيبة سلطانه واليوم ترسل جيوشك الخفية الجرارة لتسلبني أمي وأخي — وهما أعزّ ما في الكون لديّ . فما بالك لا تستردّني اذ تستردهما ؟ وما بالك تتركني مغلول اليدين والرجلين ، مقنّع العينين ، قصيص الجناح ، فارغ القلب والجيب ؟ الطبيب يأمر بنقل أخي وأمي الى المستشفى . فمن أين آتي بالمال ؟ ان لم يداوِ الناس جراحي بعقاقيرهم إلاّ اذا داويتُ جيوبهم بالفلوس ، فبماذا عساني أداويك لتداويني ؟ ربي والهي . ربي والهي . ربي والهي ! لا تتركني ، ولا تقتص من جهلي . لعل جيوشك الخفية الجرارة معسكرة الآن في صدري كذلك وفي صدر أختي مريانا مثلما هي في صدر أمي وأخي بطرس ... »

عند هـذا الفكر انتفض جبران بقشعريرة أشد من قشعريرة البرد . وضاقت عليه أنفاسه اذ خُيّل اليه أن كل نسمة يتنشقها من الهواء حواليه تحمل فيلقاً من « الجيوش الخفية الجرارة » ورأى نفسه كسمكة في شبكة. غير أنه ما عتم أن عاد يقوّي نفسه بنفسه :

« عيب عليك يا جبران . أوَتقبل الموت لأختك وأخيك وأمك ولا تقبله لنفسك ؟ قُل لتكن مشيئة الله . بلى . مشيئة الله . ماذا قادك من بلادك الى هذه البلاد ؟ — مشيئة الله . ماذا سلبك أختك سلطانه ؟ — مشيئة الله . ماذا نقل مرض أختك الى أمك وأخيك ؟ — مشيئة الله . ولكن لماذا شاء الله ما شاء ، ويشاء ما يشاء ؟ ! لماذا ، لماذا ، لماذا ؟ — لأنك دنّست روحك بالفسق ، وبالغش ، وبالكذب ، يا جبران . لأنك استدفأت فراش الشهوات وهو بارد . واستنعمت لحاف الملذات وفيه مناخس . لأنك خاطىء يا جبران . وهل يجازي الله الأمّ بخطيئة ابنها ، والأخ والأخت بذنب أخيهما ؟ وما هي الخطيئة ؟ — « أما أنا فأقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه . » — « الحق الحق أقول لكم ان حبة الحنطة التي تقع في الأرض ... ان ماتت أتت بثمر كثير . »

ولكن ما العلاقة بين حبة الحنطة والسل في الدرجة الثالثة ؟ وبين التنين الفضي الصغير الذي كان يتنفس بروح الصندل وهذا التنين الواقف بالباب والقاذف من جوفه حمماً ونقماً ؟ وما العلاقة بين « الملاك الحارس » — آه لو تعرف بما أنت فيه الآن يا جبران . بل خير لها ألاّ تعرف . وحسناً فعلت عندما التقيتها أمس في الشارع فلم تردّ تحيتها . هي عابرة

طريق في حياتك وأنت عابر طريق في حياتها . أما تلك التي تركتها في بيروت ؟ .. هي كذلك قد عادت الى ربها مثلما عادت سلطانه .

حقاً ان ما صوَّرته اليوم لجميل – عودة الروح الى الله . وأجمل منها ستكون «رقصة الأفكار» التي ما برحت تعذب خيالك منذ أيام . أين قلم الرصاص ؟ هذا ميزان الحرارة ... – قلم الرصاص والترمومتر . رقصة الأفكار ورقصة الموت . المتحف والمستشفى . نداء آلهة الفن وسعال الأمل المصدور . الجيب الملتهب والثلج المنهمر . »

واذ ذكر الثلج فرَّ جبران من البيت وهو يشعر كأنه مقذوف من فوهة بركان . وما ان أحسَّ بلذعة الهواء خارجاً ، وبالثلج يفرش بساطاً ناعماً لقدميه ويتسابق لتبريد عينيه ووجنتيه ، حتى راح يهيم على وجهه ، مردداً مع كل خطوة او خطوتين : « أين أنت يا الهي ، أين ؟ »

١١

« مريانا . ستهلكين عينيك يا أختي بهذا الخيط وهذه الابرة ، وعلى نور الغاز . »

« وماذا نعمل ، وهذه الابرة وخيطها يدفعان أجرة البيت وثمن الغاز ويقيتان جسدينا ويكسوانهما . أو نستعطي قوتنا وكساءنا من الناس ؟ »

« مريانا . مريانا . ان ابرتك تثمل عيني ، وخيطك يشدّ على عنقي . »

« ما لك يا جبران ؟ لا أكاد أقول كلمة إلاّ جرت دموعك . فهل جرحتك يا روح أختك بما قلت ؟ »

« لا تخافي من دموعي يا أختي . فالمحبة ان بلغت أعماق القلب أترعت المدامع . وابرتك وخيطها محبة صافية . مع ذلك يشق عليّ أن أراكِ تدفنين أيامك ولياليكِ في ثقب ابرة لتعوليني بدلاً من أن أعولك . وأن تصرفي نور عينيك ليبقى في عينيّ نور . »

« دعك من عينيّ فلا خوف عليهما . وما بالك تنسى عينيك ؟ فأنت تصور طول النهار وتكتب حتى أواخر الليل . وان اعترضتك في ذلك زعلت مني . »

« هي محنة يا أختي لا مهنة . ولولا محنتي لكنت اليوم مع أمي وبطرس وسلطانه . أتعرفين ما يقول الناس ؟ يقولون - أليس من الغبن أن يموت بطرس ويبقى جبران ؟ أتعرفين ما قاله أبي في بشرّي ؟ قال : - كنت اوثر لو مات وحيدي وبقي بطرس . ولكن ما يتوجب في نظر الناس لا يتوجب في نظر الله . لو كان الموت قصاصاً لكان من الحق أن أمضي ويبقى بطرس وتبقى أمي وسلطانه . وقد تكون الحياة عقاباً ، ويكون الموت ثواباً يا مريانا . وعقابنا أن نذوق مرارة اليتم - يتم الأم والأخ والأخت . لكن في عقابنا ثواباً - فقد عرفنا أحنّ الامهات ، وأحب الاخوان ، وأطهر الأخوات . ويظهر أن نسيج حياتك وحياتي لمّا يكتمل بعد ، وأن فيه خيوطاً تربطنا بنسيج حياة أناس آخرين على الأرض نعرف اليوم بعضهم ونجهل الآخر . لكننا سنعرفهم كلهم قبل أن نبرح هذه الديار . ان نسيج حياة أمنا وأخينا وأختنا قد اكتمل . والسرّ هو في أنه لم يكتمل إلاّ في بوسطن ، وأنّ الأصابع التي لملمت خيوط سداه ولحمته كانت أصابع السل . هنالك سرّ كذلك في زمان اكتماله ومكانه : سلطانه

في البيت في ٤ نيسان سنة ١٩٠٢ ، بطرس في البيت في ١٢ آذار سنة ١٩٠٣ ، أمي في المستشفى في ٢٨ حزيران سنة ١٩٠٣ . وها نحن في سنة ١٩٠٤ وقد لا ندرك نهايتها . لقد ذهبت أمي وفي قلبها حسرة كبيرة ، وهي أنها كانت في المستشفى فلم ترَ بطرس في ساعة وفاته . وفي ذلك سرّ أيضاً يا مريانا . »

« ما القصد من هذا الكلام يا أخي ؟ ألتبكي وتبكيني ؟ أوَلا تعرف أن دمعة في عينك تولد دمعتين في عينيّ ؟ »

« ويل لمن يصافح الموت بيد ملوثة بالآثام ، مغلولة بالشهوات يا مريانا ، ذاك يجد يد الموت أبرد من الجليد ، وأقسى من الحديد . »

« غداً علينا أن ندفع أجرة البيت عن شهر وثمن الغاز عن شهرين . »

« وهنيئاً لمن مات بموت عزيز عليه قبل أن يموت . فأنا قد مُتُّ ثلاثاً يا مريانا وما أزال حياً . »

« لقد تركت لك الكمية اللازمة من المال على الطاولة في غرفتك . »

« العالم أخرس أصمّ يا مريانا . والويل لمن تحرجه العازة على مخاطبة العالم . »

« ولا تنسَ أن تشتري لك برنيطة في الغد . فقد أصبحت أخجل من أن أراك بين الناس في برنيطتك الحالية . »

« وللحياة دفتر تقيد فيه لكل انسان حساباته يا مريانا . وهي تصفيها في كل ثانية . وما نحن فيه الآن هو رصيد حسابنا منذ الأزل حتى الآن . »

« قم يا أخي الى فراشك ، حلّفتك برحمة أمك وأخيك وأختك . »

« بـل برحمة أمي وأخي وأختي أعدّي لي ركوة من القهوة واذهبي الى فراشك واتركيني أنهي بعض أشياء لا بد من انهائها الليلة . فقد أخبرتك أنني أنوي عرض صوري عما قريب ، واني قد توفقت الى محلّ أعرضها فيه وهو في قاعة صغيرة عند مصوّر فوتوغرافي اسمه « دايْ » . اما الصالونات المعروفة فلا تقبلني لأنني مجهول ، وان قبلتني فبشروط لا طاقة لي عليها . وعليّ أن أبدأ بإعداد الصور وتـنـيرهـا وتسميتها والاهتمام بإطاراتهـا منذ الليلة . »

« أراكِ قد ورثت سيكارة أبيك وقهوته قبل ممـاته . رجوتك بحياتك يا أخي ، وإكراماً لي ، أن تقلل من تلك وهذه فإنني أخشى منهما عـلى صحتك وأخشى كذلك أن ترث القدح . فقد بدأت تشرب قليلاً . »

« الحق عليكِ . فقهوتكِ طيبة . وهذا البيت الذي نقلتِنا اليه يطيب لي فيه السهر أكثر من البيت الذي كنا فيه سابقاً — ولو أنه ، مثل سلفه ، في حي الصينيين . ومن ثم فان أنتِ طلقتني من السيكارة والقهوة فاحذري من أن تزوجيني من النارجيلة — لاسيما نارجيلة جيراننا واخواننا الصينيين . »

« لا . لا ! ألف سيكارة وفنجـان قهوة ونارجيلة سورية ، ولا مصّة واحدة من نارجيلة صينية . »

***

بقي جبران يحسو القهوة ويدخن السيكارة تلو السيكارة حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وبينما هو يفتش عن صورة في محفظةٍ من محـافظه عثر عـلى مقال كان قد كتبه في العام السابق بعنوان « الموسيقى » . وهو باكورة جهوده الأدبية الجدية . فأخذ يقرأه سـاكتاً مغيراً كلمة هنا وعبارة

هناك ، الى أن وصل حيث يخاطب الموسيقى ، فرفع اذ ذاك صوته الى ما فوق الهمس كأنه يترنح بما يقرأ ولا يصدق أنه هو الذي كتب ما يقرأه :

« يا ابنة النفس والمحبة . يا إناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشري . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح . يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور الشعائر المضمومة . يا لسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشعراء ومنظمة عقود الأوزان . يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ومؤلفة الشواعر من مؤثرات الجمال . » – هنا وقف جبران يفتش عن كلمة غير « مؤثرات » يكون بينها وبين « الجمال » من التجانس مثلما بين « نتف الكلام » و « الأفكار » . واذ لم يهتدِ اليها راح يتابع القراءة :

« يا خمرة القلوب الرافعة شاربيها الى أعالي عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين ... » وظل يصحح بعض العبارات ، ويربّت نفسه على بعضها ، الى أن أذن الديك بالفجر . فانطلق جبران الى فراشه قائلاً في نفسه : « يجب أن أصدر هذا المقال في شكل كرّاس . فهو جدير بالنشر على حدة . وسيقرأه الناس معجبين متسائلين – من هو هذا جبران خليل جبران ؟ »

١٢

بين النجاح والفشل ، مثلما بين الموت والحياة وكل المتناقضات ، خط من الظل المتنقّل تنظر اليه في لحظة معلومة من الزمن فلا يصعب عليك

أن تقول في هذا الأمر إنه ناجح وفي ذاك إنه فاشل . ثم ينتقل الظل فتنظر وإذا بالنجاح فشل ، وبالفشل نجاح .

مضى على معرض جبران بضعة أيام ولم تذكره الصحف إلاّ تنويهاً ، ولا ازدحم فيه المتفرجون كما كان يتوهم صاحبه أنهم سيزدحمون ، ولا بيع من رسومه رسم واحد . هو الفشل بعينه ، والفشل الذي ما بعده فشل .

كان جبران جالساً في زاوية من زوايا معرضه الصغير يحدّق في مجلة بيده دون أن يرى حرفاً من حروفها . وكان يسلّي نفسه بنفسه فيذكر بعض الذين زاروا المعرض وكيف كانوا يمرّون بالصور كأنهم يمرّون بطلاسم فيقولون :

« هذه جهود ولد صغير ومن العيب أن تُعرض على الجمهور كأثمار فنّية . » وبالأخص ذكر جبران رجلاً جاء وبرفقته نساء ثلاث . ثم أخذ يحدّثهن عن الفن كأنه يلقي عليهن محاضرة . وكان كلما اقترب من صورة على الحائط يبين لرفيقاته ما فيها من ضعف وخلل وتنافر . فقال فيه جبران : « يا له من حمار ! » على عكس امرأة جاءت برفقة رجال ثلاثة وكانت تقودهم من صورة الى صورة فتهتف هتاف إعجاب عند معنى عميق ، أو ظل دقيق ، وتختم كلامها كل مرة : « يا للخيال . يا للخيال ! » وفيها قال جبران : « انها تفهم ما تقول . » وبينا جبران يفكّر في صُوَرِهِ تفكير الأم ببناتها الحسان اللواتي لم يتوفقن الى أزواج ، ويهوّن فشله على نفسه ، إذ دخلت القاعة سيدة فحدّقها جبران بطرف عينيه ثم عاد الى المجلة في يده كأنه يلتهم كل حرف من حروفها التهاماً . وقد شاء بذلك أن يري السيدة قلة اكتراثه للزائرين كأنه ملّ ازدحامهم وضوضاءهم ، وكأنه

أكبر بكثير من أن يأبه لما يقولون ، أو يهتم بما يحبون أو يكرهون ، ويشترون أو لا يشترون . إلاّ أنه عاد يسرق لحظات من الزائرة الغريبة فرآها تدرس الصور درس من يرغب في التوصل الى أسرارها . وذكر إبرة أخته مريانا وخيطها فقال في نفسه : « لعل هذه السيدة تبتاع صورة . » فنهض عن كرسيه ومسد بيده شعره الطويل الى الوراء ، وبابتسامة تقطر لطفاً واحتشاماً تقدم من السيدة وخاطبها :

« هل تريد سيدتي أن أفسر لها بعض هذه الصور ؟ »

« إني أكون ممتنّة لك يا سيدي جدّاً جدّاً . ولا أنكر عليك أنني بحاجة الى من يفسّر لي مثل هذه الصور . فهي ليست من المألوف في الفن . وأنا ، وان كنت من عشاق الفن ، (هنا قال جبران في قلبه : ما أكثرهم في هذه البلاد وما أكذبهم ! ألعلك منهم ؟) لست من الفنانين . فهل أنت يا سيدي أحدهم ؟ »

« لي الشرف أن أنتمي اليهم . »

« وهل تعرف صاحب هذه الصور ؟ »

« أنا هو يا سيدتي . »

« إني سعيدة بمعرفتك يا مستر جبران . اسمي ماري هاسكل . وأنا رئيسة مدرسة « مِسْ هاسكل » للبنات في هذه المدينة — في شارع مارلبورو ولعلك سمعت بها . المدرسة أسستها أختي . واشتريتها منها في العام الماضي عندما تركت أختي عائلتها الكبيرة لتؤسّس عائلة صغيرة — لتتزوّج . »

« بلى . سمعت بمدرستك يا سيدتي . وهي من أحسن مدارس البنات في هذه المدينة . صدقي اني سعيد جدّاً بالتعرف اليكِ يا مس هاسكل . »

« اعذرني اذا ما سألتك من أي بلاد أنت . فأنت تلوح لي افرنسياً أو ايتالياً . »

« بل أنا من لبنان . »

« لبنان ؟ لبنان الأرز المقدس ونشيد الأناشيد الجميل ؟ »

« نعم . لبنان الأرز ونشيد الأناشيد . وقد ولدت عند أقدام أرز الرب على كتف الوادي المقدس ، في بلدة تدعى بشرّي . »

« لعلك درست الفن في باريس . »

« درسته على نفسي وعلى بعض المصوّرين في بوسطن . »

« حقاً إنك قد أحرزت منه قسطاً كبيراً وأنت لا تزال في مقتبل عمرك . »

« تفضلي واجلسي يا مسْ هاسكل . »

« لا . لا . ما جئت لأجلس بل لأدرس . أفلا تفضلت وفسّرت لي هذه الصورة ؟ » وأشارت الى صورة على الحائط .

« لقد دعوت هذه الصورة « عودة الروح الى الله . » لعلك تعتقدين اعتقادي أن كل ما في الكون من محسوس ليس إلا رموزاً للحياة غير المحسوسة . وأن القصد من الفن ليس تقليد الرموز بل تفسيرها برموز جديدة . الوجه الذي ترينه في أعلى الصورة هو وجه الله . أنا أعلم ، كما تعلمين ، أن الله لم يره أحد بعينٍ حسّيّة . أما بالخيال فقد رآه كثيرون . ولو كنا كلنا أخيلة لما احتجنا الى رموز . لكننا في عالم الحس . والخيال

يتعذر عليه أن ينقل ذاته الى الحواس ما لم يتخذ لذاته جسماً محسوساً . والآن لكِ أن تنظري في هذا الوجه وتترجميه من المحسوس الى غير المحسوس . ولعلكِ اذ ذاك تبصرين ما حاولت أن أودعه من معاني الالوهة . أو أكثر منه . ولعلكِ إذ ذاك تنظرين الى الخيال الناري الصاعد من أسفل الورقة نحو الوجه فترين فيه روحاً انبثقت من الله وبعد الموت عادت اليه . الفن يجب أن يكون خطاباً من خيال الفنان الى خيال الناظر . لذاك أتحاشى في تصويري أن أشغل حواس الناظر دون خياله . ومن ثم فالقوالب التي يتخذها الفن يجب أن تكون جميلة وخاضعة لنواميس الجمال . وللجمال نواميس اذا تعدّاها الفنُ لم يكن فناً . »

« كلامك جميل يا مستر جبران ومعقول . وحتى الآن لم يكلمني بمثله فنان . وماذا تقول لي في هذه الصورة وقد استوقفتني طويلاً وأشكلت عليّ معانيها ؟ »

« وماذا استوقفك فيها لأول وهلة ؟ »

« استوقفتني هذه الأجسام العارية المتماسكة بعضها ببعض وكأن قوة تقذفها الى فوق قذف عمود من الماء ثم تهوي بها الى تحت وتبعثرها كقطرات فوّارة إذ تهبط الى الحوض . »

« أوَلم تحسّي بشيء وأنتِ تنظرين الى هذه الأجسام وتقاطيعها والمعاني التي تبدو لك في وجوهها ؟ »

« هي أجسام متألمة ووجوه متألمة . »

« اذن لستِ بحاجة الى تفسيري . فقد دعوت الصورة « فوّارة الألم » وقد شئت أن أمثل بها القوة التي تعصر من النفس كل زوائدها فلا تبقي

إلا على عصارتها الخالصة . والألم أفعل في النفس من اللذة . وما الحياة كلها إلا فوّارة من الألم . »

« ولماذا تكثر من الأجساد العارية ؟ »

« لأن الحياة عارية . والجسم العاري هو أقرب وأجمل رمز للحياة ، فاذا ما صوّرت جبلاً في شكل كومة من الأجسام العارية ، أو شلاّلاً في هيئة سلسلة من الأجسام العارية الهاوية من فوق الى تحت ، فلأني أرى الجبل كومة من كُوَم الحياة ، والشلال مجرىً من مجاري الحياة . »

« أراكِ كذلك تكثر من رموز الموت والألم . فهل في ذلك معنى غير معنى الموت والألم ؟ »

« لأن الموت والألم كانا نصيبي الأكبر من الحياة حتى اليوم . فبين الرابع من نيسان سنة ١٩٠٢ والثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٣ فقدت أختي الصغرى ثم أخي الأكبر ثم أمي . وكلهم أعزّ ما في الكون عندي يا مِس هاسكل . »

« إنني أفهم حزنك يا مستر جبران . والدمعة التي أراها الآن في عينك تفهمها دمعة في قلبي . فأنا ، مثلك ، قد فقدت أمي حديثاً . وكانت أعزّ إنسان لديّ . لقد وجدنا بيننا قرابتين : قرابة الفن وقرابة الألم . »

« قرابة الألم أبقى من قرابة الفرح وأقوى من قرابة الدم . »

« لقد كنت لطيفاً معي لدرجة قصوى يا مستر جبران . ولست أدري بأية كلمات أشكر لك لطفك . أفلا تفضلت وزرتني قريباً في المدرسة لعل القرابة التي وجدناها بيننا لا تنتهي هنا . ويا ليتك تدري كم أنا ممتنة لصديق لي . فهو الذي أخبرني اليوم عن معرضك وألحّ عليّ بالمجيء قائلاً إنه من

المعارض القليلة التي يجب على كل من يحب الفن أن يزورها . ولولاه لما أتيح لي أن أعرفك وأعرف فنك الجميل . قل لي أناجح معرضك ؟ »

« من حيث كثرة الزائرين — نعم ، فقد غصت هذه القاعة غير مرة بالجماهير . أما من حيث المبيع — لا . كثيرٌ هم الذين أظهروا رغبة في ابتياع بعض الصور . لكنهم لم يدفعوا الأثمان التي أطلبها . إنما عندي وعود كثيرة أؤمّل أن تثمر . »

« هي مثمرة بإذن الله . أستودعك الله يا مستر جبران . وأتمنى أن أراك عما قريب في مدرستي . وأشكر لك لطفك مرة ثانية ، فقد سقيتني كأساً طافحةً بخمرة الفن . »

« كأس الفن طافحة أبداً . ولكن الشاربين قليل . الى اللقاء يا مِسْ هاسكل . »

عادت ماري هاسكل الى مدرستها وهي لا تذكر الخيط الأبيض الحريري الذي حلمت به منذ اثنتين وعشرين سنة في مدينة كولومبيا من ولاية سوث كارولينا . ولا تشعر أنها في ذلك المعرض الصغير قد لمسته بيدها . وبيدها شدته على خصرها . بل كانت تفكر في الصديق الذي هداها الى المعرض وفي الكلمات التي ستعبر بها عن امتنانها له وعن بعض ما شهدته من لطف الشاب اللبناني وغزارة مواهبه الفنية . وقد عجبت في سرها كيف أن الله لا يراعي العدل في تفريق هباته على مخلوقاته .

وعاد جبران الى بيته وهو لا يعرف أنه بلمسه ليد الزائرة الغريبة قد لمس جناح الملاك الحارس الذي كان يفتش عنه منذ سنين . بل كان يقول في نفسه : « يا ليت ربي زاد في قامتي قيراطين حتى اذا وقفت بجانب امرأة

كمس هاسكل ما شعرت بنفسي صغيراً مثلما شعرت اليوم . »

ولم يخطر لجبران ولا لماري هاسكل ببال أن الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطَي حياتهما من جديد ليتابع حياكة النسيج الذي بدأ بـه منذ الأزل على منواله السرمدي .

١٣

كانت ماري هاسكل تسكب الشاي وتناوله لضيوفها موجهة أكثر كلامها وعنايتها الى الشاب الجالس عن يمينها :

« حقاً إنك أوليتنا جميلاً كبيراً يا مستر جبران عندما لبَّيت دعوتنا ورضيت أن تعرض صورك الجميلة في مدرستنا . والفضل في ذلك راجع الى الآنسة الجالسة تجاهك . فهي من مساعداتي . وبعد أن سمعتني أحدث عما رأيت في معرضك قالت : « يا ليتكِ تطلبين اليه أن يعرض صوره في المدرسة . » وهكذا كان . وها نحن سعداء أن نراك ونرى صورك عندنا . اهتمي بجارك يا ميشلين وقدمي له بعض أقراص الحلوى . جارتك عن يمينك يا مستر جبران من معلماتنا . وهي إفرنسية الأصل . واسمها ، كما ذكرته لك سابقاً ، مادموازيل اميلي ميشيل . غير أننا ندعوها تحبباً « ميشلين » فهي حبيبة الكل وملاك هذه المدرسة . »

« رئيستنا يا مستر جبران تقيس كل الناس بذاتها ، لذلك دعتني ملاكاً ، أما نحن المعلمات والتلميذات فندعوها « السنديانة » — جذورها في الأرض ورأسها في السماء . وما نحن إلاّ عصافير نعشش في أغصانها ونستظل بظلها

ونلجأ من العواصف اليها . نحن نضطرب لأمور كثيرة أما هي فهادئة أبداً . في كل يوم نأتيها بمشكل بل بمشاكل . أما هي فلا يشكل عليها أمر . نتقاضى اليها في خصومات كبيرة أو تافهة فلا نرتدّ من عندها إلا راضيات . واذا ما طلبنا اليها أن تسنّ لنا قانوناً في أمر من الأمور ، قالت : « لتكن المحبة قانونكنّ . فأنتنّ إن لم تكنّ على وفاق مع أنفسكنّ لن تكنّ على وفاق مع القانون . »

« ميشلين ، كفانا يا عزيزتي نتحدث عن أنفسنا ونحن في حضرة كاهن من كهنة الجمال . ما هو نظرك في الجمال يا مستر جبران ؟ »

« الجمال هو ما نراه فنودُّ أن نعطي لا أن نأخذ . هو ما نشعر عند ملقاه بأيدٍ ممدودة من أعماقنا لضمه الى أعماقنا . هو ما تحسبه الأجسام محنة والأرواح منحة . هو ألفة بين الحزن والفرح . هو ما نراه محجوباً ونعرفه مجهولاً ونسمعه صامتاً . هو قوة تبتدىء في قدس أقداسنا وتنتهي في ما وراء تخيلاتنا . الجمال هو المقرّب قلوبنا من عرش المرأة . وعرش المرأة هو عرش الله . ويا ليت الذين جعلوا من الدين لهواً فألفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل يفقهون معنى الجمال ، اذن لجعلوه معبوداً لهم . »

« لقد رفعتَ المرأة كثيراً يا مستر جبران عندما أجلستها على عرش الله . »

« أكثر الأديان يتكلم عن الله بصيغة المذكر . وعندي أن الله أمّ مثلما هو أب . بل هو أبٌ وأمّ معاً . والمرأة في نظري هي مثال الله الأم . قد يُدرَك الله الأب بالعقل أو بالخيال . اما السبيل الى الله الأم فهو الحب .

والحب هو الخمر التي تعصرها الآلهة من قلوبها لتسكبها في قلوب الناس . وليس يشربها صافية إلا الذين صفت قلوبهم من كل أدران الشهوات الحيوانية . هؤلاء اذا ما ثملوا بالحب ثملوا بالله . أما الذين يمزجون مع خمرة الحب خمرة معصورة من كرمة الأرض ففي سكرهم عربدة الشياطين وأجيج نار الجحيم . »

« إنني أسمع في كلامك ما أراه في صورك يا مستر جبران . وقد قلت لي إنك تكتب بلغتك العربية . فهل طِرازك في الكتابة مثل طِرازك في التصوير ؟ ولماذا اخترت هذا الطراز ؟ »

« لعله اختارني ولم أختره . لقد وجدتُني ماشياً في هذه الطريق دون علم أو قصد مني . ولكلٍّ طريقه في ما يعمل . اذن هذه هي طريقي . عندما بدأت بالتصوير لم أقُل لنفسي : — هوذا الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثير سواها فاختر لك واحدة منها . — بل ما شعرت إلاّ وقلمي يرسم رموزاً لما يجول في خاطري من خيالات وأفكار وعواطف . يحسب البعض الفن في تقليد الطبيعة . والطبيعة أعظم من أن تُقلَّد . ومهما تسامى الفن لا يأتي بمعجزة من معجزاتها . ومن ثم فما الحاجة الى تقليد الطبيعة وهي محسوسة لكل ذي حس ؟ إنما الفن أن نتفهم الطبيعة ونؤدي معانيها للذين لا يفهمونها . الفن أن نؤدي روح الشجرة لا أن نصوّر جذعاً وفروعاً وأغصاناً وأوراقاً تشبه الشجرة . الفن أن نأتي بضمير البحر لا أن نرسم أمواجاً مزبدة أو مياهاً زرقاء هادئة . الفن أن نرى في المألوف ما ليس مألوفاً . لذلك أبتعد في التصوير وفي الكتابة عن كل مألوف لأتوصل الى ما فيه من معانٍ وألوان غير مألوفة . ويلٌ لعينٍ

ألِفت الشمس الى حد أن لا ترى فيها غير وجاق يدفئها ومشعل يدلها على الطريق من بيتها الى مخزنها . انهـا لعمياء وان أبصرت البرغشة على بعد ميل . ويل لأذن ألفت تغريد البلبل الى حدّ أن لا تسمع فيها غير نوطات متتابعة . انها لصماء وإن سمعت دبيب النمل تحت الأرض . نعم . تلك هي طريقي . وهي تعرفني وأنا أعرفها . حتى ليخيّل إليّ في بعض الأحايين أني سلكتها قبل أن وُلدت . فأنا لا أكاد أبلغ عطفة فيها حتى أشعر بمـا بعدها . ولا أنحرف عنهـا قيد باع إلاّ أعرف أنني انحرفت قيد باع . فأعود اليها . »

تمادى الحديث أكثر من ساعتين . ومثل كل حديث يدور حول فنجان الشاي ، كان يتنقل من الجليل الى التـافه — من الله الى الطقس ، ومن الفن الى أسعار البيض ، ومن الأدب الى أخبـار آخر ساعة ، ومن أرز لبنـان الى حي الصينيين في بوسطن . وكان لجبران القسط الأوفر منه . فكان يفيض في الكلام عن أسعار البيض إفاضته في الكلام عن تمثـال الزُّهرَة في متحف اللوفر وعن ذراعيه المقطوعتين ، مفخماً كلامه ، متباطئاً بلفظه ، كأنه يتلو آيات منزلات . وكان كلما قال كلمة فتش حافظته حتى اذا ما اهتدى الى أخرى أبهج منهـا لوناً ، وأعذب رنّة ، وأثقل وزناً ، وأشد غموضاً ، استبدلها بهـا ، وإلاّ تعدّاهـا الى سواها . وقد آنس من قريحته فيضاناً كان يزداد كلما التفت الى النسوة جليساته فقرأ في وجوههن علامات الاستحسان والاعجاب . ومع أنه ، في الظاهر ، كان يوجه حديثه الى الكل ، لم يكن يخاطب في باطنه إلاّ اثنتين — رئيسة المدرسة عن يساره والمعلمة الافرنسية عن يمينه . أمـا رئيسة المدرسة فكان يخاطب

رأسها . وأما ميشلين فقلبها . وكان ، وهو يخاطبهما ، يقابل بينهما في فكره وفي وجدانه :

الرئيسة : — وجه أشقر مستطيل يغلب فيه النحول . جبهة منفرجة عالية . شعر مسرّح الى الوراء ومعقود في مؤخر الرأس عقدة بسيطة . حاجبان ضنّ الله عليهما إلاّ بالقليل من الشعر . أجفان تكاد أهدابها لا تُرى ، تنطبق ثم تنفرج عن عينين زرقاوين مستديرتين غارقتين في حَجاجيهما ، مغسولتين بسائل ليس من بئر الدموع ولا من مستودع الضحك . أنف مستطيل دقيق قائم فوق شفتين رقيقتين تكاد أطرافهما تصل متوسط الحد الأيمن بمتوسط الحد الأيسر . إذا تلاقتا كونتا خطّاً مستقيماً . أو تباعدتا انكشف من تحتهما معظم اللثتين وما فيهما من أسنان ليست آية في الاتساق والانتظام . صدر ضيق وكتفان عاليتان تمتد منهما ذراعان طويلتان تنتهيان بكفين يكاد طولهما يكون ضعفي عرضهما ، وأصابع عظمها أوفر من لحمها ، تخنت عقدها ودقت رؤوسها وتباعدت كثيراً أوائلها عن أواخرها .

لباسها غاية في البساطة والنظافة وقلة الاكتراث بالأزياء . ووجهها يقسم يميناً صادقة أنه لا يعرف مساحيق العطارين . تتكلم فلا تلوك الكلام ولا تردده ، بل تخرج الكلمة من فمها تلو الكلمة دونما تزاحم أو تنافر . اذا أبدت فكراً جاءت عليه كله ، لا على ربعه أو نصفه ، وذاك بعبارات منتقاة صحيحة لا أثر فيها للتأنق والتقعر وتعمد الفصاحة والبلاغة . في منطقها وزن ينم عن توازن في عقلها . وفي عقلها صراحة تكره التبطن بالموارية والكذب . قد تُخدَع لكنها لا تَخدَع . تسوق

ولا تُساق . وإن ساقت فبدون أسواط ومناخس وشفرات حادة . وقد يُهزأ بها ولكنها لا تهزأ . صراحة كأنها سبيل سوي — لا يلتوي يمنة ولا يسرة ، ولا يصعد هضبة أو ينحدر الى واد . يخيّل الى سامعها وناظرها أن أعنّة حياتها في حوزة عقلها . اذا عملت خيراً فلأن عقلها يقول لها إن فعل الخير حسن . أو ارتدّت عن شر فلأن عقلها يدلها أن تجنب الشر حسن . وإن لم يكن في نفسها مخابيء غضب ، أو مخالب حِقد ، أو سهام نميمة أو حسد ، فلأن عقلها يعظها أن الابتعاد عن الغضب والحقد والحسد والنميمة حسن . اذا مشت فبخطوات واسعة لا رشاقة فيها . وبقدم تحب الأرض وثبات الأرض .

في وجهها ما يشهد شهادة حقة أنها لا تعرف شهوات الرجال . لكنه يشهد كذلك أن ليس فيه ما يوحي قبلة يسيل معها القلب على الشفتين . أو يثير شهوة تشوي الروح والجسد معاً . هي سنديانة ، كما لقبتها تلميذاتها ومعلماتها — يستأنس الضعيف بقوّتها ، والمسافر بظلها ، والعين بطهارتها . أما الجائع فيرتدّ عنها جائعاً ، والعطشان عطشانَ . هي تلك السنديانة وليست الشجرة المثقلة بالأثمار الغرّارة التي أنبتها الله في وسط الجنة وأنذر آدم أن يأكل من كل شجر الجنة إلاّ منها قائلاً : « إنك يوم تأكل منها تموت موتاً . »

ميشلين : — في شعرها الأسود لمعان يأسر العين ويكهرب اليدين الى حد أن الناظر ، لولا قوانين الحشمة واللياقة ، لما تمالك من لمسه وتمسيده . وفي عينيها العسليتين الواسعتين كحل من النور الذي يبرز بالنهار من أحشاء الليل ويستلّ الليل من بين أجفان النهار . في بشرة وجهها الصافية

حمرة الشقيق اذا تفشت في صفرة العاج . في ابتسامتها ضعة الطفل وطهارته . وفي ضحكتها كركرة الجدول النقي الطروب . لكنها قلما تبتسم وقلما تضحك . كأن سنيها العشرين علمتها أن في كثرة المرج تهلكة للجمال . وفي الرزانة أمنع حصن له .

تتكلم أحياناً فيقول السامع – إنها لطفلة . وأحياناً تفوه بما يحمل السامع على القول – إنها لشاعرة وحكيمة معاً . وتمشي فكأن في الأرض رفاساً تحت قدميها أو كأن في رجليها أجنحة .

خيرها فيضان من قلبها وكذلك شرها . ولا دخل لعقلها في كليهما . اذا عطفت على طفل فبكل ما في كيانها من العطف دون أن تسأل ما اذا كان يتيماً أو غير يتيم . فقيراً أو غنياً . وما اذا كان حقيقاً بالعطف أو غير حقيق . وما اذا كان العطف عليه واجباً أو غير واجب . الواجب عندها ما لا تطيق القعود عنه . والحق ما يستريح اليه قلبها بكليته . والحرام ما أنفت عاطفتها التدنس به . تكره الألم لنفسها ولسواها . وإذا أمكنها أن تخفف من ألم جارها أو جارتها لا تتهاون لحظة ، وان كلفها ذلك ألماً ، ولا تقول في نفسها : لقد عملت ما يرضي الله . – الله في حياتها ضباب . والجنة وجهنم كلمتان على ألسنة الكهنة وفي الكتب المقدسة .

اذا آنست من جليسها لطفاً أطلّت كالبزّاقة من صدفتها . أو خشونة عادت الى صدفتها لتحمي نفسها من الخشونة . لكنها أبداً متحفظة حريصة . لا كبرياء فيها ولا ادّعاء . والذي يحسبه الناظر اليها كبرياء ليس إلا برقعاً تصون به عفة جمالها من رجاسة الشنعاء وقحة البلداء .

هي جميلة وتعرف أنها جميلة . ولكن أتراها تعرف ، أو تحبُّ أن

تعرف ، ما فعلت بجبران ساعتان بالقرب منها ؟ شبهها جبران في فكره بالراديوم – تُحرق ولا تحترق . إذ أحسّ كأن في كرسيه أسلاكاً كهربائية مشحونة ، وكان كلما سرت الكهرباء في مجاري دمه ومسارح خياله يستر هزّاتها العنيفة بكل ما لديه من الحيل وقوة الارادة قائلاً في نفسه : لعل في كرسيها مثلما في كرسيّ من الأسلاك المشحونة بالكهرباء . ولعلها تراني ، مثلما أراها – كالراديوم أُحرق ولا أحترق .

***

في تلك الليلة أهلك جبران كثيراً من القهوة والسيكارات والغاز ، وأتلف أوراقاً كثيرة حاول أن يرسم عليها بالكلام حرارة الجمرة التي تركتها شفتا ميشلين على شفتيه ، واللهيب الذي أضرمته أنفاسها في قلبه وبين تلافيف دماغه . وقبل بزوغ الفجر بقليل عانق وسادته وهو يشعر كأنه يعانق القدَر الذي التقاه في شكل فتاة غريبة فتانة ولا يصدق أن ما كان كان . وقلبه ولسانه يباركان الحياة الحبلى بالمفاجآت والاسرار .

١٤

« بماذا جئتني اليوم يا حبيبي ويا خليلي ؟ أبدمعة أم بابتسامة ؟ »

« بل بابتسامة تستحق ابتسامة . يا ليتك تعرفين العربية يا ميشلين ، اذن لقرأت لك قصائدي كما أقرأها لنفسي ، وما اضطررت أن أكون ترجماناً . أتعرفين أن القطع التي أنشرها في الجريدة العربية في « نيويورك » بعنوان « دمعة وابتسامة » تتناقلها الصحف العربية في كل أطراف العالم ؟ »

« وذاك بالطبع يغيظكَ جداً جداً . اني لأخشى إن أنا شئت في المستقبل أن أرى وجهي في عينيك الناعستين أن أحتاج الى سلّم كسلم يعقوب لأرقى بها إليك . هات اقرأ لي ابتسامتك الجديدة . والمس بشفتيك شفتيّ فقد كادتا تنسيان الابتسام . »

احتضن جبران حبيبته وقبّلها ثم أخرج من جيبه عدداً من جريدة « المهاجر » وأخذ يترجم قطعة بعنوان « الرفيقة » :

« أول نظرة : — هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الأولى التي تنير خلايا النفس . هي أول رنة سحرية على أول وتر من قيثارة القلب البشري . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس أخبار الأيام الغابرة ، وتكشف لبصرها أعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها أعمال الوجدان في هذا العالم ، وتبيح سر الخلود في العالم الآتي ... »

« أول قبلة : — هي الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هي الحد بين شك يراود القلب فيحزنه ويقين يفعمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الأول من رواية الانسان المعنوي . هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الآتي وتجمع بين سكينة الشواعر وأغانيها . هي كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً ... هي بدء اهتزازات سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحي والالهام ... »

« القران : — هنا يبتدىء الحب أن ينظم نثر الحياة شعراً وينشىء من معاني العمر سُوَراً ترتلها الأيام وتنغمها الليالي . هنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا

يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد ألوهيتين على إيجاد ألوهية ثالثة على الأرض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف ببغضه ... هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة أولها نظرة وآخرها اللانهاية ... »

« ومن هي رفيقتك هذه المحظوظة يا خليل ؟ »

« ميشلين ، يا شريرة . أنتِ تداعبين حيث المداعبة إثم . عندما يجلس القلب على عرشه فلتخرّ كل الحواس ساجدة . ولتسبّح بصوت واحد — قدّوس . قدّوس . قدّوس . »

« قدّوس . قدّوس . قدّوس . ومتى تقترن برفيقتك يا خليل ؟ »

« لقد اقترنت بها أمام الله . لقد جعلت من جسمي وجسمها هيكلاً واحداً طاهراً لعبادة الحب الواحد الطاهر . وجعلت من روحها وروحي عرشاً أزلياً أبدياً للاله الأزلي الأبدي . قبل أن يقول الله للنور « كن » كنت وإياها في النور . ومن قبل أن يخلق الله آدم وحواء كنت وإياها آدم وحواء في جنة أحلام الله . أنتِ لا تعرفين من أنتِ يا ميشلين . أما أنا فأعرف . لقد عرفتك قبل ان ولدتكِ أمك . فقد كنتِ شوقاً هاجعاً في أعماق كياني قبل أن صرتِ كلمة مرتعشة بين شفتي الحياة . وقد كنتِ حياة في عروقي قبل أن مشيت دماً سخيناً في مفاصل الأرض . وكنتِ دقة علوية في قلبي قبل أن تكوني نبضاً راقصاً في ساعد المسكونة . ما فصلتنا الحياة يوماً إلاّ لتجمعنا، ولا جمعتنا إلاّ لتبصر نفسها كاملة بكمالنا ، واحدة بوحدتنا ، أزلية كما نحن أزليان ، أبدية كما نحن أبديان . منذ ولدتُ وأنا أفتش عنك . ومنذ ولدتِ وأنتِ تفتشين عني . كل صوت خرج من

صدرك حتى ساعة التقينا كان معناه : – أين أنت يا خليلي ، أين أنت ؟ وكل خطوة خطوتها حتى اليوم كانت لتدنيك مني . وما أهلك وأهلي – من مات منهم ومن لا يزال في قيد الحياة – وما كل من عرفناهم من أعداء وأصدقاء ، وما كل ما انتابنا من ألم ولذة ، ولا كلُّ ما أكلناه وشربناه ، وحلمناه واشتهيناه ، غير حروف وكلمات تتألف منها مقدمة السِّفر السري الذي هو حبنا . »

« قدوس . قدوس . قدوس . لقد اقترنت برفيقتك أمام الله يا خليل . فمتى تقترن بها أمام الناس ؟ »

« ما أكثر ترابك وأقل تبرك يا ميشلين . الناس . الناس . الناس . الناس ! ما همي بالناس وبما يقولون ويفعلون ؟ هل جمعوا مرة بين قلبين متحابين إلا ليفصلوهما ؟ أو ربطوا متناقضين إلا ليقتلوهما برباطهم ؟ »

« خليل ، حبيبي ، نور عيني ، حبة قلبي . – هبني كنت تراباً قبل أن عرفتك ، فقد حولني حبك تبراً . »

« لا ولن يحولك تبراً ألف حب كحبي . الناس . الناس . الناس . أنا أكره الناس وسبل الناس . وأكره من يحبهم ويسير في سبلهم . هم كالدجاج – لهم أجنحة ولا يطيرون . وألسنة ولا يغردون . ومخالب ولا يفتشون بها إلاّ عن الديدان والأقذار . هم لا يبيضون إلا في أكنان تقاليدهم المظلمة وأنظمتهم النتنة . أعطيني ولو فرخ نسر واحد وخذي كل دجاج الأرض . »

« ولمن ترسم رسومك يا خليل – أليس للناس ؟ ولمن تنظم قصائدك يا خليل – أليس للناس ؟ وبأقلام من تكتب وترسم يا خليل – أليس بأقلام

الناس ؟ وخبز من تأكل يا خليل – أليس خبز الناس ؟ ومجد من تطلب يا خليل – أليس مجد الناس ؟ »

« أنتِ منهم . أنتِ كذلك ابنة الديدان والأكتان . وأنا كالنسر لا أرضى غير الفضاء ميداناً . ولا أطيق أن أشرف على الحياة إلا من القمم العالية . فسبحان من جمع بين النسر والدجاجة ! »

« وأنت لا تأنف من أن تغذي جسمك ببيض الدجاج ولحومها يا خليل . »

« جسمي لا روحي . »

« إذن أنا غذاء لجسمك لا أكثر ولا أقل . أنا مطية لشهواتك . أنا ألعوبة في يديك . وحبنا ليس إلا فرخ دجاجة ؟ يا ويل هذا الحب كم خدشته مخالب أنانيتك النسرية وهو ما يزال فرخاً . والآن أراك عازماً أن تقضي عليه . أنت لا تعرف إلا نفسك ، ولا تهتم إلا بنفسك ، ولا تؤمن إلا بنفسك . أقول لك إني أصبحت مضغة في أفواه بنات المدرسة ومعلماتها ، فتجيبني : – الناس . الناس . الناس . ثم تأمرني أن أكتم السر عن كل النـــاس ، وبالأخص عن رئيسة المدرسة ، وتدير ظهرك وتنصرف عني . تقرأ لي قصائدك ثم تؤنبني إذا لم أهتف هتاف إعجاب لكل عبارة أو مقطع . وتقول انني من تراب فلا أفهم جمال روحك السماوية . ألا اجعلني رفيقة تحسن المشي في مسالك الأرض قبل أن تجعلني شاعرة تجوب رحاب الجوّ . ألا اجعلني دجاجة سعيدة قبل أن تجعلني نسراً قوياً . ألا اجعلني إنساناً راضياً قبل أن تجعلني إلهاً كاملاً . لقد أشبعتني شعراً حلواً وخصاماً مرّاً . إذا كان حبك قطرة من العسل في كأس من

العلقم فاني محطمة كأسي الآن . ولعل الإله الذي تؤمن به لا يهملني . »

« ميشلين ، لقد سئمت نفسي الخصام . فارحميني وارحمي نفسك . واصفحي عن مرارة في قلبي لا يزيلها إلا حبك . أنت رفيقتي منذ الأزل وستبقين رفيقتي الى الأبد . وسأقترن بك أمام الناس حالما يتيسر لنا ما نظهر به بين الناس . ميشلين ، قولي لي : هل تدري الرئيسة بشيء من أمرنا ؟ »

« لها عين ثالثة تبصر كل شيء . وأظنها تعرف لكنها تتجاهل . »

« يا ليتك تعرفين بعلبك . لكن ستعرفينها إن شاء الله . ستعرفين لبنان – لبناني . وستعرفين جلال بعلبك ، وهيبة تدمر ، وجمال البحر المتوسط . أوتدرين ما يجول بخاطري ؟ قصة خيالية أجعل بعلبك مسرحها . ومحورها حب قديم بين ابن كاهن من كهنة عشتروت وفتاة كميشلين . وكيف كان هذا الحب يتجدد على ممر الأجيال . يموت الحبيبان ويولدان في أجسام جديدة وظروف جديدة . لكنهما أبداً يلتقيان ليكملا أنشودة الحب القدسية . خليل وميشلين . وقد اخترت لقصتي عنواناً جميلاً – « رماد الأجيال والنار الخالدة » . تحترق الأجيال وتمسي رماداً أما نار الحب فمستعرة أبداً . ما قولك ؟ »

١٥

« لا تقولي مصادفات يا ماري . الحياة لا تعرف المصادفات . في الكون خيوط لا تحصى يتألف منها نسيج الكون الواحد . وحياتك وحياتي خيطان في هذا النسيج السرمدي – يتباعدان ثم يتقاربان ، ثم يتعانقان ، ثم يتباعدان ويتقاربان ويتعانقان من جديد . وهكذا الى أن يتم النسيج . الحائك الجالس وراء المنوال يعرف الغاية من كل خيط . لكن كل خيط لا يعرف غاية الحائك . لقد مات أخي وأختي وأمي لأنه كان من الواجب أن يموتوا في الحين الذي ماتوا فيه وبالميتة التي ماتوها . ولقد احترقت صوري لأنه كان من الواجب أن تحترق في المكان والساعة المحتومين لحريقها . وقد يكون لي في ذلك خير كبير . »

« إنها ، مع ذلك ، لخسارة جسيمة يا خليل . وكم أنا سعيدة لأن الله ألهمني فابتعت من صورك اثنتين – رقصة الأفكار وفوّارة الألم . »

« لكل شيء غاية يتممها ويمضي . ويظهر أن صوري قد أتمت الغاية التي وُجدت من أجلها . ويكفيها أنها كانت واسطة لتجديد العلاقات بيننا . »

(وأضاف جبران في قلبه – وبيني وبين ميشلين .)

« أراكَ ، من بعد ما اهتديت الى عقيدة التناسخ ، تردُّ كل شيءٍ اليها حتى احتراق صورك . لله كم تغيرتَ في السنوات الأربع التي عرفتك في غضونها ! »

« لقد كنتُ ضائعاً بين الموت والحياة . وكنت كلما فكرت في

العلاقات البشرية أشعر كأني في سراديب من الطلاسم . أما في التناسخ فقد وجدت مفتاح الحياة والموت ومصباحاً ينير لي سراديب العلاقات بين الناس .

تأمّلي يا ماري كم خطوة خطوناها قبل أن نلتقي . وكل خطوة كانت نتيجة للتي قبلها وسبباً للتي بعدها . وضعتكِ أمكِ في الشهر الثامن فكنت ، كما تقولين ، رأساً وعينين وفماً – لا يزيد وزنك على الخمس أواق ، ولا أحد يؤمل لك بالحياة . وبالرغم من ذلك حييت بين خمس أخوات وأربعة اخوان . وتغلبت على نقص الولادة وعراقيل الفاقة . فأنهيت مدرسة عالية من مدارس البنات في هذه البلاد . وكنت تعصرين الدولارات لدفع الرواتب المدرسية من خرقة غسل الصحون ومن فوهة الفرن حيث كنت تخبزين عدداً معلوماً من الأرغفة في النهار . أو من مفاتيح البيانو عندما كنت تعلّمين الموسيقى . وأخيراً توصلتِ الى ابتياع مدرسة أختك في بوسطن . من كولومبيا – سوث كارولينا – الى بوسطن . ومن طفلة مشوهة في الولادة يشتهي لها الناس الموت الى رئيسة مدرسة تطلب لها تلميذاتها ومعلماتها طول العمر . لو تغيرت خطوة واحدة في حياتك لتغيرت كل حياتك .

وأنا – وُلدت بعدكِ بعشر سنين . ولا علاقة في الظاهر بين أهلي وأهلك ولا بين بشرّي وكولومبيا . ولا بين سنة ١٨٧٣ وسنة ١٨٨٣ . مع ذلك ، لو لم أولد حيث وُلدت وحين وُلدت . ولو لم يكن أبواي في نفار مستمر . ولو لم يكن لي أخ اسمه بطرس لما هجرنا بلادنا . ولو لم يكن لأخي وأمي معارف من أبناء بشرّي في بوسطن لما انتقلنا بوسطن

من كلّ مدن الولايات المتحدة وقراها . ولو لم أولد وفيّ ميل الى التصوير لما صوّرت . ولو لم أصوّر لما عرضت صوري . ولو لم أعرض صوري حيث عرضتها وحين عرضتها لما اتفق لصديقك أن يراها ... ولو لم يخبرك صديقك عنها وكان لا يقعدك مرض أو شغل عن الذهاب لما ذهبت الى المعرض . ولو لم يتفق وجودي في تلك الساعة هناك لما رأيتني . ولو كان معك رفاق لما اقتربت منك وسألتك اذا كنت تريدين أن أفسّر لك بعض الصور .

آ ، ماري ، ماري . أوَكلّ هذه الأمور ، وربوات غيرها من الأحلام والأشواق والأفكار الدقيقة التي تولّدها ، والتي لا يحصيها العقل ، – أوَكلها مصادفات ؟ »

« لا يا خليل . غير أن الناس يدعون مصادفة كل حادثة يجهلون مركزها من حياتهم وحياة الكون . »

« ان دورة الحياة لا تنتهي بعمر واحد ولا بأعمار . نحن نطلب الكمال ، نحن نفتش عن الله ، فمن ذا يجد الله في عشرين سنة أو في مائة أو في ألف ؟ « وكنتم أمواتاً فأحياكم . ثم يميتكم ثم يحييكم . ثم اليه تُرجعون . » – هكذا قال نبيُّ العرب . وهكذا قال أنبياء في الشرق كثيرون . في الهند والصين واليابان مئات من الملايين الذين يؤمنون بتجديد الحياة الفردية قروناً تلو قرون . وفي لبنان طائفة يدعونها الدروز تؤمن الايمان عينه . ليست الحياة البشرية إلاّ تصفية حسابات . نموت فنترك خلفنا ديوناً لنا وديوناً علينا – من خيرٍ ومن شر – من حب ومن بغض – من صداقة ومن عداوة . فنعود لنستوفي ونوفي . وسنظل نستوفي

ونوفي الى أن لا يبقى لنا من رصيد حساب إلاّ الله . »

« أرجو أن لا يكون الدَّيْن الذي لكَ في ذمتي كبيراً يا خليل ، وأن أكون قادرة على إيفائه . »

« اذا لم يكن لي غير أني لا أشعر معكِ بالوحشة الروحية التي أشعر بها مع باقي النـاس لكفاني . هـا أنا أتحدث اليك في كل بارقة ألمحهـا بعين روحي ، وفي كل شبح يمر بـه خيـالي . وكأني أتحدث الى نفسي . أنا غريب في هذا العـالم يا ماري . لكنني لست غريباً عنكِ ولا أنتِ غريبة عني . »

« خليل ، لمـاذا لا تكتب بالانكليزية ؟ تقول لي إنـك في العربية من الكتّاب البارزين . وها أنت ، ولا تزال في ريعان شبابك ، قد أصدرت ثلاثة كتب بالعربية : الموسيقى – عرائس المروج – والأرواح المتمردة . غير أنها ، كما فهمت منك ، لا تدرُّ عليك فلساً بل تكلفك فلوساً . »

« لست واثقاً من لغتي الانكليزية بعد . ولا أظن بضاعة كبضاعتي تلقى رواجاً في هذه البلاد . »

« لقد تحسنت إنكليزيتك تحسناً عظيماً في السنوات الأربع الأخيرة . »

« الفضل في ذلك عائد اليك يا ماري . »

« وأنا أعدك بتصحيح لغتك قدر استطاعتي . »

« عليَّ ان أهتم بالتصوير الآن . فهـو أقرب مـورداً للرزق من الكتابة . »

« خليل ، أتحب أن تذهب الى باريس لمتابعة دروسك الفنية ؟ »

« من كل قلبي . ولكن ... »

« لكن لا مال عندك . أنا أدفع أكلاف سفرك يا خليل وأتعهد لك بخمسة وسبعين دولاراً أقدمها لك كل شهر الى أن تنهي دروسك . أفلا تقبلها مني تقدمة محبة لك واعجاب بمواهبك الغزيرة ؟ ويا ليت في طاقتي أن أقدّم لك أكثر من ذلك . »

« ماري . ماري . ماري . (كاد لسان جبران يزلق فيقول : ميشلين . ميشلين . ميشلين .) لقد أترعتِ قلبي حتى الفيضان . فلتكن دموعي جواباً لك . »

وبكى جبران وكانت دموعه تقول : « يا ليت روح ماري في جسم ميشلين . »

يوم مولد ويوم حساب

أطلّت شمس السادس من كانون الأول سنة ١٩٠٨ على « الكارتيه لاتين » في باريس وأنفذت شرذمة من أشعتها الى غرفة جبران فوجدته في أحضان مورفيوس . فمرت بلوحة من الكرتون على منصب التصوير تحمل شبه جسم فتاة عارية ، وبطاولة عليها أوراق وأقلام مبعثرة وزجاجة من الوسكي ، وبرزمة من الحطب أمام الموقد بجانبها ركوة لإعداد القهوة العربية وفنجانان . ومثلما دخلت الغرفة كالحلم هكذا انسحبت منها وانصرفت في سبيلها .

وأخيراً أفاق جبران فتناول الساعة من تحت الوسادة واذا بها بعد العاشرة ، فنفض عنه اللحاف ونهض من فراشه متواكلاً كأن ما كان في أجفانه من نعاس ، وفي نعاسه من أحلام ، ما برح يجذبه الى الفراش . وأضرم ناراً في الموقد وجاء بالقهوة والركوة ثم مشى نحو النافذة بقدميه العاريتين فأحس كأن أرض الغرفة من جليد وقال : إنه ليوم برده عضّاض . لكنه بعد أن رأى الشمس خارجاً استأنس بأشعتها ولو عن بعيد وعاد فقال : إنه ليوم عضّاض لكن أنيابه من ذهب . وعندما فتح النافذة ليجرع بعض ما في الهواء من نور الشمس انكسرت لوحة من الزجاج وسمع شظاياها تتطحن على الرصيف فقال : انه ليوم رجلاه من زجاج . وقانا الله عثرته . وعندما سكب فنجاناً من القهوة وأخذه بيد ثم

أشعل من الموقد سيكارة بالأخرى اندلقت القهوة على رجله فأحرقتها ووقع الفنجان من يده فتحطم على الأرض ، فقال جبران : انه ليوم قلبه من الزفت . وقانا الله ناره السوداء . وسكب قهوة جديدة وجلس يشربها ويدخن أمام الموقد ، ولغير ما سبب يعرفه أخذ يشعر كأن في الغرفة أشباحاً تتمشى ذهاباً وإيابا وتتحدث فيما بينها هكذا :

« ما هو الفن ؟ »

« هو أن تحمل بطيختين في يد واحدة دون أن تلمس إحداهما الأخرى . »

« ما هي الحياة ؟ »

« هي أن تركض مع النهار دون أن تدرك الليل . ومع الليل دون أن تدرك النهار . وألا تتكسر في الركض رجلك أو رقبتك . »

« ما هو المجد ؟ »

« هو أن تشرب زيت السمك ممزوجاً بحامض الفينيك ولا تتقيأ . »

« ما هو الحب ؟ »

« هو أن تجدع أنفك لتُضحك عينيك . »

« من هو الجالس أمام هذا الموقد ؟ »

« حطبة تتدفأ بحطبة . »

بقي جبران يدخن السيكارة تلو السيكارة والأشباح تتهادى حواليه وتقهقه في أذنيه الى أن سمع أجراس نوتردام تعلن انتصاف النهار . فانتفض كمن أفاق من كابوس وارتدى ثيابه وخرج من البيت . فمشى في

بولفار سان ميشيل ثم توجه الى حديقة اللوكسنبورغ وقد تسلط على ذهنه بيت عربيّ قديم «إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت» فكان يمر بالناس فيراهم عناكب. حتى أنه التفت الى الشمس فتخيّلها عنكبوتاً هائلة وتخيّل كل ما على الأرض وفي السماء نسيجها. ورأى نفسه ذبابة صغيرة عالقة في ذلك النسيج.

وقف جبران طويلاً أمام متحف اللوكسنبورغ وصوت يقول له — ادخل. لعل ما حواليك من أشباح سوداء يجفل من بعض مظاهر الفن الحديث. فيجيبه صوت آخر — إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت. فيعيد الصوت الأول الكرة ويقول — إذن فاذهب الى مدرستك — الى البوزار — فعندك فروض يجب تتميمها. وبعد الظهر سيلقي أستاذ كبير محاضرة عن تمثال «داود» لميكلانجلو. وأنت تؤله ميكلانجلو وفنه. — فيجيبه الصوت الثاني — إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت. — وأخيراً ارتدّ جبران عن باب المتحف وقصد حانوتاً يعرفه فابتاع رغيف خبز وبرتقالتين وعاد بخطوات مسرعة الى البيت. فالتقى عند الباب موزع البريد الذي ناوله رسالة من بوسطن عرف للحال أنها من ماري.

دخل جبران غرفته وفضّ الرسالة فاذا فيها حوالة بخمسة وسبعين دولاراً وتهنئة بيوم مولده وعبارات جميلة تبين له عظيم إيمان ماري بمواهبه وبمستقبله في عالم الفن. وأخبار محلية منها أن ميشلين قد تغيرت كثيراً بعد سفره فنحل جسمها وفارقت الابتسامة وجهها واكمدّ النور في عينيها. وأنها لا تكاد تكلم أحداً إلا عند الضرورة. وقبل أن يأتي جبران على آخر الرسالة طرحها من يده وراح يتمشى في جوانب الغرفة وهو يصيح :

« ميشلين . ميشلين . ميشلين ! لقد ملكتِ عليَّ مشاعري ومفاتيح خيالي . إن فرحتُ فمنكِ ، وإن حزنت فمنكِ . في حبك قد أصبحت شيخاً ، وفي حبك قد عدت صبياً . ما كنت أذكر يوم مولدي أو أهتم به حتى جعلتِ منه عيداً يليق بالملائكة . رُبَّ وردةٍ كنتِ تبتاعينها بآخر فلس في جيبك وتأتيني بها في يوم مولدي فأشمّ فيها عطر الألوهة منتشراً من قلبك العطر . ربَّ قطعة من الحلوى كنتِ تضعينها بين شفتيكِ فأتناولها بشفتيَّ وأتذوق فيها حلاوة الوجود التي ما بعدها حلاوة . واليوم أفيق وشذا الألوهة لا يتضوع في غرفتي من ورود حبك . وعصافير قلبك لا ترفرف فوق رأسي وتزقزق في أذني . بل في فمي مرارة الوحشة . ومن حواليَّ أشباح آلامكِ وأوجاعي . وفي أذني قضقضة سخريتها وتصريف أسنان انتقامها . لقد جنيت عليكِ وعلى نفسي يا ميشلين . لقد لذّ لي في البدء أن أذلل عنفوانك ، فإذا بي رهنت إرادتي وحسي وخيالي لعنفوانك . لقد حسبتك في البدء سلوى فاذا أنتِ اليوم شاغل . حاولت أن آخذ دون أن أعطي . وكنتِ تعطيني ولا تفكرين بما تأخذين .

بلى . لقد جنيتُ عليكِ وعلى نفسي يا ميشلين عندما أشركت في حياتي امرأة سواكِ ، فرضيت أن استدرَّ جيبها وعقلها حين أنا أستدر قلبك ولحمك ودمك . ولقد كذبت عليكِ عندما سألتني عن المرأة التي مدتني بالمال لأدرس في باريس فأجبتك أن ليس هنالك من امرأة ، وأن المال دبّرته من بعض أقاربي وأصدقائي . لقد تغلب قلبكِ على لساني إذ شعر في الحال بوجود امرأة ثانية في حياتي . فما أصدق قلبك وأكذب لساني ! يا ليتني بحت لك بكل شيء ، إذن لما كانت هذه الأشباح السود تساورني

اليوم وتضيق عليّ أنفاسي . إليّ يا ميشلين . إليّ يا روح روحي ويا قلب قلبي . تعالي وقولي انكِ صفحتِ عن كل آثامي . وأنا سأكفّر عن كل شيء . تعالي يا ميشلين وإلاّ — فأنا مقتلعك من قلبي حتى وإن اقتلعت قلبي معكِ ! »

ارتمى جبران على كرسيّ بجانب الطاولة وأخذ يبعثر بيمينه ويساره رسوماً وأوراقاً كثيرة تكدّست عليها كأنه يحسبها الأشباح السود التي تناضله ويناضلها . وكان كلما رفع ورقة تأملها قليلاً ثم طرحها من يده قائلاً :

« ما النفع منك ؟ ما النفع منك ؟ » الى أن وقعت يده على دفتر خُطّتْ على غلافه هاتان الكلمتان : « دمعة وابتسامة . » فأخذ يقلبه بغير تروٍّ وغير نظام ، وكلما وقعت عينه على عنوان تأمله طويلاً كأنه يستعيد الظروف والتأثرات التي حبلت به والساعات التي ولدته ، وكأنه لا يصدّق أن قريحته أملته ويده خطته . وكان كلما قرأ عنوان قطعة وبضعة سطور منها يخاطب نفسه معجباً أو معاتباً أو مؤنباً :

« خليلي ! — لمن هذا الخطاب وما هو ؟ آ ! لخليلي الفقير وخليلي الحزين — لو علمت يا خليلي الفقير أن الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي اليك معرفة العدل وتبنك ادراك كنه الحياة ، لرضيت بقسمة الله ... ولو دريت يا حبيبي الحزين أن الأرزاء التي أصبحتَ مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء الى درجات الاعتبار ، لقنعت بها إرثاً ... »

« ما أذلق لسانك ، وأرشق قلمك ، وأصدق مواعظك يا جبران . وما أقلّ اتعاظك بمواعظك ! أنت تكره الفقر والحزن فعلامَ تحبب للناس ما تكرهه لنفسك ؟ »

« يا لائمي : – دعني ولا تعظني ... اعتزل ذكر المحرّمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل عليّ وتقيني العقاب اذا كنتُ ذا برارة ، وتحرمني الثواب ان كنت من المجرمين . » – اذن هو ضميرك الذي يعذبك اليوم يا جبران . وهذه الأشباح السود ليست إلاّ من كهوفه المظلمة . إن أنت لم تقضِ عليها اليوم قضت عليك غداً . فابدأ الآن ، في هذه الدقيقة ، في هذه اللحظة . انزع ميشلين من قلبك وماري من رأسك وعش طليقاً باسم الحب الذي لا يعرف اللحم والدم ، والفن الذي لا يتقيد بألوان الأرض وأشباحها ، والجمال الواصل كل ما في السماء وعلى الأرض بنور الألوهة الذي لا يُدرَك . »

« رحماكِ يا نفس رحماكِ : – حتى مَ تنوحين يا نفسي وأنت عالمة بضعفي ؟.. رحماك يا نفس ، فقد أريتِني السعادة عن بعد شاسع : أنت والسعادة على جبل عالٍ ، وأنا والشقاء في أعماق الوادي . وهل يتم لقاء بين علوٍّ ووطوءة ؟ أنت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب وتتمتعين منه بضمة وعناق . وهذا الجسد يبقى أبداً قتيل الشوق والتفريق . رحماك يا نفس رحماكِ ! »

« ومن هي النفس التي تسترحمها يا جبران ؟ وما هو الجسد الذي تطلب من أجله الرحمة ؟ أنشتهي جثةُ الميت عناقاً أو تخاف فراقاً ؟ بل

هي النفس منبع الشهوات . وهي طامعة اذا طمعتها . عجباً ليسوع ، عاش بتولاً ومات بتولاً وما كان يتحرق بحرقاتك ويتلوّع بلوعاتك . أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟ أعمله في هذه النفس حتى تذل . ذللها يذل جسدك . فهي الأميرة وهو العبد . اجلد نفسك بلا شفقة . أين سوطك يا جبران ، أين سوطك ؟ »

« اللقاء : — ... حكماء الأمم يأتون من المشرق والمغرب ليستحكوا حكمتكِ ويستفسروا رموزك يا حبيبتي . »

« عظماء الأرض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالكَ وسحر معانيك يا حبيبي . »

« ان راحتيكِ منبت خيراتٍ غزيرة تملأ الأهراء يا حبيبتي . »

« ان ذراعيكَ منبع المياه العذبة ، وأنفاسك نسمات منعشة يا حبيبي . »

« هذا تقليد فاضح لنشيد سليمان يا جبران . وأنت تكره التقليد والمقلدين وتبشر بالإبداع . فكيف تنهى عن أمرٍ وتأتيه ؟ ولكن ما هو التقليد ؟ ما هو الإبداع ؟ ان صاحب نشيد الأناشيد قال ان ليس جديد تحت الشمس . أجل . ليس جديد . كل ما يفعله الانسان تقليد في تقليد . غير أن بعض التقليد جميل وهو الابداع المرغوب . وأكثره قبيح وهو التقليد الممقوت . وأنت تقلد الجميل بجمال يا جبران . فأنت مبدع . هذا في منطقك منطق . وان لم يكن كذلك في منطق الناس ، فما همك من منطق الناس ؟ »

« حديث الحب : - يا حبيبة نفسي !.. هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين أن نظراتك كانت تقول لي إن محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليَّ ؟ تلك النظرات التي علمتني أن أقول لنفسي وللعالمين ان العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو أعظم من الذي يبتدىء من الحسنة ؟ وان المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات ؟

أمامي يا حبيبتي حياة أريدها أن تكون عظيمة وجميلة . حياة تؤاخي ذكرى الانسان الآتي ، وتستدعي اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وأنا واثق بخلودها ، لأني مؤمن بكونك قادرة على إظهار القوة التي أودعني الله إياها متجسمة بأقوال وأعمال كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العَرف الطيب . وكذا تظل محبتي لي وللأجيال ، وتبقى منزهة عن الأنانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بك . »

« إي ماري ، ماري ! ان حيرتي فيكِ وبهجتي بك لا تعرفان نهاية . مَن كنّا وأين كنّا في حياةٍ قبل هذه الحياة ؟ أكنتِ لي أمّاً وكنتُ لكِ ابناً ، أم كنتِ أختي وكنتُ أخاكِ ؟ أم كنتِ كاهنة وكنتُ كاهناً في خدمة عشتروت أو منيرفا نقدم ذبائحنا سوية على مذبح واحد ؟ عجباً ! تلمسني ميشلين فألتهب بنار لا أبالي أمِنَ الجحيم هي أم منَ النعيم . والمسكِ فتهدأ كل لواعجي الأرضية وتضطرم نيران أشواقي التي لا تستوطن الأرض . لا . لا . أنتِ ما أحببتني شفقة عليَّ . ولا أنتِ

تطمعين في استملاكي بما تبذلينه عليَّ من المال . لكن المال يستملك يا ماري . المال كالسوس – دأبه النخر . والمال كالملح ، اذا وضعت ولو قليلاً منه في كأس من الخمر المعتقة تغير طعم الكأس . وأخشى أن ما تضعينه من مالك في خمرة علاقاتنا الطيبة سيغير من مذاق تلك الخمرة . غير أن الحاجة لا ترحم . وها أنا أموّه على نفسي فأدعو عطاءكِ عدلاً لا حسنة . بلى . هو عدل يا ماري . هو عدل ، وان يكن العدل كلمة غريبة في قاموس المال . هو العدل أن لا يُحرم العالم مواهب كمواهبي . وهو العدل أن تكون اليد المساعدة على كشف تلك المواهب نقية وطاهرة كيدك . فأنا أريد أن تكون حياتي عظيمة وجميلة وأنا واثق من خلودها . وأنا واثق من أن محبتك الخالصة وعطفك الجميل سيستنبتان من مواهبي أقوالاً وأعمالاً كبيرة مثلما تستنبت الشمس أزهار الحقول ذات العَرف الطيّب .

وما هي العظمة التي تنشدها يا جبران ؟ أستأتي العالم بفتح جديد ، أم ستخلق بشرية جديدة ؟ أسترسم ما لم يرسمه بعد أكبر الرسامين ، أم تكتب ما لم يكتبه بعد أعظم الكتّاب ؟ ها أنت اليوم شاب مجهول في باريس ، تمر في شوارعها فلا يرفع لك أحد قبعته . فهل تصبح عظيماً اذا مشيت غداً في الشارع فحيّاك كل من تلتقيهم وحادوا من طريقك وتهامسوا فيما بينهم : – هذا هو . هذا هو ؟ أم هي العظمة أن يتهافت الناس على رسومك ومؤلفاتك وأن تبقى ، كما أنت اليوم ، تساورك الأشباح السود ، وتسرح في قلبك المرارة ، وتقرض الوحشة ساعات وحدتك ؟

والخلود – ما هو ؟ أولست خالداً كإنسان حتى تخلد نفسك بكتاب أو بصورة ؟ ليبقَ الكتاب أو الرسم ألف جيل بل مائة ألف جيل . ليبقَ ما بقيت البشرية على الأرض . لكن لا البشرية ولا الأرض خالدتان . فكيف تخلد بما ليس خالداً ؟ وماذا أثبت حتى الآن من طلائع الخلود حتى تكون واثقاً من خلود حياتك ؟

ها هي مؤلفاتك وها هي رسومك : « عرائس المروج » . ماذا أودعته من الآثار الخالدة ؟ – رماد الأجيال والنار الخالدة – صورة جميلة الألوان لجانب صغير من عقيدة كبيرة – عقيدة التناسخ ، وهي أقدم من كل ما تصل اليه معارفك ومعارف الناس التاريخية . مرتا البانية – حكاية مثلها ألوف من الحكايات جرت وتجري وستجري على الأرض . أهذه ستكون مشعلك في طريق الخلود ؟ أم حكاية يوحنا المجنون ، وهي ندبة في طاحون ونفخة في صحراء ؟ لقد جاء الناصري فندّد بالكهنة والفريسيين تنديداً لن تستطيع أن تأتي بمثل بساطته وقوته . والكهنة والفريسيون ما يزالون ، مع ذلك ، متربعين على صدور الناس وفي قلوبهم وأفكارهم . لأن ليس في صدور الناس ولا في قلوبهم وأفكارهم معرفة تقول للكهنة والفريسيين : انصرفوا عنّا !

وهوذا كتابك « الأرواح المتمردة » وأخلد ما فيه هو التقدمة : « الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي سكب أسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة عواطفي . » فروحك وروح ميشلين خالدتان لأن الحب خالد . أما المتمردون في كتابك فقد مضوا مثلما مضى ويمضي سواهم.

والذي تمردوا عليه من شؤون الحياة البشرية باقٍ ببقاء البشرية .

ورسومك ؟ لقد التهمت النار ما التهمته منها في بوسطن . والذي صورته بعد ذلك لم يشعل سراجاً ولم يشقّ طريقاً في عالم الفن ، فما هي العظمة التي تحلم بها والخلود الذي أنت واثق منه ؟ ومتى تبدأ أن تكون عظيماً وخالداً ؟ وراءك – كم وراءك من السنين ؟ خمس وعشرون . واسمك لا يزال مجهولاً إلا عند القليل من متكلمي العربية . خمس وعشرون سنة – ولا عظمة ولا خلود . واليوم يوم مولدك ، فماذا تذكره ؟ »

« في مثل هذا اليوم ولدتني أمي . في مثل هذا اليوم ولدتني أمي . في مثل هذا اليوم ولدتني أمي . »

ولّى النهار وجبران يحاسب نفسه ويعاتبها ، ويؤنّبها ويمنيها بما يخزنه له الغد من المجد ، وينتشل من خبايا ذاكرته أشباح ما كان ، ومن زوايا خياله رسوم ما سيكون . وفي دماغه وأمام عينيه ترقص هذه الكلمات : « في مثل هذا اليوم ولدتني أمي . » يطردها فتعود ، ويحاول أن يلهو عنها بأمر من الأمور فتلهيه عن ملهاته . وما فتئت تقفز في دماغه وتحفر في قلبه حتى نهض وأشعل الغاز وأخذ قلماً ودفتراً وبدأ يكتب :

« في مثل هذا اليوم ولدتني أمي .

« وفي مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتني السكينة بين أيدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك .

***

« في هذا اليوم تنتصب أمامي معاني حياتي الغابرة كأنها مرآة ضئيلة

أنظر فيها طويلاً فلا أرى سوى أوجه السنين الشاحبة كأوجه الأموات، وملامح الآمال والأحلام والأماني المتجعدة كملامح الشيوخ. ثم أغمض عيني وأنظر ثانية في تلك المرآة فلا أرى غير وجهي. ثم أحدق بوجهي فلا أرى غير الكآبة. ثم أستنطق الكآبة فأجدها خرساء لا تتكلم، ولو تكلمت الكآبة لكانت أكثر حلاوة من الغبطة.

***

« واليوم، وقد وقفت متذكراً وقوف سائرٍ متعبٍ بلغ منتصف العقبة، أنظر الى كل ناحية فلا أرى لماضي حياتي أثراً أستطيع أن أومىء اليه أمام وجه الشمس قائلاً: « هذا لي. » ولا أجد لفصول أعوامي غلة سوى أوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة خطوطاً وألواناً متباينة متناسقة. في هذه الأوراق المنثورة والرسوم المبعثرة قد كفنت ودفنت عواطفي وأفكاري وأحلامي، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الأرض. ولكن الزراع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيته في المساء آملاً راجياً منتظراً أيام الحصاد والاستغلال. أما أنا فقد طرحت حبات قلبي بلا أمل، ولا رجاء، ولا انتظار. »

بقي جبران يكتب حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وكان بين الفينة والفينة ينهض ويتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً. وكلما أحس بدمعة في عينيه مسحها بطرف اصبعه، أو بجفاف في فمه من كثرة دخان التبغ بلّه بقليل من عصير البرتقال. وأخيراً ختم ما ابتدأ به بالعبارات التالية:

« سلام أيها الروح الضابط أعنّة الحيلة ، المحجوب عنا بنقاب الشمس .
وسلام لك أيها القلب لأنك تستطيع أن تهزّ بالسلام وأنت مغمور بالدموع .
وسلام لكِ أيتها الشفاه لأنك تتلفظين بالسلام وأنتِ تذوقين طعم المرارة . »

ثم تناول معطفه وقبعته وعصاه وخرج يقصد مطعماً من المطاعم الليلية ليسكت صراخ معدته الفارغة . وهو يشعر كأن جبلاً تزحزح عن صدره . وكان يقول لنفسه بطريقه الى المطعم : « غداً يجب أن أرسل ثلاثين دولاراً لمريانا هدية الميلاد . »

فصل يبتدىء وفصل ينتهي

اوغست رودين – جبار من جبابرة الفن وكاهن من كهنة الجمال المعدودين . كان جبران قد رأى الكثير من آثاره الفنية في باريس . وكان كلما وقف أمام تمثاله لفكتور هيغو او « المفكر » او « القبلة » تسحره المقدرة التي جعلت من البرونز البارد والحجر القاسي عضلات تتفجر بقوة الحياة وتشع بالعواطف الشعرية وتتأجج بالأفكار الثائرة . أما أمام صورته الكبيرة « بوابة الجحيم » فقد وقف غير مرّة يدرس دقائق معانيها وتفاصيل ألوانها وتركيبها ، بادئاً برسم دانتي في أعلاها ومنحدراً إلى الوجوه والأجسام الكثيرة التي تمثل سكان الجحيم وما يعانونه من أنواع الآلام والأوجاع الأبدية .

اتفق مرّة لجبران أن زار رودين في محترفه مع نفر من أساتذة البوزار وتلاميذها . فقضوا بزيارته نحو ساعة خالها جبران دقيقة . لأنه أخذ بهيبة الرجل وعظمته وبساطته واستقلاله ، وبما رآه حواليه من رسوم ملوّنة ، وسوداء وبيضاء ، وتماثيل من الجصّ والحجر والخشب ، بين كبيرة وصغيرة ، ومنها شكل يدٍ بشرية مضخمة قد انفرجت أصابعها الممدودة بعضها عن بعض وانحنت نحو راحة الكف بدرجات مختلفة . فبانت وكأن في كل عقدة من عقدها قدرة الأرض والسماء ، وكأن في تقاطيعها من الحسّ أدقّه ، ومن الذوق أصدقه وأرقّه . حتى لا يصعب

على من يتأمل كل معانيها أن يتخيلها تقبض على الطين فتجبل منه بشراً ومردة وكل أشكال الحياة المنظورة . وقد عرف جبران أن رودين صنع تلك اليد وسمّاها «يد الله» . فقال في نفسه : «أهو الله خلق الانسان أم الانسان الله ؟ ليس من خالق إلاّ الخيال وأظهر مجالي الخيال الفن . — الفن . الفن ! هو الحياة والحياة هو . وكل شيء يهون في سبيله . لا مجد إلاّ منه . ولا جمال إلاّ فيه . هذه هي العظمة — أن تكون كرودين — ممجداً ومكرماً حيثما كان للفن أثر — من بطرسبورغ الى سدني ، أوستراليا ، ومن طوكيو الى نيويورك ، وأن يُذكَر اسمك بإجلال كلما ذُكر الفن ، وأن يأتيك الناس من المشارق والمغارب ليتبركوا ببعض ما باركتك به الحياة من المواهب . »

طرح التلاميذ على رودين أسئلة كثيرة لها علاقة بالفن ، كان يجيب على كل منها ببساطة ووضوح مضمناً بعض أجوبته خُلاصة فلسفته في الحياة والفن . وكان بين الآونة والأخرى يتوفق الى كلمة أو عبارة أو تشبيه تمر بأذهان سامعيه مرور شهاب في الظلمة . وجره سؤال من الاسئلة التي طُرحت عليه الى التحدث عن وليم بلايك — الفنان والشاعر الانكليزي الغريب (١٧٥٧ — ١٨٢٧) . فأخبر سامعيه شيئاً عن حياة الرَّجل وكيف تعانقت في روحه إلاهة التصوير مع إلاهة الشعر فكان شاعراً ممتازاً في فنه وفناناً ممتازاً في شعره . وكيف أنه كان يرى ما لا يراه الناس ويشعر بما لا يشعر به الناس . إذ كان يرى رؤىً ويسكن بخياله عوالم غير عالمنا الأرضي . فيترجم رؤاه ومشاهد عوالمه المحجوبة عن أعين الناس تارة برسوم تفتن الناظر بسحر ما فيها من أسرار واتساق ودقة ، وطوراً بأناشيد

شعرية ونثرية كان يقرأها الناس ولا يفهمون منها شيئاً فيقولون إن في عقل صاحبها مساً . والحقيقة هي أن بلايك لم يكن مجنوناً ، بل عاقلا بين مجانين . ومصيبته لم تكن إلا في أنه حاول أن يجعل أوضاع اللغة الصلبة مَرِنَة مثل الفن . وأن يؤدي بالكلام المقيد بالمنطق رسوماً وعوامل نفسية تتعدى المنطق . فكان كلما تقدم في السن ، وكلما تكاثرت وتنوعت رؤاه ونبوآته ، ازداد فنه جمالاً ووضوحاً ، ولغته تعقداً وغموضاً . ففي الرسوم التي وضعها لسِفر أيوب إبداع من الطراز الأول . أما في مؤلفاته الأخيرة فتشويش لغوي لا يُلام معه قارؤها اذا دعا كاتبها مجنوناً .

انصرف جبران من عند رودين وقد نسي رودين وامتلأ دماغه وخياله وكلُّ وجدانه بشخص واحد — وليم بلايك . وذهب تَوّاً الى بائع كتب أميركي كان قد اهتدى اليه من قبل ، وأكثر ما يبيعه كتب قديمة مستعملة . وهناك حظي بنسخة من تأليف عن وليم بلايك وفيه تفاصيل حياته ونماذج مختلفة من شعره ونثره وفنه . فابتاعها في الحال وما صدق أن وصل الى حديقة اللوكسنبورغ حتى جلس على مقعد وأخذ يلتهم الكتاب الذي بيده التهام جائع لرغيف من الخبز .

قضى جبران في الحديقة نحو ساعتين ناسياً كل ما في الكون إلا نفسه ووليم بلايك ، وهاتفاً في أعماق قلبه : «سبحان ربي الذي قادني اليوم الى رودين ليقودني رودين الى بلايك . حقاً إن الأمور مرهونة بأوقاتها . فلا يحدث شيء إلا عندما تقضي الحاجة بحدوثه . كنت أظنني غريباً في الأرض . واليوم جاءني بلايك ليؤنس غربتي . كنت أظنني تائهاً . وها بلايك يسير أمامي . ترى ما هي القرابة التي تجمعنا ؟ ألعل روحه عادت إلى الأرض

وارتدت جسدي ثوباً ؟ ما كان أجمل حياته وأهنأها ! هو لم يعرف من النساء غير زوجته . وكم كان سعيداً برفقتها – تفهمه ويفهمها . وأنا ...آه لو كان لي مثل زوجته ! وما بالي أتأوه وعندي ماري ؟ بلى . ماري . ماري . سأتخذها زوجة لي وان تكن أسنَّ مني بعشر سنين ، وان لم يكن بيننا تجاذب جسديٌّ كالذي بيني وبين ميشلين . فيكفي أن يكون بيننا تجاذب روحي . وسأحيا معها حياةً زوجية بحتة . وسأكون سعيداً عندما يقول الناس فيَّ ما قالوه في بلايك – هو مجنون : الجنون في الفن إبداع . وفي الشعر حكمة . والجنون بالله اقصى درجات العبادة . »

بدأ الليل يحتل باريس وبدأت باريس ترشقه بنبالها الكهربائية عندما عاد جبران الى غرفته وتحت إبطه – وفي رأسه وقلبه – وليم بلايك ، وفي يده كيس من الورق تعانق فيه رغيف من الخبز مع اوقية من نقانق الخنزير . وعندما دخل غرفته وجد على الطاولة رسالة مختومة تفحّص الخط على غلافها فلم يعرفه . ففضها وإذا بها عربية من فتاة لبنانية ما سبق له قط أن سمع حتى باسمها . وهي تتقدم اليه برسالتها لتبين له بعبارتها البسيطة كبير اعجابها به وعظيم امتنانها له ، ولتشكر له باسمها وباسم الفتاة الشرقية إجمالاً جهوده في سبيل المرأة . فقد قرأت « مرتا البانية » و « السيدة وردة » وقرأت كل ما توصلت اليه من كتاباته فغدت تتشوق إلى لمس اليد التي خطتها وإلى التعرف « بالروح السماوية » التي أملتها . وها هي الآن في باريس . فهل يثقل على صاحب « الأرواح المتمردة » و « عرائس المروج » أن يخصص لها ولو بضع دقائق من وقته الثمين لزيارته ؟

وضع جبران الرسالة من يده وهو يشعر أن غبطة ناعمة تمشت في دمه

من سطورها البسيطة ، وأن العظمة التي ينشدها قد بدت طلائعها . ثم أخذ يسأل نفسه – « ترى من هي هذه الفتاة ؟ أحبٌ قديم يخاطبني بلهجة جديدة؟ أخيطٌ من خيوط حياتي يلتقطه الآن مكوك القدر من جديد ليتابع النسج الذي ادعوه « أنا » ؟ أجميلة هي ؟ أغنيـة ؟ ها قد بدأتُ أكون مشعلاً يستنير به الناس من بعيد . فعليّ أن أجعل نوره صافياً . عليّ أن أكون كما يتمثلني الناس – نقياً ، طاهراً ، شفافاً ، شفوقاً ، محباً للصلاح ، صبوراً على الألم ، مترفعاً عن الدنايا . نجّني يا رب من نفسي . اغسلني يا رب من أقذاري . اصهرني يا رب في مصهر حقك . »

وكلمعة الحباحب في الليـل مرت في ذاكرته كلمات أمـه « وقانا الله ساعة التجربة . » وبينما هو في ذلك اذ سمع طرقة على الباب . وإذا بـه الحاجب أتى ليخبره بأن سيدة جاءت تسأل عنه بعد الظهر ، وإذ لم تجده قالت إنها تعود في المساء . ولم تعطِ اسمها . وبعد أن انصرف الحاجب ندم جبران لأنه لم يسأله أن يصف له الزائرة المجهولة . وقال لعلهـا الفتاة التي كتبت الرسالة . ثم أخذ كتاب بلايك والكيس وجاء بزجاجة من النبيذ الأبيض وجلس إلى الطاولة يمضغ بلايك بعينيه وروحه ، بينا أسنانه تمضـغ الخبز ونقانق الخنزير ، وزجاجة النبيذ تساعدها في ذلك . فـكان في قلبه عرس وفي معدته وليمة .

ما كاد جبران يأتي على آخر لقمة من عشائه حتى طُرق الباب ثانيـة . فهبَّ اليه وفتحه وجمد مـكانه مشدوهاً وكأن رجليه قد سمرتا بالأرض . وبعد فترة من السـكون والدهشة صاح بأعلى صوته : « ميشلين ! » وجذب السيدة الواقفة بالباب إلى صدره ، وضمها اليه ، وغيَّب وجهه في ثنايا ثوبها

فوق نهديها . فطوقت عنقه بذراعيها ، وألقت رأسها على كتفه . وبقيا كذلك دقائق وهو لا يسمع إلا دقات قلبها ، وتمتمة شفتيها « خليل . خليل ! » وهي لا تشعر الا بمرور أنفاسه السريعة الملتهبة ، ولا تسمع إلا اسمها محمولاً بخفة على لهيب تلك الأنفاس « ميشلين . ميشلين ! »

« لقد أمرتَني فأطعت – ناديتني من وراء المحيط فلبّيت . فأنت ، كما ترى ، لا تزال صاحب سلطان عليّ يا خليل . »

« هو الحب يا ميشلين – هو الحب يأمر فنطيع وينهى فنذعن . هو السلطان ونحن الرعية . مَن يعصِ الحب يعصِ الله . إذ لا إله إلا" ه . دعيني الآن أدفىء روحي بشعاع عينيكِ الجميلتين . وأرشف الحق من شفتيكِ القرمزيتين . وألمس الحياة في يديكِ الناعمتين . دعيني أسمع قلبي نابضاً في قلبك وأرى أنفاسي راقصة مع أنفاسك . لقد كنت كلما مرّت السعادة ببابي قلت – هذا خيالها . وكلما سمعت وقع قدميها في بيتي قلت – هذه جارية من جواريها . أما اليوم – اليوم أسمعها ترفرف وتزقزق في قلبي – اليوم قد هبطت عليّ مع أشعة الشمس ، ودخلت غرفتي مع النسيم . اليوم قد حملتني في موكب من نور . اليوم أحلف يميناً صادقة أنني أسعد الناس . ميشلين . ميشلين ! أفي حلم نحن أم في يقظة ؟ اليوم اهتديت الى أختٍ لروحي ستكون أختاً لروحك أيضاً . روح غريبة عجيبة . روح متفردة بين الأرواح . روح شاعر وفنان انكليزي مات منذ تسعين سنة واسمه وليم بلايك . سأقرأ لكِ حياته يا ميشلين – وما أجملها من حياة ! وستبصرين في الحال أن الحياة انتدبتك لتكوني لخليل رفيقة ومعينة مثلما كانت كاترين لبلايك . وسأريك بعض

رسومه وأقرأ لكِ شيئاً من شعره . وستحبينه مثلما أحبيته . ميشلين . ميشلين ! ما أكرم الله ! مـا أجمل الحياة ! هذا يوم كامل – هذا من أيام القدر . وما أجملكِ يا ميشلين ! هـاتي خبريني عن كل شيء ، متى تركتِ بوسطن ، ومتى وصلتِ باريس ، وكيف عزمتِ عـلى المجيء دون أن تعلميني يا شريرة ؟ سنجعل هذه الغرفة الصغيرة بيتنا . وهي ، على ضيقها ، ستكون رحبة . فحيثما كان الحب كانت المسكونة بيتاً له . أين أمتعتك ؟ »

« في النزل . »

« وأي نزل ؟ لنذهب في الحال ونأتِ بها الى هنا . »

« لا ضرورة لذلك الآن يا خليل . »

« ومـاذا تعنين ؟ أتكونين في باريس ويكون لكِ بيت غـير هذا البيت ؟ »

« ليكن قلبـكَ بيتاً لقلبي ، ولا يهمني حينئذٍ أين أنام ، ومـاذا آكل وأشرب . »

« حيثما يكون قلبي هناك يكون قلبكِ أيضاً . ومثلما آكل وأشرب تأكلين وتشربين . الفراش الذي أفترشه تفترشين . وباللحاف الذي ألتحف تلتحفين . »

« آ ، خليـل ، خليـل ! أنا قانعة بأن أكون الحصير تحت رجليك ، والغبار عـلى حذائك . دعني أخدمك فأغسل ثيابك ، وأكنس غرفتك ، وأُعِدّ قهوتـك ، وأطبخ لك غداءك وعشاءك . ولكن ... لا تسلني أن أكون .. أن أكون – حظيتك . »

« هذا تجديف يا ميشلين — تجديف على الحب والحياة . ما جمعه الله حذارِ أن يفرقه انسان . والله هو الحب . هو الحب يربط ويحل . هو الحب شدّ روحينا وجسدينا منذ الأزل برباط واحد . هو الحب قال لنا كونا فكنّا . حينما جمع الحب قلبين لا ولن تفرقهما كل قوى الإنس والجن . وقلبان لم يربطهما الحب لا ولن تربطهما تعاويذ ألف كاهن وألف قسيس وغتمة ألف قاضٍ . حطية — حطية ! رُبّ حطيةٍ كانت أشرف في عين الحياة من ألف زوجة قدّست رباطها شرائع الأرض وردّدته شرائع السماء . الحب لا يعرف إلا نفسه ، ولا يدين بدين غير دين نفسه ، ولا يتقيد بشرع غير شرع نفسه . وشرع الحب هو الحرية . كل ما في الأرض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد الحرية وأفراحها . أما البشر فمحرومون هذه النعمة ، لأنهم وضعوا لأرواحهم الإلهية شريعة عالمية محدودة . وسنّوا لأجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً . وأقاموا لميولهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً . وحفروا لقلوبهم وعقولهم قبراً عميقاً مظلماً . فاذا ما قام واحد من بينهم وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا — هذا متمرد شرير خليق بالنفي ، وساقط دنس يستحق الموت . وأنا متمرد يا ميشلين ، وسأبقى متمرداً كل حياتي . وكيف لا أتمرد على الناس وقد أنزلوا الكاهن منزلة الله ؟ أم كيف أرضخ لشرائعهم الفاسدة وقد أخضعوا ناموس الحب والحياة لناموس البطن واللذة واللياقة ؟ أنا شاعر وفنان يا ميشلين . والشعر والفن ما لم يسرحا في فضاء فسيح طليق ماتا بداء السل . ومن ثمّ — وأنتِ تعلمين ذلك يا ميشلين — فأنا أدرس هنا على نفقة البعض من أقربائي وأصحابي . فلو رضيت أن أتقيد بشرائع الناس

وأن أتخذك زوجة برضى السلطة الدينية والمدنية – كأن رضى الله لا يكفي – لما تمكنت من ذلك . إذ لو درى أقربائي وأصحابي بالأمر لقطعوا عني معونتهم . »

« بل قل – لو درت هي بالأمر . »

« ميشلين ، يا شريرة . لا تقاطعيني . »

« ولو درى – لتقُل أقرباؤك وأصحابك – بأنك تساكن امرأة ليست زوجتك ، أفما كانوا يقطعون عنك معونتهم ؟ »

« لا . لا . يستحيل أن يدروا . فهم في بلاد ونحن في بلاد . »

« والحياة التي تؤمن أنت بها يا خليل ، وتقول إن لها عيناً تبصر كلّ شيء ، وأذناً تعي كل شيء ، أهي كذلك في بلاد ونحن في بلاد ؟ ويسوعك الذي قال : « ليس خفيّ إلاّ يظهر » – أهو كذلك في بلاد ونحن في بلاد ؟ ورفيق روحك الجديد – وليم بلايك – الذي كان شاعراً وفناناً وكان ، مع ذلك ، زوجاً صالحاً وأميناً – أهو في بلاد ونحن في بلاد ؟ بل قُل أنت في بلاد يا خليل وميشلين في بلاد . أنت خُلقت للشعر والفن وأنت تعتقد الشعر والفن من السماء . وأنا – كما قلتَ لي مرة – من التراب وللتراب . وقد كنت أظن في بساطة قلبي أن التراب ، الذي ينبت القمح المغذي والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة ، يصلح كذلك تربة للشعر والفن . فما كان أجهلني ! ما كان أغباني ! ما كان أشدّ عماي ! »

ووثبت ميشلين الى الباب شاهقة بدموعها وانحدرت عن الدرج بسرعة لم ترَ معها الدرجات ولا عرفت أين كانت تقع قدمها ولا الى أين كانت تقودها . أما جبران فظل مكانه ، وقد امتقع لونه ، وجحظت عيناه ،

وهرب قلبه من صدره ، واختلطت عليه مشاعره وأفكاره . ثم أحسّ برجفة في أعصابه وبضعفٍ في رجليه وبسيل من الدموع يحاصر مقلتيه . فارتمى على فراشه وأخذ وسادته بين ذراعيه وضمها الى صدره وراح يروّيها بدموعه ، وصوت في داخله يقول : « هي النهاية . هي النهاية . لقد نحرت حبك على مذبح شهوتك يا جبران . أنت مصاب بداء الكلام يا جبران . ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشري تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والألوان البهجة . والكلام الجميل لا يرفع الشناعة الى مستوى الجمال . والألوان البهجة لا تصبغ الضعف قوّة . وقولك إن الحب هو الله لا يجعل الشهوة الجسدية إلهاً ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة . » فيجيبه صوت آخر : « سترجع . سترجع . لقد فعلت هذا قبل اليوم ورجعت . سترجع . » — لكن ميشلين لم ترجع .

***

وفي صباح اليوم التالي تلقى جبران رسالة تنعى اليه وفاة أبيه في بشرّي .

سكرة . ثم صحوة . ثم سكرة

حياة الانسان على الأرض سكرة دائمة ، وليس يصحو منها قبل الموت إلا القليل من ذوي الخيال والالهام . وصحوة هؤلاء يندر أن تدوم سنوات متوالية ، كصحوة بوذه ويسوع . وأكثرهـا لا يتعدى فترات قصيرة من الزمن يُفلت فيهـا الخيال من أشراك البدايات والنهايات ، والحدود والفواصل ، والأسباب والنتائج ، والخير والشر وكل أصناف المتناقضات ، ويسبح في جوٍ لا خصام فيه بين « أنا » و « غير أنا » إذ ليس فيه إلا « أنا » واحدة ، شاملة ، لامتناهية .

من فكرٍ إلى فكر ، من لذةٍ الى ألم ، من شبـع إلى جـوع ، من ضعةٍ الى رفعة ، من فوزٍ الى فشل ، من همّ الى همّ — سكرة تلو سكرة تلو سكرة . في مثل هذه الأقـداح يغيّض الناس أيامهم ولياليهم . وهم يحسبون ما يشربونه سلافة الحياة . وكرمة الحياة براء منـه . فما هو إلا من معصرة أوهامهم القائلة إن نصف الحياة شهد ونصفها الآخر حنظل . وان غايتهم القصوى من الوجـود هي أن يسرقوا من الحياة شهدهـا ويتركوا حنظلها . ولمن يتركونه ؟

كان جبران واقفـاً وحده عند مقدمة الباخرة بطريقه من اوربا الى أميركا . وكانت الريـح تلعب بشعره وتبلل وجهـه برشاش الأمـواج ،

والشمس المائلة للغروب قد اتخذت من الغيوم أدهاناً ، وجعلت من الأفق البعيد منصباً ، ومدّت عليه خامةً لا حدّ لها ، وراحت ترسم عليها من الأشكال والألوان ما تعجز عنه كل فرشاة إلا فرشاة الشمس السحرية . فمن مروج ذهب ترعى فيها قطعان من الخلائق التي لا تعرفها الأرض ، الى جبال ثلجيّة تحمل على رؤوسها بحيرات من نار ، ومن هياكل مقببة تنسلُّ من بين أعمدتها حبال من البخور والنور ، الى كهوف تتمايل في مداخلها العابسة أشباح جبابرة وأقزام ، ومن حوارٍ ترقص في غابات من المرجان ، الى عجائز تندب في مقابر ، ومن تنانين فاغرة أفواهها وحيتان رافعة أذنابها ، الى عروش لا سلاطين عليها ، ومركبات جيادها مجنحة ولا أعنّة لها . — رسوم تدهنها الشمس بلحظة . وبلحظة تغير أشكالها وتبدل ألوانها ، وتظل كذوبٍ من السحر تشربه العين فلا ترتوي .

لكن جبران كان ينظر الى ما تصوره الشمس أمام عينيه فلا يبصر إلا أشباحاً يطرحها فانوس الذاكرة على لوحة الأفق بسرعة أين منها سرعة الشمس في تنميق الغيوم . فكان قلبه يعج بما تثيره تلك الأشباح من غبطة راحلة وألم مقيم . وفكره يحاول أن يختلس من الغد بعض أسراره ، ويمحو من الماضي الكثير من آثاره . ومن الآثار التي يودُّ لو يمحوها علاقته مع تلك الفتاة اللبنانية التي كتبت اليه مرة تبدي إعجابها به ورغبتها في التعرف اليه . ومن الأسرار التي كان يودُّ أن ينتشلها من حقيبة الغد سرّ ما برح يعذّبه منذ أدرك أن طريق الفن طريقه . فمشى فيها وترك كلَّ طريق سواها . وهو سرّ المعيشة — من أين يأتي بالمال ليعيش بشرف ويريح

مريانا من الابرة والخيط ويستغني عن مساعدة ماري ؟ أمِن شِقّ قلمه أم من شعور فرشاته ؟

كثيرٌ هم الذين يعيشون في أميركا من فنهم . لكن أكثرهم تجار لا فنانون . والفرشاة في يدهم جارية للدولار في جيب جارهم . أما الذين يكسبون من فنهم دون أن يجعلوه سلعة فلهم شهرة واسعة تساعدهم على الكسب . والشهرة مومس – ان استرضيتها كنت دونها . وان سنحتها مالت عنك الى الذين يسترضونها . فهل يستطيع أن يستميلها من غير أن يعفر أمامها جبين أنفته وجبين فنه ؟ لكنه ، ريثما يستميلها ، من أين وبماذا يعيش ؟

والقلم – كيف له أن يعيش من شِقّه ؟ لقد استلفتت كتاباته أنظار العالم العربي ، ونقلت بعضها بإعجاب مجلة رزينة كمجلة جرجي زيدان وأطلقت عليها اسم « الشعر المنثور » . غير أن العالم العربي عالم فقير ، وقد لا يكون فقيراً ، لكنه لا يدفع أجراً إلاّ للذين يملأون فراغ بطنه ، ويسترون عري جسده . أما الذين يعصرون أرواحهم وقلوبهم خمراً ويقدمونها اليه فلا يقبلها منهم إلا اذا قدموها في طاساتٍ من جماجمهم . ولا يدفع عنها أجراً سوى « بَخٍ .. بَخٍ » و « نعِمّا .. نعِمّا » كأنّ « بَخ » و « نعِمّا » تكفيان غذاءً للحم الكاتب ودمه وعظمه !

ها هو ، بعد ثلاث سنوات قضاها في باريس وزار في خلالها رومة وبروكسل ولندن وما فيهن من متاحف وآثار فنية ، يشعر كأن قلبه يكاد ينفجر لوفرة ما فيه من العواطف التي بإمكانه أن يبرزها الى الناس في أكسية بهية . وكأن خياله أرضٌ بكرٌ روّاها الغيث فاستفاق كل ما

كان هاجعاً في أحشائها من عجائب وغرائب وهو الآن يتحفز لتمزيق ما حواليه من أغشية ليدرج بألوانـــه المختلفة حيّاً وجميـلاً وحرّاً تحت الشمس . فكيف له أن يفرّج عـــن قلبه فيسكب عواطفه في قوالب شعرية ، اذا كان فكره تائهـاً في صحارى المعيشة يفتش عن الريال ولا يجده ؟ وكيف يتـاح له أن يستغل ما في تربة خيـاله الخصبة من قصائد ورسوم ، مـا دام صاحب البيت لا يقبض شعراً منثوراً أجرة بيتـه ، وشركات النقل والتنوير ، والخباز واللحـام والاسكاف وبائع الأكـبية والحلاق لا يرضون بالرسوم الفنية نقداً ؟ أوَتخنق الحاجة الى الدولار حاجته الى الافصاح عما في كيانه من عوامل زاخرة ، ثائرة ؟

عنده مريانا وإبرتها وخيطها ، وهي بالكاد تكفي نفسها حاجاتها البسيطة . أفيرضى أن يأكل رغيفه ، ويلبس برنيطته وحـذاءه من ثقب إبرة مريانا ؟ والى متى يفعل ذلك ؟ مريانا في السادسة والعشرين . وكان من الواجب أن تتزوج . لكنها ، من فرط حبها له ، لن تتزوج ما زال هو في حاجة الى نتاج إبرتهـا وخيطها . فهل يرهن مستقبلهـا وحياتهـا لمستقبل فنه وحياة أدبه – وذاك وهذه مـا يزالان في ضباب ؟ ألا تبّاً للناس كيف شوّهوا الحياة فقلبوها رأساً لعقب ! رُبَّ ملاكم يثقلون جيوبـه بالذهب ، وصدره وأصابعه بالجواهر ، ويتركون ذا إلهام يغصُّ بإلهامه ، ويذبح خياله بسكين الجزار ، أو يحرقه في فرن الخباز ، أو يشنقه على مصراع الباب لأن ليس في يده ما يدفعه أجرة عن الباب ! ولو عرف الناس قيمة الالهام لقـالوا لذويه : لا تهتموا بمـا تأكلون أو تشربون أو تلبسـون وأين تسكنون . أعطونا من إلهامكم وكل ذلك نقدمه لـكم مجاناً .

غير أن الناس لا يعرفون قيمة الإلهام والملهمين . فأين المهرب ؟ ما كان أنعم باله من هذا القبيل في باريس . فالخمسة والسبعون دولاراً التي كان يتناولها من ماري في كل شهر كانت تقوم بحاجاته وتفيض عنها . حتى انه كان يرسل الى مريانا بعضاً منها . أما الآن فمدة الدرس في باريس قد انتهت والمعونة المادية من ماري ستنقطع بلا شك . وأمامه جهاد عنيف وطويل قبلما يصبح معروفاً في عالم الفن ، في بلاد شاسعة كأميركا ، فيتمكن من أن يستدرّ معاشه من فنه . فما العمل ؟ وأين الملجأ ؟

هناك ماري . وهي تحبه ، وتقدّر مواهبه ، وتفهم أشواقه ومطامحه ، ولا تحاسبه بضعفه ، ولا تدينه بإثمه . هي امرأة وكأنها ليست امرأة ، فلا أثر في روحها لغيرة النساء ، ولا في قلبها لشهواتهن . كأنها لم تُصنع من ضلع الرجل ، بل جُبلت من شرفه دون قساوته ، ومن عفة المرأة دون ضعفها . هو يحبها . لكن بغير الحب الذي أحبَّ به ميشلين . يا ليته لم يعرف ميشلين ولا غيرها من النساء قبل أن عرف ماري ! إذن لاكتفى بحبها الطاهر ، ولبادلها حباً منزهاً عن عواصف اللحم والدم . أوَليس في استطاعته أن يفعل ذلك الآن ، فيتفرغ بكليته الى التصوير والكتابة ، تحت جناح ماري الدافىء ، وبرعاية فكرها النيّر وقلبها الحنون ؟ علامَ لا ، وهو بحاجة الى من يؤنس وحدته ، ويخفف من وحشته ، ويرفع عن صدر خياله كابوس الحاجة ، ويعتقه من الاهتمام بصغائر المعيشة ؟ وماري حريصة كل الحرص في ما يتعلق بالمعيشة . والفلس في يدها أقوى من الريال في يد غيرها . عندها مدرستها ، ولها منها مورد رزق لا بأس به . فليصل حياته بحياتها – ليتخذها رفيقة شرعية – ولتبقَ في مدرستها ريثما

يصبح قادراً على القيام بحاجاتها وحاجاته . ولينصرف هو الى فنه . والأفضل أن يتخذ له مقرّاً في نيويورك . فالمجال هناك أوسع منه في بوسطن . بلى . بلى . لكن كذلك .

ما بلغ جبران هذه النقطة من تأملاته حتى أحسّ بتخدر في دماغه كأنه جرع كمية وافرة من المسكر . فهزّ رأسه كمن به دوار ، وفرك عينيه كمن يفيق من حلم مزعج . فرأى أمامه البحر الهادىء كأنه ملاءة زرقاء وقد شُدَّت أطرافها بشواطىء لا تُبصَر ولا تُحَدّ . وكأن ربوات من أرواح اللجة ترقص تحت هذه الملاءة ، فترفعها قليلاً هنا ، وتخفضها هناك . ورأى أذيال الغيوم النديّة تشتعل إذ تلامس أذيال الشمس . وأحسّ بالريح التي تداعب شعره ووجهه كأنها أنفاس كلّ الأزمنة — ما غبرَ منها وما زال مكتوماً . ففتح لها صدره وراح يجرع منها جرعات . وكلما جرع جرعةً قال :

« ادخلي . ادخلي بكل ما فيكِ من بركات الحياة وويلاتها . أنتِ ابنة الريح التي حملت روح الله حين كانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه الغمر ظلام ، وروح الله يرف على وجه المياه . وأنتِ الآن تحملين كل ما تنفست به الأرض والسماء . منذ كانت الأرض والسماء حتى الساعة . فادخلي . ادخلي الى أعماقي . واجعليني شريكاً لكل ما على الأرض وفي السماء . »

وجمح به الخيال فصار اذا ما فكّر بالنور في عينيه قال — هو من الشمس . فالشمس فيّ وأنا فيها . أو بالبحر ، قال — من البحر أرتوي . فالبحر فيّ وأنا فيه . أو بالأرض ، قال — من الأرض أغتذي . فأنا الأرض

والأرض أنا . وكأنّ ستاراً ازيحَ عن بصيرته ، فرأى ذاته مثل محور يدور عليه كل شيء . أو مثل نقطة الدائرة تتفرع منها شعاعات لا تُحصى الى كل أطراف الدائرة . ورأى أن قلبه يلامس كل قلب . وفكره يجاور كل فكر . فعجب لنفسه كيف أنه ، منذ دقائق قليلة ، كان يقرض قلبه ويرهق فكره ويكبل خياله بهموم المعيشة . وها قلبه يرقص الآن مع أرواح اللجة تحت ملاءة البحر الزرقاء . وها فكره يدرج عليها . ويتسلق حبال النور المدلاة من الغيوم اليها . وها خياله ينشب من أُفق الى أفق ، ومن سماء الى سماء ، واصلاً المنظور بغير المنظور ، وما كان بما سيكون ، مبصراً أن نهاية كل أمر هي بداية آخر ، وبداية كل أمر نهاية سواه . فلا بداية لشيء . ولا نهاية لشيء . ولا بداية ولا نهاية للواقف عند مقدمة الباخرة — جبران خليل جبران . ولا فاصل بينه وبين شيء . ولا عداوة بينه وبين أصغر أو أكبر ما في الكون . بل كل ما في الكون يناديه : « أنت ابني الحبيب . »

دق الناقوس يدعو الركاب الى العشاء . فأجفل جبران كمن كان ماشياً وحده في حديقة سحرية وفجأة سمع رعداً يقصف فوق رأسه .

وكان الأفق قد اكمدّ ، والليل قد شدّ أوتار قيثاره بالنجوم وراح يوقع عليها نشيد الموت والحياة . فمشى جبران بخطوات متباطئة نحو غرفة المائدة . وبخطوات متباطئة عادت أفكاره الى خمّارة المعيشة وعادت تجرع فيها أكواباً من حلاوة الأمل ومرارة الهمّ .

نحن بالتفكير

كانت لماري هاسكل ، قبل أن اشتبكت حياتها بحياة جبران ، كرمة واحدة – هي مدرستها . وكانت تتعهدها بكل ما في فكرها من المقدرة وقلبها من الحنان . أما بعد أن عرفت جبران ، وأرسلته على نفقتها الى باريس ، فأصبحت ولها كرمتان . وكان جبران كرمتها الثانية . وكانت كرمتها الثانيـة أحب الى قلبها وأقرب الى فكرها من الأولى . فالمدرسة ، مهما تعددت مشاغلها واتسع نطاقها ، تبقى مدرسة تسير على برنامج محدود : أجيال تأتي وأجيـال تروح . صفوف . دروس . امتحانات . شهادات ثم عطلة . والذي يجري في سنة يجري مثله في التي بعدها . حين أن جبران لا نطاق له ، ولا برنامـج للقوى التي تغلي وتفور في داخله . فما جلستْ وإياه مرة ، وأصغت الى حديثه ، وتفرست في وجهه ، وتأملت حركاته ، إلا أحست بخمر جديـدة تدب في أفكارها ، وبأجنحة قوية تطير بخيالها ، وبنسمات منعشة تهب على روحها من عالم بعيـد غريب . وما فكرت بوحدته وضيق حاله ، واندفاعه مع مطامحه وآماله ، إلا مشى قلبها اليه ، ولذّ لها أن تنفق من روحها وجيبها عليه . فما عادت تعرف أهي المحبة تربطها به ، أم الاعجاب يدنيها منه ، أم الشفقة تفتح قلبها له . غير أنها ، كيفما تفقدت عواطفها نحوه ، وتغلغلت في أفكارها عنه ، لم تجد للشهوة الجسدية فيها أثراً . لأنها ، حتى عودة جبران من باريس ، ما أحست بجاذب جسديّ الى

رجل قط . ولم تكن تدري أتغتبط لذلك أم تحزن ، أتحسبه نقصاً في نسوتها ، أم زيادة في قسمتها .

لم يكن يتعب ماري في علاقاتها مع جبران غير أمر واحد ، وهو أنها وجدته كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته ، يخشى عليها أن تُمس بأقل ملاحظة أو اشارة . حتى انه ليستعدي صديقاً وفياً من أجل كلمة بريئة قد يخيل اليه أن فيها مساً بكرامته . ويستصدق عدواً لدوداً إذا سمع منه أو عن لسانه كلمة إطراء . وبقدر ما يستمرر النقد من أي نوع كان ، يستعذب المديح مهما كان مصدره ، ويفعل المستحيل للحصول عليه . ثم انه ، لشدة نهمه في المديح وخوفه من النقد ، ولأنه تعوّد التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز ، كان يستخلص من الكلمة الواحدة معاني كثيرة حيث لا يستخلص سواه غير معنى ، ويقرأ سطوراً في سطر ، ويبصر ألواناً عديدة حيث لون واحد لا غير .

أما هي – ماري – فمن طبعها البساطة والصراحة في كل شيء : في الفكر ، والكلام ، والمعيشة بكل مظاهرها . فهي لا تخجل من أن تقول الحق وإن كان عليها . ولا تُلبس منطقها أكسية مزركشة من المجاز . ولا تضمر نيات أو معاني غير ما تؤديه بكلامها . لا تداجي ، ولا تحابي ، ولا تسمي الأشياء بغير اسمائها . لكنها ، بعد أن خبرت جبران وميله الى التملق والموالسة ، وتبرّمه من الصراحة اذا اشتمّ فيها ما قد يحسبه محطاً بكرامته ، أصبحت تخشى على علاقاتها معه أن تعبث بها كلمة من كلماتها السليمة النية ، أو إشارة من اشاراتها الصريحة الودية . ولم تشأ – بل لم

يكن في وسعها – أن تغير طباعها فلا تقدّم يدها الى جبران إلا مقمطة بالحرير ليستنعم ملمسها ، ولا تخاطبه إلا بكلمات مطلوّة بالسكر ليستعذب مذاقها .

على أثر عودته من باريس زار جبران ماري هاسكل . فاستقبلته استقبال فاتح . وقبّلته بقبلتها التي دعاها في احد مقالاته « مريمية » وراح يخبرها عن كل شاردة وواردة فاته أن يخبرها عنها في رسائله . وكان أغلب حديثه عن نفسه – عن كبار الفنانين والأدباء الذين التقاهم في باريس وعن رأيه فيهم وما قالوه فيه . وعن الرسوم التي أنهاها وجاء بها الى بوسطن والرسوم التي ابتدأ بها ولم ينهها . وعن كتاباته العربية وما احدثته في العالم العربي من تأثير . وعن المدن والمتاحف والآثار الفنية التي زارها ، والمعارض التي اشترك فيها . وكان ينمق الجميل من أفكاره وأعماله فيظهره أجمل مما هو . وينسج للضعيف والباهت منها أكسية من المجاز فيبدو الضعيف قوياً والباهت زاهياً . واذا ما جمحت به الذاكرة فجرّته الى مشهد من مشاهد حياته الباريسية التي كان يخجل من أن تقع عليها عين ماري ، محا ذلك المشهد بأدهان من الصمت اذا تعذرت أدهان الكلام ، وتخطاه الى آخر يروقه وصفه ويروقه أن يرى ماري معجبة به ، مرتاحة الى معانيه .

منذ ابتدأ جبران بالحديث وفي فكره ، وبين شفتيه ، كلمة تهم بالوثوب فيردعها قائلاً لها : تصبري . تصبري . لم تأتِ ساعتك بعد . لعلك أكبر كلمة أفوه بها في كل حياتي . وقد أحيا لأباركك أو لألعنك . أما الأذن التي ستقعين فيها فستقبلك كما اقتبل العبرانيون المنّ من السماء . بلى . فهي لا شك غرثى اليك . وستعلم ماري أن جبران يعرف قيمة الجميل اذا

رافقته المحبة . وقدر المحبة اذا تجردت من محبة الذات . أنتِ كلمة كبيرة . وقد تغيرين مجرى حياتي بأسرها . تصبري . تصبري . ريثما أعدُّ لك مسرحاً يليق بك .

ظل جبران يحادث ماري ويترصد الفرص لاطلاق سراح الكلمة التي في فمه الى أن وقف الحديث عند حد يستدعي الصمت والتفكير . واذ أحسّ أن جليسته تمادت في التأمل أخذ فجأة يدها بيده ، وشدّ عليها ، ورفعها باحترام كلي الى شفتيه فقبلها . ثم أغمض عينيه ، وبصوت كأنه صوت القدَر يعلن سرّاً عظيماً من أسرار الوجود ، قال :

« ماري ! أتمشين معي ؟ »

فأجفلت ماري واستغربت الانقلاب السريع في صوت جبران وحركاته وأجابته مستفهمةً ، وهي لا تعلم لماذا سألها مثل هذا السؤال ولماذا تستفهم معناه :

« الى أين يا خليل ؟ »

« الى حيث تدعونا الحياة . »

« أوَتعني الزواج يا خليل ؟ »

« نعم . هل تقطعين معي الطريق حتى النهاية ؟ »

وببساطة الطفل ، وصراحة لا سلاح في يديها لكنها ، مع ذلك ، تنزع السلاح من يد من ينازلها ، أجابت ماري والدهشة لا تزال بادية على وجهها وفي صوتها :

« وهل أنت نظيف يا خليل — هل جسمك نظيف ؟ »

فَهِمَ جبران في الحال ما عنته ماري بسؤالها . فقد قصدت أن تعرف اذا كان خالياً من الأمراض الخبيثة . لكنه بلمحة طرف انقلب من حَملٍ وديع الى أسد جريح ، ومن ساروفيم يرنم أمام عرش الحب الى ملاك تكبّر على الله فطعنه الله في صميم كبريائه . فاربدّ وجهه ، وارتجفت شفتاه ، وتوترت أعصابه ، وتخدر دماغه ، وانعقل لسانه . حتى انه لشدة انفعاله ، تمنى لو كان قطع لسانه قبل أن طرح على ماري سؤاله وسمع سؤالها .

لقد ألقى جبران سؤاله على ماري ، وفي أعماق أعماقه أمنية لا يجرؤ أن يبوح بها حتى لنفسه ، وهي أن تصدر من ماري كلمة أو تبدو منها حركة يتمكن معهما من الانسحاب «بنظــام» . فيبقى طليقاً من زواجٍ يدفعه عليه عقله ويحجم عنه دمه . ويكون ، في الوقت ذاته ، قد زاد في اعتبار ماري له وتعلقها به . وصفّى حساباته معها . فتتركها مَدينةً له بدلاً من أن يكون مديناً لها . لأنهـا ، إن تكن أنفقت عليه من مالها ، فهـا هو ينفق عليها من روحه ، ويعرض أن يرهن حياته لحياتهـا وسعادته لسعادتها . غير أنه ما كان قط يتوقع منها مثل ذلك الجواب . فهو وان اتفق مع الأمنية الصامتة في قلبه ، لم يتفق مع تقديره لنفسه وتقديره لمحبة مـاري له . فقد كان يظن تلك المحبة أرفع من محبة الذات ، لا تخشى النـار ولا العار في سبيل محبوبها . وكان يظن أن جبران خليل جبران اذا ما لمّح تلميحاً الى امرأةٍ ما ، كائنة من كانت ، أنه يرضى بها رفيقة لحياته جعلها أسعد النساء . وها هو يعرض حياته عـلى ماري – «حبيبة نفسه» – فتبـاغته بسؤال لو باغتته بمثله امرأة سواها لبصق في وجهها ، أو أدمى فمهـا ، مع كل ما فيه من تأدب واحتشام . كيف تجسر امرأة – وماري من بين كل النسـاء –

أن تشك في « نظافته » ؟ إنهـــا لقحة ما بعدها قحة . إنها لطعنة نجلاء في كبد كبريائه . انها لملمة صماء .

***

انصرف جبران من عند ماري هاسكل وقلبه في ديجور ، وفكره في بركان . اذا مرّت بـــه أشباح ماضيه رآهـا ذليلة واهنة . أو تراءت له خيالات مستقبله وجدها قاتمة عابسة . أو فكّر بمـا كان بينه وبين ماري تلك الليلة شعر كأنه خاض أكبر معركة في حياته وعاد منهـا مدحوراً ، مهشماً . وكلما استعاد لذاكرته مـا قال وما سمع أكل قلبَه الندمُ على كلمة قالها وما كان من الحكمة أن يقولها . أو كلمة لم يقلهـــا وكان من الواجب أن يقولها . مـا العمل ؟ أتستخف بـه ماري الى هذا الحد ويبقى صامتاً ؟ أنجرحه مثل هذا الجرح البليغ ولا يجرحها ؟ أيقطع كل علاقـاته معها ؟ ولكن كيف يجرحهـــا إلا اذا جرح نفسه جرحاً أبلغ من الذي جرحته ؟ أم كيف يقطع علاقاته معها إلا اذا قطع علاقاته مع كل ما هو جميل في مـاضيه ، شفاف في أحلامه ، باسِم في مستقبله ؟ لقد كتب لهـا وفيهـا أشياء كثيرة لو جـاء اليوم ينقضها لكذب نفسه بنفسه وجعل من قلبه سخرية لدماغه . أوَلم يخاطبها في مقاله « الطفل يسوع والحب الطفل » هكذا :

« ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بـل في لمحة واحدة تتنحى عن سني حياتي ، لأنهـــا أجمل من سني حياتي ، هبط الروح من وسط دائرة النور الأعلى ، ونظر إليّ من وراء عينيكِ ، وتكلم معي بلسانكِ . ومن تلك النظرة وهـاتيك الكلمة انبثق الحب وحـل في أعشار قلبي ...

هذا الحب العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري ... هذا الرضيع المتكىء على صدر النفس قد جعل الأحزان في باطني مسرّة ، واليأس مجداً ، والوحدة نعيماً . هذا الملك المتعالي فوق عرش الذات المغلوبة قد أعاد بصوته الحياة لأيامي الميتة ، وأرجع بملامسه النور الى أجفاني المقرحة بالدموع ، وانتشل بيمينه آمالي من لجة القنوط . »

فكيف يمحو اليوم ما كتبه الأمس ؟ أيقضي على حب ماري مثلما قضى على حب ميشلين ويعود الى وحدته ، ويأسه ووحشته ؟ بل الأفضل أن يكتب اليها رسالة ضافية فيها صلابة وترفع وتفجع . لا بل الأفضل أن يعتصم بالصمت فلا يكتب ولا يتكلم . وبعد نزاع عنيف تغلّب الصمت على الكلام .

بعد أيام كان جبران — وقد التأم جرحه ، وثاب اليه رشده — يفكّر في توافه المعيشة التي تتضخم في بعض الأحوال وتنتفخ الى حد أن البصر ، كيفما دار ، لا يرى إلاّها . والبصيرة ، أنى تغلغلت ، لا تلمح سواها . فتصبح وكأنها من الحياة لبها . وكل ما تعدّاها قشور . من تلك التوافه اختلاق عذر لصاحب البيت اذا جاءك في مطلع الشهر يطلب أجرة بيته وليس في جيبك فلس يحتكّ بفلس . وفيما هو كذلك اذا بموزع البريد يدعوه فيناوله رسالة . واذا بالرسالة من ماري وفيها حوالة بخمسة وسبعين دولاراً . واذا بماري تخاطبه بلهجتها المعتادة ، وبمحبتها السابقة ، كأن لم يحدث بينهما شيءٌ جديدٌ على الاطلاق .

ما أتى جبران على آخر الرسالة حتى فاضت عواطفه من عينيه وانجلت آفاق فكره . فراح يمجد الحياة ويعجب لمجاريها الخفية ، وللناس الذين لا

يعرفون عن تلك المجاري شيئاً ، ومع ذلك لا يفتأون يحددون ويختطون مجاري لحياتهم ، ويشقون عندما تعبث الحياة الكبرى بحدودهم وخططهم وبجرهم في مجراها الأوسع . ألم يرسم هو لنفسه خطة منظمة للزواج ؟ لقد كان بامكان ماري أن تقول « نعم » . أو أن تبدي له ما يخامرها من الخوف بطريقة لطيفة لا تجرحه . وإذ ذاك لاتخذت حياته مجرى جديداً . ولكان عما قريب مربوطاً بامرأة واحدة حتى آخر حياته . لكن ماري ، بسؤال بسيط ، حوّلت مجرى حياتها وحياته . وماري لم تكن مخيرة في ذلك بل مسيرة . فقد أُلهِمَتْ أن تقول ما قالت ، وقد أُلهِمَ أن يفعل ما فعل . فكان ما كان لخير الاثنين .

***

بعد عام لعودته من باريس ودّع جبران بوسطن قاصداً نيويورك . وكان يحمل في أذنيه انتحاب ماريانا ، وفي عينيه دموعها ، وفي قلبه محبة ماري وبركاتها ، وفي جيبه قسماً من مالها . وفي حقيبته نسخة مخطوطة من روايته « الأجنحة المتكسرة » ونسخة مطبوعة من كتاب نيتشه « هكذا تكلم زرادشت » .

٢

الفسق

تمخضت الفأرة فولدت جبلاً

في سنة ١٦٢٦ لميلاد القائل « مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا » جلس الفلس على عرشه ونادى بأعوانه ثم خطب فيهم هكذا :

« منذ سلمني الناس مقاليدهم وأنا أدأب النهار والليل في سبيل إسعادهم ، وأجترح العجيبة بعد العجيبة لأنقذهم من بؤسهم وشقائهم .

« سمعتهم يشكون تبلبل ألسنتهم . فابتدعت لهم لساناً واحداً . وذلك اللسان أنا . أنا هو الحرف والمقطع والكلمة . وحيثما اجتمع اثنان باسمي تفاهما في الحال وان يكن الواحد لا يفقه حرفاً من لغة الآخر . تلك هي العجيبة الأولى .

« ورأيتهم تتناتشهم أرباب كثيرة . فخلقت لهم رباً واحداً . وذلك الرب أنا . أنا هو الوزن والميزان ، والدين والديان . وأنا يعبدني الناس بكل قلوبهم وكل أفكارهم وكل نياتهم . أما أربابهم الآخرون فيعبدونهم بشفاههم لا غير . تلك هي العجيبة الثانية .

« ووجدتهم يسلكون الى السعادة شتى المسالك . ويطرقون شتى الأبواب . فهديتهم الى مسلك واحد هو أنا . والى باب واحد هو أنا . أنا هو المدخل والمخرج . وأنا الدليل والمحجة . تلك هي العجيبة الثالثة .

« وساكنت الناس وآكلتهم وشاربتهم فوجدت سلطانهم لا يساكن راعي أغنامهم . وابن أميرتهم لا يؤاكل ابن جاريتهم . وقسّهم لا يشارب زانيتهم .

وسمعتهم يتبرمون من ذلك ويطلبون المساواة . فوضعت على أعناقهم نيراً واحداً . وذلك النير أنا . أنا هو النير والمحراث والحارث . تحت نيري يمشي السلطان بجانب الراعي ، وابن الأميرة بجانب ابن الجارية ، والقس بجانب الزانية . تلك هي العجيبة الرابعة .

« ودخلت قلوب الناس فألفيتها مرصوفة بالشهوات ولا رصف الحَب في الرمانة . وألفيت الناس قد قسموا شهواتهم الى صالحة وطالحة . فأطلقوا الحرية للأولى وأقاموا على الثانية الحراس والحجاب . وظلت قلوبهم تصرخ إليَّ باسم الحرية . إذ ذاك جعلت لكل شهوة ثمناً . وجعلت ثمن الشهوة الطالحة أضعاف ثمن الصالحة . فاختلط حابل الناس بنابلهم . وهكذا حررت قلوبهم من قلوبهم . وتلك هي العجيبة الخامسة .

« ومشيت في الأرض فوجدت أن الناس قد تقاسموها بالفتر والقيراط . وأقاموا لقسماتهم حدوداً . وأقاموا السيف حارساً لحدودهم فلا يتعدى جارٌ حدود جاره . ولا تعبر جنود مملكةٍ تخومَ أخرى إلا بقصد الغزو . فأقمت للناس عبّارة تصل الحدود بالحدود وتهزأ بالسيوف والجنود . وتلك العبّارة أنا . أنا هو العابر والعبّارة . أمرُّ حيث السيف لا يجسر أن يلمع . وأعبر حيث الجيوش ترتد من وجه المدفع . تلك هي العجيبة السادسة .

« أما العجيبة العجيبة فهي أني قد مزجت الناس في بوتقة واحدة . فجعلتهم جنساً واحداً وكانوا أجناساً . وأمة واحدة وكانوا أمماً . بل قد جعلتهم لحماً واحداً وعظماً واحداً ودماً واحداً . لأني جعلت طعامهم واحداً وشرابهم واحداً وكذاك كساءهم ومأواهم .

« أنا هو الطعام والشراب والكساء والمأوى . ومثلما يشرب الناس قطرة

من الماء جاهلين أنهم بشربها يشربون كل أصناف التراب والمعادن والنبات والحيوان والأقذار التي مرّت بها ، كذلك يقبضون الفلس ويبتاعون به طعاماً وشراباً وكساءً ومأوى وهم لا يعلمون ماذا يأكلون ويشربون ويلبسون والى أين يأوون . إليكم هذا المثل :

« في الليلة البارحة باعت امرأةٌ أشواق قلبها التائه واهتزازات دمها المحموم بكمية من الفلوس . والمرأة تلك تدعى في قاموس الناس بغيّاً ، وفي شرعهم آفة ، وفي ناموس شرفهم قاذورة يتجنبها الشرفاء والأتقياء . وفي هذا الصباح انطلقت المرأة الى الكنيسة فابتاعت ببعض فلوسها بخوراً للكنيسة وقدّمت البعض تزكية الى الكاهن . أما البخور فأحرقه الكاهن تسبيحاً لربه . وأما التزكية فابتاع بها لحم ضأنٍ وأكل منه وأطعم عياله . أوَتحسبون أن ذلك الكاهن ، عندما أحرق البخور لربه ، أحرق نزيز جرح في قلب شجرة عطرة ؟ الحق أقول لكم انه لم يحرق لربه سوى نزيز جرح في قلب بغيّ . أم تظنون أنه أكل وعياله لحم ضأنٍ ؟ الحق أقول لكم انه لم يأكل وعياله سوى لحم بغيّ ولم يشرب سوى دم بغيّ . وأي الأمرين أصعب : أن يؤاكل الكاهن البغيّ ويشاربها أم أن يأكلها ويشربها فيصبح الاثنان لحماً واحداً ودماً واحداً ؟

« إليكم مثلاً آخر :

« أمس دخل لص على أرملة عجوز وكان قد سمع أنها تحمل في عنقها كيساً من الفلوس . فأرداها بطعنة مدية وانتشل الكيس من عنقها مغموساً بدمها . وراح ليلته فقامر بالمال وخسره . والذي ربحه منه ابتاع به ثوباً من عند تاجر . والتاجر دفعه ضريبة للخزينة . والخزينة دفعته

راتباً للقاضي . والقاضي حكم على اللص بالشنق . أوَتحسبون القاضي أكثر براءة من اللص ؟ الحق أقول لكم انه لص مثله . اللص أراق دماً بريئاً ، أما القاضي فشربه .

« أجل . لقد مزجتُ النـاس في بوتقة واحدة فجعلتهم إنساناً واحداً من حيث لا يدرون . وقـد اجترحت في سبيل إسعادهم سبع عجائب كبار ما عدا الصغار . وهم ، مع ذلك ، ما يزالون بؤساء أشقياء وأصواتهم ما تزال تصرخ اليّ – أعطِنا السعادة . أعطِنا السعادة ! فها أنا عازم أن آتيهم بعجيبة جديدة .

« لقد بنيت لهم في سالف الأحقاب مدناً كثيرة . أما الآن فبخاطري أن أبني لهم مدينة تفوق كل ما بنيت . وسأعطي هذه المدينة آذاناً تسمع بها كل لغات الناس . وعيوناً تبصر بها كل أشكالهم وأجناسهم . وسأجعل أحشاءها أوسع من أحشاء الجو . تسوق لها اليابسة خير خيراتها فلا تشبع . وتحمل اليها البحار أنفس أنفاسها فلا ترتوي . وسيكون فيها لكل شهوة مأوى . ولكل فكر مجال . ولكل خيال مسرح . فيمشي فيها إله الناس وشيطانهم جنباً الى جنب . وتنبت أغراس فردوسهم في مجامر جحيمهم . ويجـاور المعبدُ الخمارة وبيت الدعارة . ويتعانق المتحف والمقصف . وتتكىء المدرسة والسجن على بساط واحد .

« وسأحقن سكان المدينة بمصل جديد . هو مصل الحركة الدائمة . فيصلون النهار بالليل ولا يهدأون . وهكذا يكون لهم في كل ساعة ما يتلهون بـه عن التفكير في بواعث الحزن والألم . وسيكونون لي أطوع من بناني وألصق بي من ظلي . يكفرون بأربابهم أمـا بي فلا يكفرون . ويهربون

من أرواحهم أمـا مني فلا يهربون . بل إليّ في كل أمر يفزعون . اذا حمّلتهم من نفسي فوق طاقتهم لا يقولون : خفف من أحمالنـا . بل يقولون : زدنا من أحمـالك . وسيضيق بهم سطح الأرض فيتخذون في جوفها أنفاقاً . ويشيدون في الجو حصوناً عالية وأبراجاً شامخة . وسأجعل أذنابهم طعاماً لرؤوسهم . ورؤوسهم طعاماً لأذنابهم . فيأكل بعضهم بعضاً من حيث لا يعلمون .

« ها أنا قد بحت لكم بما في خاطري . وعليكم أن تخلقوه . وقد اخترت للمدينة العتيدة جزيرة في العالم الجديد واقعة بين مصب نهرين . واسمها مانهاتان . وهي اليـوم ملك عشيرة من العشائر الحمر . فبادروا اليها في الحال وباشروا العمل ، وليقسم كل منكم يمين الطاعة قبل أن يبرح هذا المكان وأنا معكم حتى نهاية الأزمان . »

ما ختم الفلس خطابه حتى قام من بين الحضور كائن مجنّح في عنقه غل من الذهب ، وعلى عينيه برقع من الذهب . ومشى بكبرياء نحو العرش . ومشى خلفه أبناؤه العشرون — توأمين فتوأمين . وفي عنق كل منهم غل من ذهب ، وعلى عينيه برقـع من ذهب . واذ مثلوا أمام العرش خرّوا ساجدين ، وعفروا جباههم قائلين :

« نقسم بوجه الفلس وقفاه أننا سنطيعه في كل ما يأمره وينهاه . »

فقال الجالس على العرش :

« أيها الخيال ! لقد أحسنت النطق والنية . لكن في مدينتي العتيدة لكل فنّ من فنونك أثر . »

ثم تقدم شيخ جللته هيبة أجيال كثيرة ، ويداه في أصفاد من الفضة ، وعلى عينيه قناع من الفضة . وتقدم وراءه أولاده الخمسون – توأمين فتوأمين . ويدا كل منهم في أصفاد من فضة ، وعلى عينيه قناع من فضة . ففعلوا وقالوا ما فعله الخيال وأولاده . فقال الجالس على العرش :

« أيها الفكر ! لقد أحسنت النطق والنية . لكن في مدينتي العتيدة لكل فتح من فتوحك خبر . »

ثم نهض كهل على عينيه نظارتان كبيرتان ، ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس ، وحبا نحو العرش على عكازتين . وحبا وراءه على عكازاتهم أولاده الثمانية والتسعون – توأمين فتوأمين . وعلى عيني كل منهم نظارتان كبيرتان ، ورجلاه مكبلتان بسلسلة من نحاس . ففعلوا وقالوا ما فعله من سبقهم . فقال الجالس على العرش :

« أيها العقل ! لقد أحسنت النطق والنية . لكن على كل باب من أبواب مدينتي العتيدة نظارتان كالتي على عينيك وعيون أولادك . »

وأخيراً تقدمت كتلة من اللحم قد نشبت فيها مسلات كثيرة فبانت كأنها القنفذ ، وقالت ما قاله الذين سبقوها . فأجابها الجالس على العرش :

« أيها القلب ! لقد أحسنت النطق والنية . قرّ عيناً وانعم بالاً . ففي مدينتي العتيدة ستجد منفذاً لكل مسلة من مسلاّتك . »

وعندها التفت الفلس الى الوزير الجالس عن يمينه واسمه « الطمع » والوزير الجالس عن يساره واسمه « المكر » وقال لهما :

« اليوم يومكما . انطلقا الى العالم الجديد حيث القبيلة الحمراء التي تملك الجزيرة المدعوة مانهاتان وابتاعاها منها بأبخس ما يمكنكما . »

وكاد الفلس يحل مجلسه عندما انتصبت فجأة أمامه فتاة عريانة تقلّب في يديها كرة كبيرة من النور الصافي المتبلور . ففرك الفلس عينيه وقد أدهشته الفتاة وبهره جمال الكرة في يديها . وقال متلعثماً من شدة دهشته :

« من أين جئتِ أيتها الفتاة ؟ »

« كنت هنا من قبل أن تكونوا . »

« هذا مستحيل . ومن تكونين ؟ »

« أنا الحياة . »

« وهذا مستحيل والحياة في قبضتي . وماذا تبغين ؟ »

« سمعتكم تطلبون السعادة فجئت أهديكم اليها . »

« وهذا أبعد من المستحيل . فليس يَعرف بيت السعادة والسبيل اليه إلا أنا . أنا هو السبيل والهادي . أنا هو المدخل والمخرج . وما تلك التي في يدك ؟ »

« السعادة . »

« وهذا مستحيل المستحيل . فالسعادة في مدينتي العتيدة التي أباشر اليوم بناءها . أم أنتِ تمزحين ؟ »

« بل أنا في جدّ . »

« ان في جدك لمزحاً يستفز ضحكي . لكن الكرة التي تقلبينها في يديكِ جميلة . فهل تبيعينها ؟ »

« السعادة لا تُباع ولا تُشرى . »

« هذا ضرب من الجنون . إذ ليس في مملكتي ما ليس يباع ويشرى . واذا سلّمنا بجنونكِ وقلنا إن السعادة لا تباع ولا تشرى ، فكيف لمن يطلبها أن يحصل عليها ؟ »

« مَن قبلني كما أنا نال الجوهرة التي في يدي . مجاناً آخذ ومجاناً أعطي . »

« يا لكِ من داهية ! أفلا تفضلتِ إذن وعلمتنا كيف نقبلك لننال السعادة من يدكِ ؟ »

« انزل عن عرشك وانزع نيرك عن أعناق الناس ودعهم يعطون مجاناً ما يأخذونه مجاناً . »

« يا لكِ من عاهرة وقحة ، لا تخجلين حتى من أن تقفي أمامي ولا كساء عليكِ غير جلدكِ . استروا عورة هذه العاهر . واسكبوا في فمها رصاصاً . وشدوا رجليها بالحديد . واطرحوها في الدركة السابعة من دركات الجحيم وأتوني بالجوهرة من يديها الأثيمتين . »

فبادر الحراس الى الفتاة وانتزعوا الجوهرة من يدها وقدموها الى الجالس على العرش . وما كادوا يسترون الفتاة برداءٍ من أرديتهم حتى التفت الفلس الى الجوهرة في يده واذا بها حجر أسود . والى الفتاة فاذا بها حية رقطاء . فصاح مقهقهاً :

« انها لمشعوذة كبيرة . اسحقوا رأسها ثم دعوني منها . وانصرفوا كلٌّ الى عمله . وإياكم أن تؤجلوا الى الغد ما يمكنكم فعله اليوم . انطلقوا بسلام . »

وكان كما أمر الفلس . فابتاع أعوانه جزيرة مانهـــاتان بثمن يوازي الأربعة والعشرين دولاراً . وراحوا يبنون نيويورك – مدينتهم العتيدة . وما يزالون حتى الساعة يحفرون ويؤسسون . ويهدمون ويشيدون . وبين أنقاض ما يهدمون وجدران ما يشيدون ملايين من الناس يأتون ويروحون وهم عن السعادة يفتشون .

في خريف سنة ١٩١٢ لميلاد القائل «ملكوت الله في قلوبكم» انزج بين تلك الملايين جبران خليل جبران .

حفار القبور

« قرية غرينتش » — Greenwich Village — حيّ قديم من أحياء نيويورك السفلى استأثر به الفنانون من كل نوع فجعلوه شبه صورة مصغرة لمونمارتر في باريس . هناك تجد الشاعر الملهم والشعرور . والموسيقي الذي تقطر أصابعه ألحاناً والمتموسق الذي لو عصرته لما نزّ منه نوطة واحدة جميلة . والراقصة التي في روحها وجسمها ألسنة من نار ، والخشبة التي تريد أن تقلد الخيزرانة . والمصور الذي يعرف أسرار الظلال والأنوار والخطوط والألوان ، والقرد البشري الذي يلذّ له اللعب بالأدهان .

لكنهم — الموهوبين منهم والمحرومين — تجمعهم خلة واحدة . فهم يرون أنفسهم من طينة أنقى وأرفع من بقية الناس . لأنهم — في اعتقادهم — يخدمون الروح . أما سواهم فيخدم المادة . هم يعبدون الجمال . أما سواهم فيعبد الفلس . حتى انهم ليبتدعون لهم أزياء من اللباس تختلف ولو قليلاً عن أزياء الناس . ويأتون في الجهر أعمالاً لا يأتيها سواهم إلاّ في السر . وكثيراً ما يباهون بمظاهر الفقر وقلة اكترائهم للفلس وعباده . غير أنهم لا يبسم لهم الفلس ولو نصف بسمة حتى تقهقه له قلوبهم وعيونهم وترتقص أكبادهم وأمعاؤهم . واذا ما أتيح لأحدهم أن يجلس الى مائدة غني من الأغنياء ظلّ يحدّث رفاقه عن ذلك أياماً . وعندما يبتاع الفلس شيئاً من نتاج « أرواحهم » تغتبط أرواحهم بالفلس وتسجد له وتمجده .

في ضواحي تلك « القرية » ، في بناية قديمة من الآجر الأحمر ، تحت رقم ٥١ من الشارع العاشر غرباً ، اتخذ جبران له محترفاً صغيراً جعله كذلك مسكناً . وفي تلك الفسحة الصغيرة من مدينة الفلس الكبيرة راح يرسم الخطط ويعد العدد لاستثمار ما في كيانه من معادن دفينة . وكان نيتشه دليله الأول ، ومساعده الأكبر ، ومؤنس وحدته الأعظم . ما رافقه في جولة من جولاته الزرادشتية إلا هتف من أعماق وجدانه :

« أي رجل هذا الرجل ! نازل العالم وحده باسم مثل الانسان الأعلى — السُوبِرْمَانْ . ولم يخرج من المعركة حتى أخرجه العالم من عقله . لكنه مات سوبرماناً بين أقزام . ومجنوناً حكيماً بين عقلاء مجانين . هكذا فلتكن الرجال . وهكذا فليجن المجانين ! — وأي خيال خياله ! بوثبة واحدة ينفذ الى جوهر الحياة وبوثبة يجردها من كل أغشية الخير والشر التي حاكها لها ضعف الناس . فيحرق هذه الأغشية ويذري رمادها في أعين الذين حاكوها . هكذا فلتكن الخيال ! — وأي قلم قلمه ! بشطحة يخلق عالماً جديداً وبشطحة يمحو عوالم قديمة . وهو في كل ما يخلق ويمحو يقطر جمالاً وعزماً وسحراً . هكذا فلتكن الأقلام ! — وأية ارادة ارادته ! أصلب من الصوان وأمضى من الفولاذ . هي التي ابتدعت السوبرمان وهي التي اختطت السبيل اليه . وهي تقول : لا إله إلا أنا . أنا الخالق والخليقة . وأنا القضاء والقدر . أنا المحجة والسبيل الى المحجة . وأنا سأمضي بالانسان الى أبعد من الانسان . وسأرفعه فوق خيره وشره . وسأحرره من كل دين ودينونة ، وفضيلة ورذيلة ، وكل ما يعانده في سيره الى ذاته الكبرى . ولأجل ذلك أحطم مقاييس الناس وموازينهم . فكلها أغلال في عنق

إرادته . وأعطيهم ما هو فوق المقاييس والموازين – أعطيهم السوبرمان . من كانت له مثل هذه الارادة فليمشِ في الأرض غير حاسب حساباً لأمر أو لإنسان إلا لنفسه . وليتنحَّ كل ضعيف من طريقه . أو فليكن له درجة في المرقاة التي يصعد بها الى ذاته . وان لم يكن بدّ من انقراض الانسانية بأسرها ليولد سوبرمان واحد ، ألا فلتنقرض الانسانية . هكذا فلتكن الارادة ! »

كلما فكَّر جبران بنيتشه تخيله كالأرض يضيق صدرها بما فيه من نيران فتفرّج عنه ببركان . ويا لزرادشت من بركان هائج يقذف البركات مع اللعنات ، والنّقم مع النّعم ! بل يا لجبال نيتشه يتغلغل في تجاعيد الماضي السحيق حيث يعثر على زرادشت . فينفض عنه غبار ثمانين أو تسعين قرناً[1] ويتخذه بوقاً له وبشيراً ونذيراً . لأنه يربأ بأسراره أن يبوح بها لسان غير لسان الوحي ، وبأثماره أن تحملها الى الناس يدان غير يدي انسان اصطفاه الحق وجلله الجمال وجعله ميراثاً لكل زمان ومكان .

ها هو – زرادشت نيتشه – في الثلاثين من عمره ، يترك بيته وبحيرته المحبوبة ويصعد الى الجبال حيث ينقطع عن العالم . وبعد عزلة عشر سنوات ينحدر الى الناس ليكشف لهم أسرار قلبه المفعم بالأسرار . ويخاطب الشمس فيقول لها في ما يقوله :

---

١ من المسلم به عند أكثر المؤرخين أن زرادشت رجل تاريخي وانه مؤسس الديانة المجوسية . لكن الزمان الذي عاش فيه لا يزال مجهولا . وفي رواية يونانية أنه عاش قبل حرب طروادة بستة آلاف سنة .

« ألا لقد تعبتُ من حكمتي حتى السآمة . فأنا كالنحلة المثقلة بكثير ما جنته من العسل . وأنا بحاجة الى أيدٍ ممدودة لتأخذه مني[1] . »

ثم يلتقي شيخاً ناسكاً . فيعرفه الشيخ ويسأله عن غايته من الرجوع الى العالم — « عالم النيام » . فيجيبه بأنه يحب الناس وأنه يحمل اليهم هدايا ثمينة . فيحاول الشيخ أن يرده عن عزمه قائلاً ان الناس لا يقدرون هدايا المتنسكين ، لذلك قد انصرف هو عن حبهم الى حب الله . لكن زرادشت لا ينثني . وبعد أن يودّع الشيخ يتعجب في نفسه قائلاً : « أمِنَ الممكن أن هذا القديس المتوحد في الغاب لم يسمع حتى الآن بأن الله قد مات ؟ »

وعندما يدرك أول مدينة في طريقه يجد في ساحتها جمهوراً من الناس قد تجمعوا ليتفرجوا على بهلوان سيرقص على حبل ، فيخطب فيهم هكذا :

« اني أعلمكم السوبرمان . الانسان يجب أن يفوق الانسان . ماذا فعلتم لتفوقوا الانسان ؟ »

« ما هو القرد في عين الانسان ؟ انه لمخزاة ومسخرة . كذلك سيكون الانسان في عين السوبرمان — مخزاة ومسخرة . »

« لقد تدرجتم من الدودة الى الانسان . غير أن الكثير فيكم ما يزال دودة . لقد كنتم قروداً ، وحتى الآن ما يزال الانسان قرداً أكثر من أي

---

[1] بعد سنين كتب جبران مقالا عربياً في هذا المعنى تحت عنوان « نفسي مثقلة بأثمارها » ومطلعه : « نفسي مثقلة بأثمارها فهل من جائع يجني ويأكل ويشبع ؟ »

قرد كان[1] . »

« حلفتكم يا اخوتي أن تبقوا مخلصين للأرض ، وأن لا تصدقوا الذين يكلمونكم عن آمال فوق الأرض . انهم ينفثون فيكم سماً ، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا . »

« أولئك يحتقرون الحياة ، وهم أنفسهم جِيَف مسممة تعبت منها الأرض ، فانبذوهم ! »

« لقد كان التجديف على الله أكبر تجديف . لكن الله قد مات ومعه مات المجدفون عليه . أما الآن فالخطيئة الفظعى هي التجديف على الأرض ... »

غير أن الجماهير كانت تشتاق رؤية البهلوان أكثر من سماع زرادشت. فقابلت عظته بالضحك . وما بدأ البهلوان رقصته حتى تعلقت به أعين الحاضرين ناسية زرادشت وسوبرمانه . وعندما سقط البهلوان عن الحبل فتحطم تفرقوا كل في سبيله وتركوه في حالة النزع . فتقدم زرادشت وحمله على ظهره وسار به في الليل الى أن بلغ غابة وهناك دفنه في جوف

---

[1] لجبران مقال بعنوان « أبناء الآلهة وأحفاد القرود » يقول في آخره : « ... ما هي ارادتكم يا أبناء القرود ؟ هل سرتم خطوة واحدة الى الأمام منذ انبثقتم من شقوق الأرض ؟ .. منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بلور نافذتي فوجدتكم تسيرون في الأزقة القذرة وأبالسة الخمول تقودكم وقيود العبودية تمسك بأقدامكم وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم كما كنتم بالأمس ، وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتكم في البدء . كنا بالأمس فأصبحنا اليوم . وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة . فما هي سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟ »

شجرة ونام بجانبه « ليحرسه من الذئاب » . هكذا دفن زرادشت العالم – عالم الترهات والسفاسف . وعندما أفاق في الصبح أحس كأن نوراً جديداً أشرق في قلبه . وذاك النور هو أنه لن يخاطب فيما بعد الجماهير والأموات بل يتخذ له صحابة من المختارين . الحصاد قد نضج ، وهو بحاجة الى حصادين :

« رفاقاً أطلب – رفاقاً أحياء لا أمواتاً ولا جثثاً أحملها حيث أشاء . »

« زرادشت المبدع يفتش عن رفاق يعرفون كيف يشحذون مناجلهم . هؤلاء سيدعون هدّامين وسيسخرون بالخير والشر . لكنهم هم الحصادون والمتهللون . »

« المبدعين والحصادين والمتهللين وحدهم أعاشر . ولهم أكشف قوس الغمام . وإياهم أقود الى السلالم المؤدية الى السوبرمان . »

« للمتوحدين أنشد نشيدي ... والذي ما تزال له أذنان لسمع ما لم يُسمع سأثقل قلبه بسعادتي . »

هكذا راح زرادشت يكرز بالسوبرمان . وفي كل نبرة من نبراته منجنيق يهدم ويدٌ تشيد . اذا تكلم حتى في أبسط الأمور جعلها ذات قيمة وخالف الناس في ما يقولون ويعتقدون . مثال ذلك موعظة في « القراءة والكتابة » :

« من كل ما يُكتب لست أحب الاّ ما يكتبه انسان بدمه . اكتب بالدم تجد أن الدم هو الروح . »

« ليس من السهل أن تفهم دماً غريباً . وأنا أكره البطالين الذين يقرأون بقصد التسلية . »

« سماح الناس لكل من شاء منهم أن يتعلم القراءة سيقتل على التمادي ليس فن الكتابة فحسب ، بل وفن التفكير . »

« من قبل كان الروح إلهاً ، ثم صار انساناً . أما اليوم فقد أصبح سوقة . »

« إن من يكتب بالدم والأمثال لا يريد أن يُقرأ . بل أن يُحفظ على ظهر القلب . »

« أقرب الطرق في الجبال هي من القمة الى القمة . لكنّ من شاء أن يسلك تلك الطريق عليه أن يكون ذا ساقين طويلتين . الأمثال يجب أن تكون قمماً . والذين تقال لهم يجب أن يكونوا من العمالقة[1] . »

وفي موعظته عن « الفضيلة التي تمسخ الناس أقزاماً » يتهكم زرادشت تهكماً لذاعاً على كل أوضاع الناس ومقاييسهم ودياناتهم . فقد عاد اليهم بعد غيبة في « الجزائر السعيدة » فوجدهم أصغر مما كانوا لشدة تعلقهم « بعقيدة السعادة والفضيلة . »

« أمُرُّ في وسط هذا الشعب فأنثر الكثير من الكلام . لكنهم لا يعرفون كيف يأخذون ولا كيف يحتفظون بما يأخذون ... »

---

١ لجبران مقال عربي بعنوان « الجبابرة » كتبه نحو سنة ١٩١٧ ومستهله : « ليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب. » أما ميله الى الأمثال فظاهر في كتابيه « المجنون » و « السابق » وفي كتاب « التائه » الذي ظهر بعد موته .

« وعندما أصيح فيهم : « ألا العنوا كل ما فيكم من الأبالسة الجبناء الذين يستطيبون الهمهمة ويضمون أيديهم على صدورهم للعبادة . » — يصرخون : « زرادشت لا إله له . »

« وأشدهم صراخاً أولئك الذين يعلمونهم الاستسلام . من أجل ذلك يطيب لي أن أصرخ في آذان هؤلاء : أجل ! أنا هو زرادشت الذي لا إله له . »

« يا للذين يعلّمون الناس الاستسلام ! — حيثما عثروا على شيء هزيل سقيم ، جرب ، هناك زحفوا كالقمل وليس يردّني عن سحقهم إلا تقززي منهم . »

« ها هي الموعظة التي أعددتها لآذانهم : أنا هو زرادشت الذي لا إله له . وأنا هو القائل : « من ذا أكثر كفراً مني لأنعم بتعاليمه ؟ »

« أنا زرادشت الذي لا إله له . فأين قريني ؟ وليس يقارنني إلا الذين استردوا إرادتهم فتجردوا من الاستسلام . »

« أنا زرادشت الذي لا إله له ! وأنا أطبخ في قِدْري كل قَدَر . ولا أقبله طعاماً لي إلا من بعد أن ينضج كل النضوج . »

« أنا سابق نفسي[1] بين هذا الشعب ... لكنّ ساعتهم ستأتي ... »

***

ما عرف جبران نيتشه حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتّاب والشعراء . وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به كان يلذ له

---

١ هذه العبارة يفتتح بها جبران كتابه «السابق» مع استبدال ضمير المخاطب بضمير المتكلم .

في البدء أن يحدّث غيره عنه وأن يهدي أصحابه ومعارفه اليه . فما أن تعرّف على أثر نزوله نيويورك الى فتاة أميركية اسمها أديل واطسن ، آنس فيها ميلاً الى التصوير وشغفاً بالفن ، حتى كتب يلح عليها أن تقرأ « هكذا تكلم زرادشت » :

« عزيزتي مس واطسن »

« بلى . نيتشه جبار وأي جبار . وكلما طالعته زاد حبكِ له . لعله بين أرواح العصر الحديث أكثرها نشاطاً وأوفرها حرّية . وستبقى كتاباته بعد أن يمضي الكثير مما نحسبه اليوم عظيماً . أرجوكِ ، أ ـ ر ـ ج ـ و ـ كِ أن تقرإي « هكذا تكلم زرادشت » حالما يتيسر لكِ ذلك . لأن هذا الكتاب في نظري من أعظم ما عرفته كل العصور .

« تعالي لعندي قريباً ودعينا نتحدث عن نيتشه .

خليل جبران »

وما استأنس جبران بزرادشت نيتشه حتى أحس بوحدة أقسى من ذي قبل تكتنفه أينما سار ، وبغربة تقصيه عن ماضيه الى حد أنه صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصوّره حتى ذلك الحين . وعندما أقبل على روايته الجديدة « الأجنحة المتكسرة » لينقحها ويقدمها للطبع كاد يعدل عن نشرها إذ خيّل اليه أنه لو عرضها على نيتشه لضحك ذلك الجبار منه ومنها ولضربه على كتفه مثلما يضرب الكبير الصغير وقال له : « يا بني ! دع الذين قلوبهم من عجين وأدمغتهم من مخاط يتلهون بمثل هذه الترهات . أما أنت فعار عليك أن يُشقيك حب امرأة . وأكثر عاراً أن يسلبك قلبك مطران دون أقل مقاومة منك . وأشد عاراً من ذاك وهذا أن

تندب حظك على مسمع من الناس وأن تُكثر من سكب الدموع أمامهم والتبرُّم من قساوتهم ، وما قساوتهم إلا ضعفك . وما دموعك إلا إرادتك المائعة . الدموع تليق بمآقي النساء . أما أنت فدعك منها . »

لكنَّ جبران كان يشعر أن روايته زاحلة عن قلبه لأنه يحدّث فيها عن حبه . ولأنه أودع سطورها أقصى ما توصل اليه خياله من قوّة التصوير بالكلام والتنغيم بالمقاطع . فضنّ بتلك الصور وهذه الأنغام أن تُدفن في مهدها . ومن ثمّ ففتوحاته العربية لمّا تبلغ بعد أقصى مداها . وروايته الجديدة ستكون فتحاً جديداً . اذ لم ينسج بعد في العربية على منوالها . فهي وإن تكن صَدَفة في نظر نيتشه ستكون جوهرة في نظر العالم العربي . لكنها ستكون خاتمة عهد التفجع والشكوى . ومن بعدها سيسترد إرادته وسيحبس دموعه ، وسيكون قلمه معولاً للهدم وزاوية للبناء — هدم القديم المسترخي وبناء الجديد القوي . وستمشي ريشته جنباً الى جنب مع قلمه .

ظهرت « الأجنحة المتكسرة » فاستقبلها العالم العربي ، الذي لا يبصر اللابس ويبصر اللباس ، استقبال حدث خطير . وقد بهرته منها حلة فضفاضة ، وشكوى دامعة ، وملامس ناعمة ، وألحان رقراقة .

اغتبط عجب جبران بهذا الاستقبال ، أما قلبه فكان يقول : « ويحي بين شعب يصفق لقشوري ، أما لبي فليس يدركه . من لي بروح واحدة تفهم أشواق روحي ، وتعرف عقباتها ، وترود العوالم التي ترودها ؟ من لي بواحد من شعبي أحدثه عن نيتشه ، وعن الفن ، فيفهم ما أنا قائل وما أنا فاعل ؟ أوّاه ! ليس ولا واحد . غريباً كنت بينهم وغريباً سأبقى . وسأموت غريباً حتى عن نفسي . »

بعد ظهور « الأجنحة المتكسرة » بقليل طلب نسيب عريضه الى جبران جمع مقالات « دمعة وابتسامة » في كتاب فأجابه جبران ببيت من أحد موشحاته :

« ذاك عهد من حياتي قد مضى   بين تشبيب وشكوى ونواح »

ثم أردف البيت بقوله : « ان الشاب الذي كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن في وادي الأحلام . فلماذا تريدون نبش قبره ؟ افعلوا ما شئتم ، ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوّة محبته للظرف والجمال . ويميل الى الهدم ميله الى البناء. فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد . »

وهذا الرجل الذي يحب العزم والقوّة محبته للظرف والجمال ، ويميل الى الهدم ميله الى البناء ، أصبح بعد أن عرف نيتشه لا يلذّ له إلا التهكم على الناس ، والعبث بأوضاعهم ، والتشفي بأوجاعهم ، والتنكيل بآلهتهم ، وحفر القبور لهم . والذي كان يخاطب البؤساء هكذا :

« لا تقنطوا . فمن مظالم هذا العالم ، من وراء المادة ، من وراء الغيوم ، من وراء الأثير ، من وراء كل شيء — قوّة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة . » أصبح يخاطبهم والرفش في يده ، واللحد أقصى ما يمنيهم به ، وأصبح لا يعرف لنفسه ربّاً غير نفسه ، ولا يبصر في الشفقة غير الضعف ، وفي الضعف غير الموت . ولا يحسب أحداً من الناس أهلاً للحياة إلا من كان على شاكلته .

افتتح جبران « عهده الجديد » بمقال « حفار القبور » . ولو أنه وضع

في آخر ذلك المقال قرار نيتشه الشهير «هكذا تكلم زرادشت» لما كان نيتشه يخجل من أن يجعله فصلاً من فصول كتابه وثورة من ثورات بركانه . فهو في كل صوره الزردشتية قلما جاء بصورة أشدّ هولاً ، وأمرّ لوناً ، وأصدق لهجة في تأدية أفكاره من التي جاء بها جبران في ذلك الشبح الهائل الذي التقاه «في وادي ظل الحياة المرصوف بالعظام والجماجم» . وما الشبح ذلك إلا جبران «المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة» يهزأ بجبران التشبيب والشكوى والنواح وينصح له أن يترك مهنة نظم الشعر ونثره لأنها لا تنفع الناس ولا تضرهم ، وأن يتخذ حفر القبور مهنة فيريح الأحياء «من جثث الأموات المكردسة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم» لأن الناس «أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا منطرحين فوق الثرى ورائحة النتن تنبعث منهم» .

يعرف الشبح من محدثه أن اسمه عبدالله ، وأنه يحب اسمه لأن والده أعطاه اياه ، فيقول له :

«ان بلية الأبناء في هبات الآباء . ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات» .

ثم يعرف الشبح أن لمحدثه امرأة وثلاثة أولاد فينصح له أن يطلق زوجته لأن الزواج «عبودية الانسان لقوة الاستمرار» وأن يعلّم أولاده حفر القبور فيعطي كل واحد منهم رفشاً ثم يتركهم وشأنهم . وان لم يكن له بد من الزواج فليقترن بصبية من بنات الجن . فمن مثل هذا الزواج يأتي «نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق الأموات الذين يختلجون أمام العاصفة ولا يسيرون معها» .

وعندما يعرف الشيح أن محدثه يؤمن بالله ويكرم أنبياءه ويحب الفضيلة وله رجاء بالآخرة يقول له ساخراً :

« هذه ألفاظ رتبتها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف ميوله وأمانيه – فتارةً يدعوها البعل ، وطوراً المشتري ، وأخرى الله . »

أما في ذاته فيقول الشيح إنه رب نفسه وإنه في كل زمان ومكان ، واسمه الإله المجنون ، وإنه ليس حكيماً لأن الحكمة « صفة من صفات البشر الضعفاء » . ثم يودع محدثه بقوله : « الى اللقاء . فأنا ذاهب الى حيث تلتئم الغيلان والجبابرة . »

ويختم جبران مقاله هكذا :

« وفي اليوم التالي طلقت امرأتي وتزوجت صبية من بنات الجن . ثم أعطيت كلَّ واحد من أولادي رفشاً ومحفراً وقلت لهم : « اذهبوا . وكلما رأيتم ميتاً واروه في التراب . »

« ومن تلك الساعة الى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات . غير أن الأموات كثيرون وأنا وحدي وليس من يسعفني ! »

وكيف لا يكون وحده من يرى أكثر الناس ، بل كلهم أمواتاً ولا يرى حياً إلا نفسه ؟ أم كيف لا يكون وحده من يلحد الناس لينصب لذاته تمثالاً فوق قبورهم ؟

لقد سكر جبران بزرادشت . وسكر أكثر من ذلك بما ناله من شهرة في العالم العربي . ورأى نفسه كالواقف على منبر ، ورأى الصحافة العربية

كالأبواق تؤدي صوتـه الى كُلّ قطر ومهجر عربي . وراح يكلم قومـه « كمن له سلطان » . فلا يستنكف من أن يدعوهم « أضراساً مسوّسة » ولا من أن يخاطبهم هكذا :

« كنت أشفق على ضعفكم يا بني أمي . والشفقة تكـثر الضعفاء وتنمي عدد المتوانين ولا تجدي الحياة شيئاً . واليـوم صرت أرى ضعفكم فترتعش نفسي اشمئزازاً وتنقبض ازدراء . »

« ماذا تطلبون مني يا بني أمي – بل ماذا تطلبون من الحيـاة والحياة لم تعد تحسبكم من أبنائها ؟ »

« أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة .

« أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .

« أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لا تعلمون . »

بل انه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بـلدة صغيرة كبشرّي في بلدٍ صغير كلبنـان . ويحسب أن من كان مثله يجب أن تكون ولادته ملتحفة بلحـاف من السرّ والسحر . وأي البـلاد أكثر سحراً وسرّاً من بلاد الهند ؟ لذلك عندما طلب اليه مرّة نسيب عريضه بعض معلومات عن حياته لينشرها في مجلة « الفنون » قال له إنـه وُلد في بومباي الهند – انما لا يهمه أن يشيع « السرّ » بين الناس . ولا بأس لو وضعه نسيب عريضه بين هلالين (وهي أكفل طريقة لشيوعه) .

وهكذا كان . فقد ظهرت تلك المعلومـات في « الفنون » وهي تقول إن جبران « وُلد سنة ١٨٨٣ في بشرّي من أعمال لبنان (ويقـال بل في

بومباي الهند) » الخ . وقد نقل هذه المعلومات بحذافيرهـا ناشر « البدائع والطرائف » في مطلع الكتاب . وجـاء فيهـا ، علاوة على ذلك : « ان جبران حـاز شهادة الامتياز في كلية الفنون الافرنسية ... وسُمي عضواً في جمعية الفنون الافرنسية . ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الانكليزية . » والمرجح أن جبران لم ينـل شيئاً من كل ذلك بـل كان يشتهي لو ينـاله . لأن هذا النـاقم عـلى النـاس ، والمتقزّز من صغارتهم واستعبادهم لتقاليدهم ، كان أشدهم تعلقاً بتلك التقاليد ، اللهمّ اذا ناله منهـا مجدٌ وفخرٌ وعظمة . وما نقم عـلى الناس إلا لأنهم لم يمجدوه عـلى قدر ما كان يحسب نفسه أهلاً لتمجيدهم . وما فاضت مرارته على ترّهاتهم إلا لأنهم لم يُترعوا قلبه بحلاوة ترّهاتهم . فما أبعد الفرق بين مرارته ومرارة نيتشه !

وقد يجمع الله الشتيتين

من الرفاق الذين جمعتني بهم دار المعلمين الروسية في الناصرة نسيب عريضه وعبد المسيح حداد . وكلاهما من حمص . رافقت الأول ثلاث سنوات متوالية والثاني سنة واحدة . ثم سافرت الى روسيا في سنة ١٩٠٦ ولم أعد أعرف عنهما شيئاً سوى أنهما هجرا الى الولايات المتحدة واستوطنا نيويورك .

وفي أواخر سنة ١٩١١ كانت نيويورك مدخلي الى العالم الجديد . مكثت فيها يومين بطريقي الى ولاية واشنطن على شواطىء الباسيفيكي . وقد يكون أني مررت بعريضه والحداد فلم أعرفهما ولم يعرفاني . وقد يكون أن كتفي لامست كتف جبران خليل جبران بين الجماهير في الشوارع فلا أبه لي ولا أبهت له . إذ أنني لم أكن قد سمعت حتى باسمه ولا كان هو يعرف أن على سطح الأرض بشرياً يدعى ميخائيل نعيمه .

وفي خريف سنة ١٩١٢ دخلت جامعة واشنطن وانصرفت الى دروسي وبيني وبين العالم العربي قارّات وغمار . وبيني وبين آدابه وأدبائه سدود أقامها نفوري من جمود أبناء العربية في ذلك الزمان ، وتعلقهم بقشور الأدب دون لبابه ، وتهافتهم على الأصداف اللغوية ، وتسابقهم في تقليد القدماء ، وتعاميهم عن العوالم الشاسعة المنطوية فيهم .

وذات يوم من أيام تلك السنة وقــع في يدي « مصادفة » عــدد من أعــداد جريدة عربيــة نيويوركية وفيه مقــال طويــل عن « الأجنحــة المتكسرة » . والمقال ، مثــل كل نقدنا في تلك الأيام ، لا يقول شيئاً عن الكتاب وكاتبــه بــل يحــاول أن يكون « تقريظاً » لو صدّقته لقلت إن جبران خليل جبران هو فلتة كل الزمــان . لكنني لم أصدقه لأن كل كلمة منه تكذب التي قبلها لشدة ما فيه من الغلوّ في الاطراء الفارغ . فطرحته من يدي وقلت إن أصحابنا مــا يزالون يضربون بذات المطرقة عــلى ذات السندان . ما لي ولهم ؟

وبعد شهور جاءني البريد « بمصادفة » ثانية في شكل كتاب مــا مزقت عنه غلافه الخــارجي حتى وجدتــه عدداً من مجلة عربية جديدة تصدر في نيويورك . وما ألقيت عليه نظرة سطحية حتى كدت أكذب عيني : يلامسك الذوق السليم في جمال حلته البسيطة ، وفي جودة ورقه ، وحسن حروفه ، ونظافة طبعه ، وتنسيق مواده وتشكيلها . وقد انطوى عــلى صور فنية وشعر لا أثر فيه لعقيم الغزل والرثاء وكاذب المديح ، ونثر لا يقتلك ببلادته وبلادة موضوعاته ، ومنتخبــات مترجمة لعدد من أعلام كتّاب الفرنجة . واسم المجلة « الفنون » وصاحبها ورئيس تحريرها نسيب عريضه !

وعــــلى الأثر جاءتني الظروف « بمصادفة » ثالثة في شكل نسخة من « الأجنحة المتكسرة » قدمها اليّ مهاجر سوري كان قد ابتاعها عــــلى ذمة صاحب المقــال الذي ذكرته سابقاً . وكان يحسبها من نوع روكامبول أو الأميرة فوستا فوجدها « خيالاً في خيال » ، ويظهر أنه قدمهــا لي ليجعلني شريكاً له في خيبة فأله .

قرأت الرواية فاستفزّتني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » وأرسلت به الى « الفنون » ، وهو أول مقال نقدي حبرته فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد ندّدت فيه تنديداً مرّاً بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتّابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت . أما الرواية فبعد ان بينت كل ما فيها من نقص فني من حيث تحليل العوامل النفسية وتصوير الأشخاص وتنسيق الحوادث وتطبيقها على الحياة ، وجدت في جمال أسلوبها فجر عصر أدبي جديد . ورأيت في مؤلفها الذي أدرك سرّ الألوان والأنغام في الكلام وسرّ التأليف بين تلك الألوان والأنغام ، نسراً فتياً مهيض الجناح . غير أن كسره سيجبر . وجناحيه سيشتدان . وسيسبلهما ويحلّق عالياً في جوّنا الأدبي .

ما وصل المقال الى نيويورك حتى قرأه نسيب عريضه لبعض الأدباء هناك – ومنهم جبران . ثم كتب إليّ يخبرني عن وقعه منهم وكيف أن جبران هتف عند نهايته : « من هو هذا ميخائيل نعيمه ؟ وأين كان مختبئاً حتى اليوم ؟ » وراح يستخبر نسيب عريضه كل ما يعرفه عني .

واشتعلت نار الحرب وحلت « بالفنون » أزمات أوقفتها عن الصدور . وكانت خاتمة بركاتها أن أصدرت كتاب « دمعة وابتسامة » في حلة هي غاية في الجمال لأنها غاية في البساطة . وذكرتني بنسخة منه . ثم عادت فظهرت في سنة ١٩١٦ ورئاسة تحريرها في يد نسيب عريضه وإدارتها في يد أحد أصحابه . والشريكان أخذا يكاتبانني ويلحان عليّ بالمجيء الى نيويورك للاشتراك معهما في العمل . وكنت قد أنهيت دروسي في الجامعة فأدرت

وجهي الى الشرق . وفي خريف تلك السنة كنت واحداً من الملايين التي كُتب لها أن تفتش عن ابرة السعادة في جبال القير والاسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك . ومع أني لم أنضم الى ادارة « الفنون » إذ وجدت نفقاتها تفوق دخلها ، بقيت في نيويورك .

بعد ظهر النهار الذي وصلت فيه كنت في ادارة «الفنون»، واذا بشاب يدخل ، لطيف الملامح ، دون الربع من القامة ، عليه بذلة رمادية وبرنيطة من الجوخ الأسود ، مستديرة « السقف » مسطحته ، وفي يده عصاً كروية الرأس معشقة في أعلاها بأسلاك فضية نحيفة . وما أن وقع نظري عليه حتى قلت – هذا جبران ! ولم أكن أبصرت له صورة من قبل . وما أن رآني حتى تقدم مني وقال – هذا ميخائيل نعيمه ! فتصافحنا وتصادرنا كما لو كنا أخوين شتتهما البين ثم عادت الأقدار فجمعتهما .

بعد يومين أو ثلاثة ذهبت ونسيب عريضه وعبد المسيح حداد لتمضية السهرة عند جبران بدعوة منه . وكنت في شوق الى التفرج على محترفه الذي كان معروفاً عند المقربين منه باسم « الصومعة » . والصومعة هذه قائمة في الطبقة الثالثة – والأخيرة – من بناية قديمة شعرت عندما دخلتها كأني داخل ديراً . فقد قادني رفيقايَ في ممرات كالسراديب ينيرها مصباح ضئيل من الغاز فيطرح على جدرانها المظلمة أخيلة تكاد تستوقفك وتسألك عن غرضك منها وتبكتك لأنك أقلقت سكينتها . ثم صعدنا سلالم خشبية تدور دورات لولبية . وتئن تحت أرجلنا حتى نكاد نجفل من أناتها . وأخيراً وقفنا الى اليسار من رأس السلم ، أمام باب خشبي قاتم اللون ، في وسطه حلقة من الحديد ما طرقنا بها عليه حتى انفتح وبان من ورائه

جبران في «جبّة» التصوير وهي من الكتان التبني اللون وأشبه بقميص واسع يُلبس من فوق الرأس ويصل حتى الركبتين، منها بالجبّة. وعلى وسطها منطقة محبوكة كالحبل.

جلست على ديوان (كانابي) قديم وجلس رفيقاي على كرسيين قديمين لم يكن في الصومعة كراسٍ غيرهما. وجلس جبران على دكة التصوير الخشبية وهي نحو متر مربع بعلو شبر أو أقل. وأمامنا، في الحائط الشرقي، شبه موقد افرنجي وفي قلبه وجاق حديدي صغير للتدفئة بالحطب أو بالفحم الحجري. وقد قام هذا الوجاق من الموقد مقام المدخنة. وفوق رف الموقد قنديل من الغاز كان نورنا الأوحد في تلك الليلة.

أخذت أتأمل الصومعة وما فيها: طولها نحو الثانية أمتار. وعرضها نحو الستة. الى اليسار من الموقد سرير واطىء صغير من الحديد بغير قوائم ناتئة عند رأسه وقدميه، وعليه لحاف من صوف ووسادات مختلفة الأشكال والألوان. هو سرير جبران. وبجانبه خزانة صغيرة عليها كتب وأوراق. والى اليمين من الموقد منصب التصوير ووراءه منضدة عليها كتب وأوراق. والى يمين المقعد حيث أنا طاولة خشبية مستديرة عليها كذلك كتب وأوراق ودفاتر ومحابر وأقلام. وبالقرب منها محافظ متفاوتة الحجم من الكرتون الأسود. هي محافظ الصور.

في الحائط الشمالي شبابيك ثلاثة عالية عليها ستائر سود. ومثلها في الحائط القبلي. وعند متوسط الحائط الشمالي رفوف قد اصطف عليها نحو المئتين من مختلف الكتب. وفي الجهة الشمالية من السقف العالي نوافذ من زجاج عليها ستائر سود تزاح عند الحاجة لإدخال النور. وعلى الحائط

الغربي الأصم قطعة كبيرة من نسيج قديم العهد تمثل يسوع المصلوب . وفي زاوية ذلك الحائط الشمالية باب يؤدي الى مخدع ضيق ، في الجهة الواحدة منه حنفية ماء ومغسلة وبضعة صحون وملاعق وفناجين وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاق صغير للطبخ على الغاز . وفي جهته الأخرى مستودع لثياب جبران وفوقه رف تجمعت عليه جرائد ومجلات قديمة وأشياء كثيرة سواها علاها الغبار وعشش فيها الفار .

تلك هي « الصومعة » . وهي صومعة كانت تحدثني عن فقر ساكنها وجدّه أكثر من حديثها عن تقشفه وتعبده . وعن العواصف اللاعبة بعواطفه وأفكاره أكثر منها عن طمأنينته في جده وارتياحه الى فقره .

كان جبران في تلك الليلة عنوان اللطف والانس وحسن الضيافة . فقد أعد لنا قهوة عربية وقدمها في طاسات حمراء من الخشب الصيني مع الكثير من السيكارات والقليل من التفاح . وكان لا ينتهي بنا الحديث الى محط حتى يبدأ بحديث آخر . فكنا أربعة وكأننا واحد . نمرح حيناً في مروج الأدب ، ثم نعرّج على مستنقعاته . وحيناً يسوقنا الحديث الى نكتة فنضحك ، أو الى فاجعة فنجهم . وعندما جئنا على ذكر الأدب الروسي أدهشني جبران بقوله إنه من المعجبين به . لا سيما بتورغينيف وتولستوي ودوستويفسكي . وبالأخير بنوع خاص ، مع أن روحه تناقض روح نيتشه على خط مستقيم . غير أني اشتممت من كلامه الإجمالي عن هؤلاء الكتبة المشاهير أنه قرأ عنهم ولم يقرأهم . ولعله أحب أن يجاملني فيجاريني في اعجابي بدوستويفسكي عندما رآني أضعه فوق كل كتّاب الزمان الأخير بدون استثناء .

ما كنت أدري ساعة خرجت من تلك الصومعة بعد نصف الليل أنني في خلال خمس عشرة سنة سأعود فأدخلها مراراً تضيق الذاكرة عن احصائها ، وأنني سأشهد فيها ولادة أكثر ما تمخضت به روح ساكنها الخصبة منذ تلك الليلة حتى ليلة ختمت الأقدار على رحمها . وأنني سأحيا لأذكرها كما يذكر المسافر في البحر جزيرة وجد الأمن في مينائها برهة من الزمن ثم ودعها وعاد الى البحر . ولا كنت أدري أن آلام ساكنها وأفراحه سترسب في أعماقي فتمتزج برواسب أفراحي وآلامي .

في الكهوف المظلمة

في تلك الأثناء كتب جبران مقالاً بعنوان « المليك السجين » يخاطب فيه أسداً رآه في حديقة الحيوانات فيصف له نيويورك وأهلها هكذا :

« انظر أيها المليك الجبار الى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ... انظر فهذا كالخنزير قذارةً أما لحمه فلا يؤكل . وهذا كالجاموس خشونةً أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوةً ولكنه يمشي على الاثنتين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيبه في الهيا كل . وتلك كالطاووس تيهاً وإعجاباً أما ريشها فمستعار .

« وانظر أيها السلطان المهيب الى تلك القصور والمعاهد ، فهي أوكار ضيقة يسكنها الانسان مفاخراً بزخارف سقوفها التي تحجبه عن النجوم ، مغتبطاً بصلابة جدرانها التي تفصله عن أشعة الشمس . هي كهوف مظلمة تذبل في ظلالها أزاهر الشباب . وتترمد في زواياها جمرة الحب . وتتحول في فضائها رسوم الأحلام الى أعمدة من دخان . هي سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع . وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت .

« وانظر أيها الامير الجليل الى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة الضيقة ، فهي أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها وتختبىء الخوارج في جنباتها . هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب والرغائب ، تتنازل

فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب . بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الأذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضي شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل . ولا تؤول تقاليدها الى الأفضل والأقوى بل الى الأخبث والأكذب . أما ملوكها فليست أسداً نظيرك بل هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبراثن الضبع وألسنة العقارب ونقيق الضفادع . »

لكن قائل هذا القول كان يشتغل النهار والليل ، ويشتغل كالمحموم ، بقلمه وريشته ولسانه ليسترعي انتباه أولئك « المخاليق العجيبة » ، ولتسمع تلك « الأودية الخطرة المعابر » وقع قدميه إذا مشى فيها ، ولتنفتح في وجهه أبواب تلك « الأوكار » اذا ما طرقها . وكان لا يتوصل الى معرفة رجل أو امرأة أو عائلة على أسمائهم شيء من اللمعان الأدبي أو الفنّي أو المادي أو السياسي أو الاجتماعي إلا أخبرني عن ذلك بلسان من لا يكترث لمثل ذلك اللمعان . ولكن بقلب من يكبر في عين نفسه إذا ما تقرب من الذين يراهم العالم كباراً . وكأنه كان يخشى من أن أعيب عليه التناقض بين نفوره من تقاليد الناس ومفاخرته بها . فكان يطرح على كل علاقاته ستاراً من السرّ وجلباباً من الفن والأدب . كأن يقول لي مثلاً : « البارحة كنت مدعوّاً الى الشاي عند مسز كورين روبنسن . » ثم يضيف بفخر ظاهر : « هي أخت ثيودور روزفلت . » ويعقب ذلك بقوله : « وهي شاعرة تعجبك يا ميشا . » أو أن يخبرني عن سهرة عند مستر فلان « وهو مدير البنك الفلاني ، وله ذوق في التصوير جميل . » أو عن زيارة لبيت فلان « وهو من أخص أصدقاء رئيس الجمهورية . وهو وزوجته من أقدم

العائلات الأميركية وأوفرها ثروة وثقافة . »

هكذا كان جبران يصفع الناس بيدٍ ويصافحهم بالأخرى . يثور عليهم عندما يثوب الى روحه المتألم من كل شناعة وقساوة وظلم . ويسالمهم عندما تثور عليه نفسه الطماحة الى « المجد والعظمة » والمتوجعة من قبضة الفاقة الماسكة بخناقها . يحفر لهم قبوراً في الليـل . وفي النهار ، عندما تلحدهم الأقدار في قبور غير التي حفرها لهم ، يهتف بقلب دامع : « مات أهلي وأنا قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي . »

وهكـذا انقسمت نفسه على نفسه ، وانساق جـبران « المتمرد » على الناس الى جبران المتعطش الى التفاتهم وعطفهم ومالهم ومجدهم وعظمتهم . فدرج في كهوف نيويورك المظلمة . وكلما انفتح في وجهه باب أدّى بـه الى آخر – من حلقات فنية ، الى حلقـات أدبية ، الى رجال ونساء ذوي « سلطان » – لكلمتهم وزن ، ولصوتهم مدى ، ولعطفهم قيمة ، ولدعايتهم أثر بعيد . وأخذ يصوّر بعضهم بقلمه الرصاصي بأثمان كانت تتراوح ، حسب قوله لي ، بين الخمسين والمئتي دولار عن الصورة . ويبيع من بعضهم شيئاً آخر من نتـاج ريشته . فكان يراه مضطراً لممالأتهم ومجاملتهم . اذا دعي الى شاي أو عشاء أو سهرة لا يرفض وان كان يعلم أن ربة البيت ليست من الفن أو الأدب على شيء ، وان كل قصدهـــا من دعوتـه أن تنوّع مدعوّيها فيكون بينهم شاعر وفنان « شرقي » في كلامه مضغة غير مألوفة وعليه مسحة غريبة . وذاك أقل ما يدفعه طالب الشهرة من ثمن شهرته في مدينة بابلية كنيويورك وفي بلاد متسعرة الشهوات كأميركا .

الاّ أن جبران لم يكن قانعاً بفتوحـاته الفنية البطيئة . وهو يعلم أن

في روحه توأمين – الفنان والشاعر . وقد حمل الى الأميركيين فنه دون شعره ، والى أبناء لغته شعره دون فنه . فلا العرب يفهمون شيئاً من فنه ، لأنهم لا يفهمون الفن التصويري . ولا الأميركان يعرفون شيئاً عن شعره ، لأنهم لا يعرفون العربية . فعليه ، ان هو شاء الجمع بين الاثنين ، أن يكتب بالانكليزية . تلك هي أمنيته من زمان ، وأمنية ماري والكثيرين من أصدقائه الأميركيين . ومن ثم فالعالم الانكليزي عالم ثقافة ، وعالم شاسع وغني أين منه العالم العربي الصغير ، الفقير ؟ والآن ، وقد تحلحلت عن خناقه قبضة العازة بما يدخله من نتاج ريشته ، علاوة على الخمسة والسبعين دولاراً من ماري في كل شهر ، فلا شيء يعيقه عن الكتابة بالانكليزية إلا الخوف من الخيبة ان هو عرض كتاباته فلم تلقَ ناشراً ولا « سوقاً » .

ذات يوم ، في أوائل سنة ١٩١٨ ، دخلت على جبران فاستقبلني بوجه لحظت فيه من البِشر أكثر من المعتاد . وما أن تبادلنا السلام حتى قدم إليّ عدداً هو الأول من مجلة انكليزية باسم « الفنون السبعة » . نظرت في حلته فاذا بها جميلة ، وفي أسماء مديري المجلة فاذا خليل جبران واحد منهم . تصفحته فاذا فيه أمثال وقصيدة منثورة بقلم جبران .

لم أسأل جبران من أين جاء بالمال ليكون شريكاً في مجلة كتلك المجلة ، ولكنني أبديت له إعجابي بأسلوبه الانكليزي ، فقد وجدت فيه طلاوة ومرونة واتساقاً أكثر مما في أسلوبه العربي . وقلت له : « يا شيطان . لماذا خبأت عني هذه الجواهر حتى الآن ؟ اذا كان عندك بعد من هذه البضاعة فابرزه في الحال . »

فأخذ يقرأ لي أمثالاً وقصائد دخلت كلها فيما بعد في كتابه « المجنون » ،

ومنها قصيدته المنثورة في « الليل والمجنون » وقصيدته في « الله » ، وهذه الأخيرة ، عندما بلغ ختامها حيث يقول لله : « أنا جذورك في الأرض وأنت زهرتي في السماء . ومعاً ننمو أمام وجه الشمس » سألته :

« وما هو هذا الإله الذي تنمو وإياه أمام وجه الشمس ؟ أوَينمو الله ، وكل ما ينمو يشيخ وينحل ؟ وكيف ينمو أمـــام وجه الشمس ؟ ألعلّ الشمس أقدم منه وأثبت ؟ أم أنت تعني أن ادراكك لله ينمو بنموك ؟ »

فأجابني أن له رأياً « خاصاً » في الله سيشرحه لي في وقت آخر . لكن ذلك الوقت لم يأتِ . لأن جبران عاد فوجد إلهاً لا ينمو ولا يشيخ ولا يزيد ولا ينقص . ولا يتغير ولا يتحول .

لم يُكتب لمجلة « الفنون السبعة » أن تعيش إلا شهوراً قليلة كان منها أنها شجعت جبران على الكتابة بالانكليزية وأعطته نماذج يعرضها من شعره في الأندية الأدبيـــة ومكنته من الاتصال بجمعية الشعر النيويوركية التي أتاحت له أن يلقي في اجتماع من اجتماعاتها شيئاً من نتاج قلمه . فألقى قصيدته « الليل والمجنون » . وعاد من الاجتماع ومراجله تغلي ومرارته تكاد تنفجر لأن الحضور استقبلوه واستقبلوها ببرودة في قلبها تصفير ازدراء وهمس سخرية .

وماذا فعل جبران ؟ لم يجزع ، ولم يقنط ، ولم يلجأ لتفريج كربته إلا الى مفرّج كل كربه ومذيع كل أفراحه - الى قلمه . فكتب قصيدته الانكليزية « الانكسار » وفيها قلبَ خيبته خيبـــةً لأعدائه ، وانكساره فوزاً لإرادته واندحاراً لهم :

« ... انكساري ، يا انكساري ، يا سيفي البراق ودرعي الصقيل . لقد قرأت في عينيك أن الجلوس على عروش الناس استعباد للناس . والوصول الى مدار كهم انحطاط الى مستواهم ... أنا وأنت سنضحك مع العاصفة ... وسنقف أمام الشمس بارادة لا تُقهر . فحذار منّا حذار ! »

هي حقنة من المورفين سكّن بها جبران أوجاع كبريائه الجريح ، وأنين قلبه المتعطش الى « المجد والعظمة » ، ولجاجة فكره الثائر على الناس لغير ما سبب إلا لأنهم على صورته ومثاله . ولو أنه كان يعتقد ما يقول ، ويفعل ما يعتقد ، لاعتزل الناس كل الاعتزال ولكفّ عن مخاطبتهم ان بالكلام أو بالرسوم . إذ ما نفعه من مخاطبتهم وهو لا يريد أن يكون مفهوماً منهم خشية من أن ينحط الى مستواهم – اذا فهموه اغتاظ من نفسه ، وان لم يفهموه اغتاظ منهم ؟ أوَليس الكلام في مثل هذه الحالة فضولاً في فضول والتصوير ضرباً من الجنون ؟ أوَلم يكتب هو بقلمه مقالاً في « الكلام وطوائف المتكلمين » ؟ أوَلم يقل في ذلك المقال :

« لقد مللت الكلام والمتكلمين .

« لقد تعبت روحي من الكلام والمتكلمين .

« لقد ضاعت فكرتي بين الكلام والمتكلمين .

***

« والآن وقد أبلت بعض اشمئزازي من الكلام والمتكلمين أراني كالطبيب المعتلّ ، أو كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين .

فهل يغفر الله ذنبي قُبيل أن يرحمني وينقلني الى غابة الفكر والعاطفة والحق حيث لا كلام ولا متكلمون ؟ »

فما باله يقرع آذان الناس من حين الى حين ليعطيهم دستوراً للحياة قبل أن يجعله دستوراً لحياته ؟ وما بال الطبيب لا يطبب نفسه ؟

إلا أن جبران ، وان شبّه نفسه – على الورق – بمجرم يعظ مجرمين وبعليل يطبب معتلين ، لم يكن في الواقع يرى في نفسه علّة أو إثماً . بل كان يرى كل العلة وكل الاثم في الناس . ولولا ذلك لما كتب مقاله الانكليزي « العالم الكامل » فتهكم فيه على عالم الناس تهكماً كله مرارة من حيث مقصده ، وكله جمال من حيث أسلوبه ، وكله حق من حيث معناه ، ثم هتف في آخره :

« ولكن لماذا أنا ههنا يا إله الأرواح الضائعة ، أيها الضائع بين الآلهة ؟ »

ومعنى هذا الهتاف : « ما شأني أنا الكامل في عالم كله نقصان ؟ »

وهو هتاف لا أقدّر أن رئيس أجناد الملائكة يفوه بمثله اذا هو زُجّ يوماً بين الأبالسة !

لقد خُيّل الى جبران أنه يحارب عدوّاً اسمه العالم . ولو أنه تمكن في ذلك الوقت ، مثلما تمكن فيما بعد ، أن يخرج من نطاق نفسه الضيقة ويشهد المعركة عن كثب لأبصر أنها تدور بين ضدّين اسم كليهما جبران خليل جبران – جبران في الصومعة وجبران في العالم . فجبران في الصومعة كان اذا ما فكر بأمجاد الناس وجدها حقارة . وبغناهم وجده

فقراً . وبفضائلهم وجدهـا عبودية . وبملذاتهم وجدها أعشاش ألم وشناعة . فكان يمتشق سيف النقمة فوق رؤوسهم . وجبران في العـالم كان يشتهي أمجاد الناس وغنائم وفضائلهم وملذاتهم . فكان يأتيهم حاملاً قصعة المستعطي. ولأن النـاقم لا يستعطي والمستعطي لا ينقم نشبت بين جبران الصومعة وجبران العـالم حرب عوان تتدفق عليك مرارتها من خلال سطور جبران الشاعر . وتطالعك أوجاعها من بين خطوط جبران الفنان .

ومن ثم فلو أن جبران وقف في ذلك الزمـان أمام المرآة وتفحص نفسه لوجد أن الجبّة التي استعارها من نيتشه لم تكن « تلبق » له . لأنها لم تفصل لكتفين ككتفيه ولا لقـامة كقامته . فلا مزاج نيتشه مزاجه ، ولا ارادة نيتشه ارادته . أمـا القرابة التي وجدهـا بينه وبين نيتشه فلم تكن تتعدى الخيـال والقالب الذي يتخذه الخيـال جسداً له . وفيما خـلا ذلك فنيتشه في وادٍ وهو في واد . غير أنـه حـاول أن يزدرد نيتشه بجبّته وحذائه . فغص ، وفي غصته كان ينبوع مرارته وظلمته وعذابه .

هكذا مشى جبران في كهوف نفسه المظلمة وهو يحسبه مـاشياً في كهوف العالم المظلمة . وهكذا راح يجرع المرارة معصورة من قلبه وهو يظنها آتية اليه من قلوب الناس المريرة . ولو أن روحه آنئذ كانت نيّرة لمـا طغت عليهـا الظلمة . فهل تكون الظلمة إلا حيث لا يكون النور ؟ ولو أن قلبه كان طافحاً بالحلاوة لمـا طفح بالمرارة . وهل يستقطر الحنظل من العسل ؟ وقـد بلغت هذه المرارة من نفسـه مدًى أصبح عنـده يرى الحياة « امرأة عاهرة ، ولكنها جميلة . ومن يرَ عهرها يكره جمالها . » وكاد ينسى كل ما كان يقدسه في أول شبابه ، لا سيما الحب – حب المرأة .

فقد صار يرضى بالمرأة شريكة له في فراشه ولا يرضاها شريكة في قلبه وفكره وروحه . بل صار اذا ما أحس بحبها يمتد في جوانب قلبه ينتهر قلبه وينتهرها . لأنه يربأ بقلبه أن « يستسلم » للحب وبإرادته أن تخضع لارادة امرأة . وما « الجنية الساحرة » إلا امرأة أثارت شهوات جبران ثم تملكتها حتى كادت تسلخه عن نفسه . فقام يُعلن استقلاله عنها ويعرض عليها شروطه :

« قد تمسكت بأذيالكِ وسرت وراءكِ كطفل يلاحق أمه ، متناسياً ما بي من الأحلام ، محدّقاً بما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الأشباح المتطايرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة في جسدك ...

« ولكن قفي قليلاً أيتها الساحرة . فها قد استرجعت قواي وكسرت القيود التي برت قدمي ، وسحقت الكأس التي شربت منها السمّ الذي استطبته . فماذا تريدين أن نفعل ، وعلى أية طريق تريدين أن نسير ؟..

« هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيداً ؟

« هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ، ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

« اذاً هذه يدي فهزّيها بيدك الجميلة ، وهذا جسدي فضميه بذراعيكِ الناعمتين ، وهذا فمي فقبليه قبلة طويلة عميقة خرساء[1] . »

***

من حين الى حين كانت تشرق وحدة جبران المظلمة بنور هادىء بعيد

---

١ قالت لي سيدة لبنانية في نيويورك انها «الجنية الساحرة» المقصودة في المقال .

يشع عليه من قلب ماري المحب . ومن حين الى حين كان يقترب منه ذلك النور فيؤنسه ويهديه عندما كانت ماري تزوره في نيويورك فيجعل بيته بيتها . أو عندما كان يزورها في بوسطن فتجعل قلبها الدافىء وكرآ لقلبه الشريد . وصدرها المطمئن ملجأ لمطامحه الصاخبة ، وأحلامه المجوجة ، وأفكاره الثائرة .

ومن حين الى حين كان يطرق أذنه في سكينة الليل صوت غريب — قريب . هو صوت ذلك الشاب الذي كان جبران قد أذاع خبر موته ودفنه « في وادي الأحلام » والذي لم يمت قط بل أدرج في أكفانه قبل أن تغادره الروح . والأكفان التي أدرج فيها لم تكن إلا جبة زرادشت وسراويله .

الصوتان

« اسحبها ! »

« لا بل أنت اسحبها ! »

هو جدال قصير كنا نبدأ بـه أكثر مقابلاتنا . فلا نتبادل السلام حتى يسأل واحدنا الآخر عما عنده من جديد نظمه أو نثره . ولا يندر أن يمد الواحد يده الى جيب الآخر طمعاً باكتشاف قصيدة لم يشقّ بعد حجابها عن وجهها .

أتيت جبران هـذه المرة – وذلك في أواسط أيار سنة ١٩١٨ – وللحال فهمت من شدة إلحاحه عليّ بإبراز قصيدة جديدة أن عنده شيئاً جديداً يقرأه لي . ولم يخب ظني . فما أن استقر بنا المقام وأشعلنا كل واحد سيكارة وأترعنا كأساً من النبيذ حتى تناول جبران دفتراً ، وقبل أن يبدأ بالقراءة مهّد السبيل بقوله :

« هذه ستعجبك يا ميشا . هي قصيدة ذات صوتين . أوَلا ترى أن تعداد الأصوات يزيد في وقع القصيدة ومداها ويسترعي انتباه القارىء أكثر من صوتٍ واحد ؟ »

ثم أخذ يقرأ مفخماً صوته ومحاولاً أن يعطيه قوة لم تكن له وخشونة لم تكن تلائمه :

«الخير في النـاس مصنوع اذا جبروا،
والشرّ في النـاس لا يفنى وان قبروا»

وهكذا حتى آخر القصيدة .

كان جبران يقرأ ويلحن في قراءته الى حد أنه لو سمعه رجل غريب لا يعرفه ولا يعرف عنه شيئاً لقال إن قارىء القصيدة غير الذي نظمها . أما أنا فكنت أسمعه وأعجب بأذنه الموسيقية التي كانت تحافظ على الوزن بالرغم من اللحن . وعندما لحظت في أحد الأبيات خللاً فاضحاً في الوزن ونبهته اليه عجبت لأنه لم ينتبه اليه من تلقاء نفسه . وعبثاً حاولت أن أفعّله له . فهو لم يكن يعرف التفاعيل ، وان كان قد درسها في المدرسة . وظل يعيد ذلك البيت ولا يرى فيـه عيباً الى أن بدلت له الكلمة المقلقلة بكلمة استقام معهـا الوزن . وحينئذ أدرك الاختلال . مثلما أني نبهته الى بعض هفوات نحوية . منها قوله :

«فسارق الزهر مذموم ومحتقرٌ،
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطرُ»

فلم أتمكن من إقناعه لا بالإعراب ولا بالمنطق . لكنه قال لي إنه اذا توفق الى قـافية تأتي بذات المعنى أو بأقوى منه بدّلهـا منهـا[1] وإلا ترك البيت عـلى حاله . كذلك قلت له ، فيما قلته ، ان مطلع القصيدة ضعيف البنية شاحب اللون ، لا يليق بمـا في القصيدة من قوة وجمال . فأجـابني

---

[1] بقي البيت على حاله في الطبعة التي أصدرها جبران في نيويورك على نفقته . لكنني رأيته في طبعة مصرية مغيراً هكذا : وسارق الحقل فهو الباسل الخطر .

أنه يشعر شعوري وأنه سيغير البيت اذا توفق الى أفضل منه .

كنت أسمع جبران يقرأ وأقرأ جبران في ما أسمع :

هوذا جبران « المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوّة » ينازل جبران الذي « مات ودُفن في وادي الأحلام » والذي ، من حيث لا يدري دافنه ، مزق أكفانه ودحرج الحجر عن باب قبره وعاد الى الحياة وفي عينيه نور حقيقة جديدة وفي قلبه جذوة إيمان قديم .

يطلّ الأول على الحياة من كوّة لا يبصر منها إلا الانسان . وبعد أن يتفحصها بمجهر عقله يجدها حلقات متنافرة متناقضة : هناك الخير والشرّ . والحق والباطل . والعدل والظلم . والحرية والعبودية . والحب والبغض . والموت والحياة وغيرها من المتناقضات . ويجد الناس في ارتباك مستمر وتشويش أبدي لأنهم يحاولون أن يؤلفوا من تلك الحلقات المبعثرة سلسلة كاملة فلا يستطيعون . وهم لا يستطيعون لأنهم لا يعرفون كيف يقيسون الحلقات ويزنونها . أما هو فيعرف . لكنه ضنين بمعرفته على قدر ما هو جوّاد بهزئه . فهو يهزأ بخير الناس وشرهم ولا يقول لهم ما هو خيره وشره . وهو يسخر بدينهم ولا يطلعهم على دينه . ويضحك من عدلهم ولا يتنازل أن يبين لهم عدله . ويتهكم على لطفهم من غير أن يعلمهم ما هو اللطف . وبين قذائف التقريع والتبكيت والهزء، تفلت من فمه السوبرماني نتف من معرفته الكاملة . وما كانت لتفلت إلا لتُري الناس الهوة الهائلة التي تفصل بينهم وبينه . من تلك النتف قوله في الحق :

« والحق للعزم ، والأرواح ان قويت
سادت ، وان ضعفت حلّت بها الغيَرُ »

وقوله في الحب ، وكأنه يبكت نفسه في ما يقول :

« والحب ان قادت الأجسام موكبه
الى فراش مـن الأغراض ينتحرُ »

« والحب في الروح لا في الجسم نعرفه،
كالخمـر للوحي لا للسكر ينعصرُ »

وقوله في العلم :

« وأفضل العلم حلم ان ظفرت بـه
وسرت ما بين أبناء الكرى سخروا »

وفي السعادة :

« وما السعادة في الدنيا سوى شبحٍ
يرجى فان صار جسماً ملّه البشرُ »

وفي الموت :

« والموت في الأرض لابن الأرض خاتمة،
وللأثيريّ فهو البـدء والظّفَرُ »

وبالاجمال ماذا يقول للناس هذا الواقف على كل أسرار الأرواح والأجساد ؟ يقول لهم إن حلقات حياتهم لا تأتلف لأنهم لم يحسنوا صنعها وتسميتها ، فلو أنهم مدّدوا حلقة الحق وسمّوها عزماً لاستقام حقهم . أما كيف تتعانق حلقة العزم وحلقة الضعف من غير أن يكون بينهما نفار فأمر يسكت عنه كل السكوت .

ويقول لهم إنهم لو شربوا خمرة الحب للوحي لا للسكر لعرفوا الحب ولكنه لا يرشدهم كيف يؤلفون بين الحب والبغض لكيلا يكون في سلسلة حياتهم قلق .

ويقول لهم إن الموت هو النهاية لمن كان أرضياً والبدء والظَّفَر لمن كان أثيرياً . أما كيف يمكن ابن الأرض أن يصبح أثيرياً لكي يتغلب على الموت فسرّ لا يكشفه لهم . ولا يكشفه لهم لأنه لا يعرفه . ولا يعرفه لأنه ما يزال في عالم المقاييس والموازين يتوهم أن الناس يجهلون الحياة لأنهم يجهلون قياسها ووزنها . ولو أنهم قاسوها بمقاييسه ووزنوها بموازينه لوجدوها أطول وأثقل مما يحسبون . ولم يخطر له ببال أن المقاييس ، مهما طالت وتنوعت ، والموازين مهما دقت وثقلت ، لا تقيس إلا ما له بداية ونهاية — طولاً وعرضاً وعمقاً وعلوّاً . ولا تزن إلا ما له وزن . أما الحياة التي لا بداية لها ولا نهاية ، والتي ليست طويلة ولا قصيرة ، ولا خفيفة ولا ثقيلة ، فكيف تقيسها وبماذا تزنها ؟

لو أن نيتشه أدرك هذا الأمر لما بدّد قوة خياله الهائلة سدًى في التفتيش عن مقاييس وموازين جديدة ، وفي محاربة الذين جاؤوا ليخلصوا العالم من كابوس المقاييس والموازين ، أمثال يسوع القائل : « أنا في الآب والآب فيّ . وأنا فيكم وأنتم فيّ . » فمن كان في « الآب » — عنوان الحياة السرمدية — كان سرمدياً كالآب . وهذا كيف تقيسه وتزنه ؟

ذلك حد ما توصل اليه جبران المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة .

أمـــا جبران الناهض من لحده في وادي الأحلام فينبري على مسرح الحياة خيالاً طليقاً من قيود المقاييس والموازين وكل أصناف المتناقضات. وما الغاب التي يسرح فيها ويردّ كل شيء اليها سوى عنوان الحياة الشاملة لا الطبيعة بمعناها الضيق. وما الناي الذي ينفخ فيه سوى رمز الروح الذي تلتقي فيه كل الأرواح فتؤلف لحناً واحداً كاملاً لا نفار فيه ولا تشويش.

يأكل الذئب الحمل فيصيح النـاس: هي القساوة بعينها والجور الذي ما بعده جور! إلا أن الغاب – وهي الحياة الشاملة – لا تولول ولا تصيح. لأنها تطعم ذاتها من ذاتها. فلا موت الحمل عندها مأتم. ولا غذاء الذئب وليمة. وسيّان عند الشجرة أأكل ثمرتها انسان أم ثعبان. أم تفيأ ظلها قنفذ أم غزال. أم تدفـأ بحطبها ملاك أم شيطان. فالانسان والثعبان، والقنفذ والغزال، والملاك والشيطان أبناء الغاب الواحـدة. للغاب منهم غاية واحدة. ولها فيهم مشيئة واحدة. من عرفها لم يعاندها بل استسلم لها، وباستسلامه جعلها مشيئة له. ومن جهلها فعاندها سحقته فأشقته. فالاستسلام نوعان: هناك استسلام الجاهل وهو العبودية. وهناك استسلام العارف وهو الحرية. ومن هذا النوع استسلام النافخ في الناي والقائل:

«ليس في الغاب رجاء لا ولا فيـه الملـــل
كيف يرجو الغاب جزءاً وعـلى الكل حصـل؟

***

أعطني النـاي وغنّ فـالغنا نارٌ ونور
وأنـين الناي شوق لا يـدانيـه الفتور»

كأني بجبران بعد أن أصغى الى الصوتين المتنافرين في داخله وقف يسأل نفسه عن مقرها بينهما – الى أيهما تميل ؟ أإلى الجاهل المتمرد ، أم الى العارف المستسلم ؟ فأجابته نفسه ، ولم يكن في جوابها من ريب :

« العيش في الغاب . والأيام لو نُظمت
في قبضتي لغدت في الغاب تنتثرُ »

لكنها ، ما أعلنت رغبتها في الانعتاق من عالم المقاييس والموازين ، والخير والشر ، حتى ثارت عليها رغائبها الأرضية ومطامعها البشرية . فاستسلمت لضعفها من جديد وراحت تقدم عنه أعذاراً . وفي اعتذارها مرارة الخيبة وألم الاندحار :

« لكن هو الدهر في نفسي له أربٌ ،
فكلما رُمتُ غاباً راح يعتذرُ

وللتقادير سبل لا تغيّرها ،
والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا »

بعد أن انتهينا من القصيدة أخذ جبران يعرض عليّ الرسوم التي كان قد أعدّها لها . فوجدت فيها مواكب من الحياة كانت أشد فعلاً في نفسي وأبعد أثراً في خيالي من المواكب التي ساقها أمام عينيّ في حلل من الكلام الموزون . فحيث كنت أصغي الى أبياته فأشعر بالجهد العنيف الذي بذله في تذليل الكلام والأوزان والقوافي للمعاني ، وأبصر أن النجاح لم يكن نصيبه في كل جهوده ، كنت أنظر الى رسومه فأشعر كأنها رسمت ذاتها

من غير ما جهد أو عناء . فكأن عين جبران الفنان كانت أطوع لخياله ، ويده أطوع لعينه من قلم جبران الشاعر لشعوره . وفوق ذلك فجبران الشاعر كان شديد الولع بمزج ألوان الكلام ورناته . فكان يكثر من الأدهان والأنغام الى حد الزركشة والتنميق . حين أن جبران الفنان كان يطلب البساطة المتناهية فتأتيه بسهولة متناهية . هي بساطة كلاسيكية تعرف أصول الفن وتنسى أنها تعرفها . وهي بساطة تخلق لك من خطوط قليلة أشكالاً كثيرة . وخطوطها ليست حدوداً لخيالك . بل هي عيون وأجنحة تمضي به الى أبعد من الخطوط والحدود .

أول رسم وضعه جبران أمامي على المنصب كان يمثل فتىً عارياً ، قوي العضل ، متسق الجسم ، خفيفه ، يسير بخطوات ثابتة واسعة ، وفي يده اليمنى ناي ، وعيناه تحدقان بما هو أبعد من مجال البصر . وفي الفضاء من خلفه شكل أثيري سابح في الهواء يمثل امرأة لا ترى منها غير رأسها وكتفيها وبعضٍ من صدرها وذراعيها الممدودتين كأنهما جناحان يحرسان حامل الناي . وترى في وجهها ما يشبه الحب ، لكنه غير ما يعرفه الناس باسم الحب . وترى في عينيها العالقتين بما وراء الأفق لهفة كأنها تقول للفتى : سر ولا تخشَ . فأنا معك . ووراء الفتى قد سار جمهور من الناس يبدون بالنسبة اليه أقزاماً .

هوذا صاحب الخيال الذي أدرك بخياله سر الامتثال فامتثل بارادته . وكان لذلك حراً . والشكل الأثيري هو خياله الأكبر وحاديه وهاديه . والناس من خلفه قطعان تسير ولا تعلم لماذا والى أين تسير . فهم العبيد لأن ليس لهم من خيالهم محرّر .

كنت ظننتني أخذت بذلك الرسم حتى برز أمامي غيره . فأدركت أنه دون قمة جبران الفنية عندما رأيت رسم الدين والعدل والحرية وسواها . فرسم الدين يمثل شبه برج أعلاه مؤلف من رؤوس ثلاثة – رأس بَرَعْ الى اليسار وزرادشت الى اليمين وبوذه في الوسط . وعلى رأس بوذه ، بين قلنسوة بَرَعْ وزرادشت ، قد ارتكزت كرة ترمز الى الحقيقة اللامتناهية . وعند منتصف البرج ، على صدر بوذه ، الناصري المصلوب وقد لمست كفاه كتف بَرَعْ من جهة وزرادشت من الأخرى . ومن تحت ذراعي المصلوب حتى أسفل البرج أشكال بشرية تغلغلت بينها أفاعي الخرافات والسخافات والشهوات والمتاجر الرائجة بين الناس باسم الدين في كنف أولئك الجبابرة الأربعة ..

والرسم الثاني – رسم العدل – يمثل جباراً مكتمل تقاطيع الجسم . لعله السوبرمان . وقد أمسك بيسراه ميزاناً وانحنى الى اليمين فلمس بأصابعه كفة من كفتي الميزان فهوت الى تحت وارتفعت الثانية وفيها شكل انسان صغير ملتوٍ على ذاته . ومن حول حامل الميزان شبه دائرة من البشر المسرعين صعوداً وهبوطاً يخيل اليك أنه قد وزنهم كلهم فوجدهم ناقصين . كنت أنظر الى الرسم فلا أرتوي من تفاصيله والتعجب من الألفة الكاملة بين أصغرها وأكبرها والوزن الكامل في تركيبها . حتى ليستحيل عليك أن تغير خطاً فيها من غير أن تحدث خللاً في توازنها وألفتها .

أما رسم الحرية ففيه من الألفة والاتساق والتوازن مثلما في رسم العدل لكنه يثير فيك شعوراً وأفكاراً وخيالات تظل تزدحم في روحك زماناً بعد أن يغيب الرسم عن عينيك . فأنت تبصر فيه فتى بجناحين . وقد



والحرُّ في الأرض يبني من منازعه
سجناً لهُ وهو لا يدري فيؤتَسرُ
«عن المواكب»

أسبل جناحيه الى فوق وانتصب بقامته الطويلة وأفرج رجليه الواحدة عن الأخرى وجمع كل قواه للطيران . ولكنه لا يستطيع أن يرتفع عن الأرض . تحدق في عضلاته المتكمشة من قوة الاجهاد وفي وجهه المنصبّ بكل معانيه الى غاية واحدة فتكاد تقفز من مكانك لتساعده عله يرتفع الى الجو . لكنك ، بعد أن ترى الحبال المحبوكة حول رجليه ، تدرك أنه لن يطير حتى يقطعها . وانها لا تقطع بسيف ولا تقرض بمطرقة . هي حبال الرغائب والشهوات الأرضية . وكأني بجبران رسم نفسه بذلك الرسم . وكأني به وصف نفسه عندما قال :

« والحرُّ في الأرض يبني من منازعه
سجناً له وهو لا يدري فيؤتسرُ »

***

بعد ذلك بأيام ودّعت جبران ونيويورك ومن فيها من قليل الصحاب ، وارتديت البزّة العسكرية ، وتقلدت السنكة والبندقية ، وسافرت جندياً مع الجند الأميركي الى فرنسا .

وعندما عدت من المجزرة العالمية بعد سنة وشهرين وجدت أن جبران قد أضاف الى الأدب العربي أثراً جديداً باسم « المواكب » طبعه على نفقته في نيويورك طبعاً أنيقاً فاخراً . وأنــــه قد شقّ لذاته درباً في الأدب الانكليزي بكتاب صغير سمّاه « المجنون » وتوفق الى نشره بواسطة شركة للنشر حديثة العهد في نيويورك أسسها رجل يهودي ألماني اسمه « كنوف » عرف كيف يستثمر مواهب الكتّاب الحديثين . فكانوا سبب ثروته وكان مساعداً كبيراً في نشر شهرتهم .

جبران خليل جبران
عميد

ميخائيل نعيمه
مستشار

وليم كاتسفليس
خازن

الرابطة القلمية
ARRABITAH
51 West 10th St. New York

ندره حداد
ايليا ابو ماضي
وديع باحوط
رشيد ايوب
الياس عطاالله
عبد المسيح حداد
نسيب عريضه

محت الحرب فيما محته من الأسماء اسم « الفنون » من سجل الصحافة . فقضت على زنبقة هيفاء فواحة في حقلنا الأدبي كنت وجبران نتعشقها ونغار عليها غيرة غارسها وولي أمرها — نسيب عريضه — وأشدّ . فقد كانت لنا ، ولكتلة صغيرة من الأدباء في نيويورك ، بوقاً صافي الصوت لا نخجل من أن ننفخ فيه من أرواحنا . وكانت يداً جميلة ونظيفة يلذ لنا أن نضع في راحتها نتفاً من قلوبنا وأفكارنا لتحملها الى من تهمهم قلوبنا وأفكارنا . وكانت ادارتها ملجأ لشوارد آرائنا ، وجواً فسيحاً يمتزج فيه هزلنا بجدنا وتلتقي أحلامنا بآلامنا .

وكنت على أثر رجوعي من فرنسا في صيف سنة ١٩١٩ قد سافرت الى ولاية واشنطن لأرتاح ولو قليلاً من الحرب وويلاتها ، ولأنسى الحلو والمرّ من تذكاراتها . وكأن جبران استطال غيبتي أو خشي أن تطول فكتب يلح عليّ بالرجوع للسعي في رد « الفنون » الى الحياة . ويرسم لي

خطة طويلة للعمل ويختمها بقوله :

« الخلاصة – انه على وجودك في نيويورك يتوقف نجاح المشروع . واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية في مثل هذه الظروف هي العزيز الموضوع على أقدام الأعز ، والمهم الموقوف على مذبح الأهمّ . وعندي أن الأعز في حياتك هو تحقيق أحلامك . والأهمّ في حياتك هو استثمار مواهبك ... »

عدت الى نيويورك ولكن « الفنون » لم تعد الى الحياة . اذ وجدت أن الخطة التي كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق ويكاد يستحيل تحقيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم في « الفنون » كانت جيوبهم في عالم الشكوك والظنون . والذين كانت جيوبهم تعج بالذهب كانت قلوبهم بعيدة عن الأدب . فمن أين تأتي بالمال اذا كنت تأبى التذلل والاحتيال ؟

ماتت « الفنون » ولكن كانت هناك « السائح » – جريدة نصف أسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد ، كان قد مضى على تأسيسها نحو الست من السنوات . نعم . هي لم تكن من الأدب الصافي برتبة « الفنون » لكن عبد المسيح أخ لنا . قلبه قريب من قلوبنا وروحه صديقة لأرواحنا . وهكذا ما درينا إلا و « السائح » بوقنا ، وادارته مكة خطواتنا ، ومنبر أفكارنا ، وعكاظ قوافينا ، ومسرح مهازلنا . هناك كنا نلتقي كلنا لا أقل من مرة في الاسبوع ، وبعضنا كل يوم في الاسبوع – عصبة صغيرة تفاوتت قواها ولكن توحدت نزعاتها ومراميها ، فأتلفت قلوبها وصفت نياتها ، بينها مَن كتب في حياته قليلاً ثم انقطع عن الكتابة كل

الانقطاع . وبينها من كان لا يكتب إلا في النادر . وبينها من كان لا يقعده عن الكتابة غير قوّة فوق قوّته . لكنهم كلهم ، المقلال منهم والمكثار والذي لا يُقلُّ ولا يُكثر ، قد تقاربوا في ما يستسيغونه ويكرهونه من الأدب . وبالطبع كان ضمن هذه العصبة أفراد تربطهم ألفة أدبية وفنية وروحية أقوى من التي كانت تربط العصبة بمجموعها .

من تلك العصبة تألفت « الرابطة القلمية » . وإليك فقرات من وقائع الجلسات التأسيسية كما دونتها بيدي :

« في خلال ليلة أحياها صاحب « السائح » واخوانه في بيتهم – في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ – ودعوا اليها رهطاً من الأدباء والأصحاب ، دار الحديث عن الأدب وعما يمكن الأدباء السوريين في المهجر القيام به لبث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوّة فعالة في حياة الأمة . ورأى أحدهم أن تكون لأدباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وآدابها . فقابلت الفكرة استحسان كل الأدباء الحاضرين وهم : جبران خليل جبران . نسيب عريضه . وليم كاتسفليس . رشيد أيوب . عبد المسيح حداد . ندره حداد . ميخائيل نعيمه . وأقرّوا باجماع الأصوات مباشرة السعي لتحقيق هذا الفكر ... واذ لم يكن من فرصة للبحث في كيفية تأليف الجمعية وقوانينها دعا جبران خليل جبران الأدباء الى عقد اجتماع في منزله ليلة الثامن والعشرين من نيسان . »

« جلسة الثامن والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ عند جبران خليل جبران : التأم تلك الليلة في منزل جبران الأدباء الآتية أسماؤهم : عبد

المسيح حداد . ندره حداد . اليـاس عطاالله . وليم كاتسفليس . نسيب عريضه . رشيد أيوب . جبران خليل جبران . ميخائيـــل نعيمه . وبعد المباحثة أقر الجميع الأمور الآتية :

١ً – أن تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » وبالانكليزية (Arrabitah) .

٢ً – أن يكون لها ثلاثة موظفين وهم : الرئيس ويدعى « العميد » . فكاتم السر ويدعى « المستشار » . فأمين الصندوق ويدعى « الخازن » .

٣ً – أن يكون أعضاؤها ثلاث طبقات – عاملين ويدعون « عمالاً » . فمناصرين ويدعون « أنصاراً » . فمراسلين .

٤ً – أن تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتّاب العربية المستحقين ، وبترجمة المؤلفات المهمة من الآداب الأجنبية .

٥ً – أن تعطي الرابطة جوائز مالية في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً للأدباء .

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون الى العـامل ميخائيـل نعيمه . ثم انتخبوا باجماع الأصوات جبران خليـل جبران عميداً . وميخـائيل نعيمه مستشاراً . ووليم كاتسفليس خازناً ... »

نظمتُ القانون ووضعت له مقدمة . وهـا أنا أقتطف من تلك المقدمة بضع نبذ تبين روح الرابطة ومراميها :

« ... ليس كل مـا سطر بمداد عـلى قرطاس أدباً ، ولا كل من حرر مقـالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحيـاة ونورها وهوائهـا ... والأديب الذي

نكرمه هو الأديب الذي خُصَّ برقّة الحسّ ودقّة الفكر وبُعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتهـا ، وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير ...

« ان هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنـا من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني لحريّة في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهي أمل اليوم وركن الغد . كما أن الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا وان لم تقاوم ستؤدي بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد .

« بيد أننا ، اذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة ، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين مَن ستبقى آثارهم مصدر إلهام لكثيرين غداً وبعد الغد . إلا أننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لآدابنا . لذلك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطرنا للانصراف عنهم الى حاجات يومنا ومطالب غدنا . وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا ... »

ورسم جبران للرابطة شعاراً جميلاً يمثل دائرة في وسطها كتاب مفتوح وعلى صفحتيه خطت هذه الآية من الحديث : « لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء . » ومن فوق الكتاب قد أطلت شمس ملأت أشعتها نصف الدائرة الأعلى . وعند أسفل الكتاب سراج شطره الأيمن محبرة قد انغمس فيها قلم فتحول حبرها الى لسان من نور خارج من طرف السراج الأيسر .

ومن تحت الدائرة اسم الرابطة القلمية مخطوط بأحرف مستقيمة الزوايا تشبه بعض أنواع الخطوط الكوفية ، ومن تحته اسم الرابطة بالانكليزية فعنوانها الذي جعلناه عنوان جبران .

كان ذلك الشعار خاتمة دور الرابطة « التأسيسي » والحد الذي وقفت عنده في مشابهتها جمعية منظمة . فهي من قبل أن تنظم لذاتها قانوناً وتتخذ لها شعاراً كانت « روحاً » وظلت كذلك كل حياتها ، وقطُّ لم تكن « جمعية » بمعنى هذه الكلمة المألوف . بل كان جل ما فعلته من ذلك القبيل أن أعطت تلك الروح اسماً تُعرف به بين الناس . وأعطت العاملين فيها شبه محجة مشتركة يصوبون اليها خطاهم ومعاً يعملون على صيانة حرمتها ورفعها عن التحذلق والابتذال .

على أثر « تنظيم » الرابطة أخذَتْ كتابات عمالها تظهر في أعداد « السائح » وتحت عنوان كل مقال أو قصيدة اسم صاحبها متبوعاً بهذه الكلمات : « العامل في الرابطة القلمية . » وفي صدر كل عام كانت « السائح » تصدر عدداً ممتازاً يشترك فيه كل عمال الرابطة من التحرير حتى انتقاء الورق والغلاف وتنسيق المواد وتحديد القطع الخ . وهذا العدد كان يطلع على الأدب العربي كحدث خطير . فتكتب الصحف فيه فصولاً وتنقل عنه الشيء الكثير . وهكذا انتشر اسم الرابطة في العالم العربي وكل مهاجره وأقبلت الصحف على آثار عمالها تنقلها وتعلق عليها وقام البعض بجمعها في مجموعات منها ما يدرّس اليوم في كثير من المدارس . ونقم أنصار التقليد والجمود عليها فما كانت نقمتهم إلا لتزيدها قوة وحماسة واندفاعاً ولتنمي عدد أنصارها ومريديها ومقلديها والمعجبين بها في كل قطر

عربي . حتى حار في أمرهـا أصحابها وأعداؤهـا على السواء . فما عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سرّ قوتها وبُعد تأثيرها . فمن قائل إن السر في الأدب الاميركي الذي تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول فارغ . ومن قائل إنه في جو الحرية الأميركية ، وهو قول أفرغ . ومن قائل إنه في تهتك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية وأصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الأولين . أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الذي جمع عمال الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارة وبهاء ، ولكنها من موقد واحد وإياها .

أذكر أن صاحب جريدة عربية في نيويورك ، لحسد في قلبه ، تهجم مرة في جريدته على الرابطة وعلى جبران بنوع خاص . وتناول في تهجمه رجلاً جعله من عمال الرابطة ولم يكن منهم . واتفق ان التقيته في ذلك الوقت فقلت له : فلان يا ذا ليس من الرابطة . وأخبرت جبران عن ذلك على سبيل التفكهة . وشد ما كان عجبي عندما التفت إليّ جبران فاذا بعينيه تقدحـان شرراً وشفتيه ترتجفـان غضباً وتقطران سمّاً . واذا به يقول :

« لو التقيته أنا يا ميشا لفعلت غير ما فعلت أنت . » قلت :

« وماذا كنت تفعل ؟ » قال :

« كنت أبصق في وجهه وأفكّ رقبته . ان كلباً مثله لا يستأهل إلا العصا . »

لم أستغرب مـا قاله جبران لأنني كنت أعرف طباعه وأعرف أن كل عامل من عمال الرابطة ، لا سيما جبران ، كان يغار عـلى سمعتها أكثر مما يغـار عـلى سمعته . لكنني شكرت الله لأن جبران لم يوفق الى « فكّ » رقبة ذلك المسكين ، وان الرابطة القلمية لم « تفكّ » حتى اليوم من الرقاب إلا رقبة الصنم الذي كان أكثر أبنـاء الضاد يخرون له ويسجدون أمـامه ويمجدونه باسم الأدب .

العواصف

على أثر صدور كتاب « العواصف » لجبران في سنة ١٩٢٠ كتبت مقالاً توسعت فيه بعض التوسع في درس الكتاب ونفسية صاحبه الأدبية ، والمرارة التي كانت تفيض من قلمه في ذلك العهد ، والكآبة التي كانت تطفو على مرارته[١] . وكان المقال في جيبي عندما عرّجت على جبران بطريقي الى ادارة « السائح » . فسألني ،حسب عادته ، اذا كان عندي من جديد أقرأه له . فأجبته :

« عندي مقال لا أستطيع أن أقرأه لك إلا اذا استطعت أن تسمعه كما لو كنت غير جبران خليل جبران . »

قال : « انك تسألني أمراً شاقاً يا ميشا . ألعل مقالك في جبران خليل جبران ؟ »

قلت : « في عواصفه . » – فقال وكان قوله مزيجاً من المزح والجدّ :

« حسن يا ميشا . سأحاول أن أفعل الآن ما صرفت حياتي محاولاً أن أفعله . وذلك أن أنسى نفسي . لكن بي خوفاً منك يا ميشا . فلك عين تنفذ الى أعماق نفسي . وقلم ، لو شاء ، لمزق الستائر التي أتستر بها عن أعين الجهلاء والعميان . اقرأ . »

---

١ المقال مدرج في كتابي « الغربال » تحت عنوان « عواصف العواصف » .

أخذت أقرأ وجبران يصغي . فأتيت على شبه توطئة قصيرة أقابل فيها بين ضروريات الحياة وكمالياتها وأقول : « غداً ستغمرنا لجة العدم بأحزاننا وأوصابنا . بجائعنا ومتخومنا . بفقيرنا وموسرنا . بوجيهنا وحقيرنا . وستقوض الأيام أركان ما شدناه من البنايات السياسية والاقتصادية . فلا يبقى إلا الخالد والجميل والحق فينا . ومن ذا الذي يبقى ليخبر عن الخالد والجميل والحق فينا ان لم يكن ابن الأدب وابن الفن ؟ »

ثم أسأل عن أبناء الأدب والفن عندنا الذين سيخلدون هذا الجيل من وجودنا في سفر الأجيال فلا أجدهم في الكثير من « بلابل النيل وشحارير لبنان وحساسين سوريا » بل في فئة قليلة من الذين « قد لمست الحياة أفواههم بجمرة جديدة فاتقدت قلوبهم بنار ما عرفتها قلوب مَن حولهم من المنتمين الى مملكة القلم . بعضهم لا يزال في رحم السكينة المولدة . وبعضهم يتنفس الهواء الذي نتنفسه ويطأ الأديم الذي نطأه . ومن هؤلاء ، بل في طليعة هؤلاء ، شاعر الليل . شاعر العزلة . شاعر الوحشة . شاعر اليقظة الروحية . شاعر البحر . شاعر العواصف . — جبران خليل جبران . »

بلغتُ تلك النقطة من المقال واذا بي أسمع بكاء . واذا بدموع جبران تترقرق على خديه . واذا بجبران يشهق كالطفل في بكائه . فطويت المقال ووضعته في جيبي وجلست صامتاً بين الارتباك والدهشة أرقب جبران ولا أشاء ، بل لا أقدر ، أن أقول كلمة قبل أن أسمع منه كلمة . وأخيراً لملم جبران عبراته بطرف منديله وقال وملح الدموع لا يزال متفشياً في صوته :

« اعذرني يا ميشا . اعذرني يا أخي . اعذرني يا حبيبي . ولا تسلني أن

أفسر لك دموعي . فالدموع لا تفسر بالكلام ولا تفيض إلا حيث يتعذر الكلام . وأنت تفهم دموعي لأن بك وحدة كوحدتي ، ووحشة كوحشتي ، وحرقة كحرقتي . وأنت تفهم دموعي لأنك تفرح مثلما أفرح عندما تعثر على روح تفهم لغة روحك . ما أصعب أن تعاشر الناس وتكلمهم بلغتهم فيحسبون أن لا لغة لك سواها . وعندما تكلمهم بلغتك تجدهم لا يفهمون منها حرفاً وتجدك مضطراً اما الى الصمت واما الى تدريسهم الألف والباء من هجاء لغتك ، وما أكبر بهجتك عندما تقع على من يعرف لغتك مثلما تعرفها . وأنت تعرف لغتي يا ميشا وأنا أعرف لغتك . تابع القراءة اذا شئت . »

فاعتذرت عن متابعة القراءة وقلت :

« أمِن العدل يا جبران أن نلوم النــــاس ولا نلوم أنفسنا ونحن من الناس ؟ أم من العدل أن تتطلب منهم مـا لا تتطلبـه من نفسك ؟ أنت تطلب أن يفهمك النــــاس . وقد يكون أنهم لا يفهمونك لأنك لا تفهم نفسك . فهل أنت واثق من فهمك لنفسك ؟ »

« لا ، لست واثقاً يا ميشا . ومصيبتي في أنني أتكلم كما لو كنت واثقاً . »

« لعل ذلك مصدر العواصف التي تجتاح وحدتك . ومنبع المرارة التي تفيض من قلمك . ومنبت التمرد الذي اتخذتـه قوساً لك ودرعـاً . فكم نتمرد على الغير جاهلين أننا لا نتمرد إلا على أنفسنا الجاهلة . وكم تهب في داخلنا عواصف تجلو ما اكمدّ من آفاق أرواحنا فنحسبها آتية من الخارج لتعكر ما صفا من آفاق أرواحنا . أوَلا ترى أن ما نخبر عنه بأقلامنا ليس إلا زبداً يطفو على وجه حياتنا ، أما أعماقنا الساكنة فلا تدركها أقلامنا ؟ »

« هذا صحيح يا ميشا . وأنا تمر بي ساعات أرى فيها كل ما كتبته حتى الآن فضولاً في فضول . لكنني أشعر أن في فمي كلمة لم أنطق بها بعد . ولن يتاح لي بال حتى أنطق بها . لعلني أحاول المستحيل عندما أحاول أن أفرغ زبدة حياتي في كلمة أو في كتـــاب . لكنني لا بد من أن أغمس قلمي في أعماقي الساكنة لتنطق بما فيها – ولو ببعض ما فيها . وماذا عساني أفعل غير ذلك ؟ أنا كالمرأة الحامل : ليس لي إلا أن أضع بين أيدي الحياة ما أحمله في أحشائي . وأنا أعرف أن المرارة ليست جميلة وأن الحلاوة أجمل . لكنني سأبقى مرّاً ما دام في قلبي مرارة . »

« ستبقى مرّاً يا جبران ما دمت دولاباً يدور يميناً بين دواليب تدور يساراً – كما تقول في « العاصفة » . لكنني أراك قد بدأت تغير دورتك . ففي آخر « العاصفة » بعد أن تفرغ كل ما في قلبك من المرارة على الناس ومدنيتهم وطقوسهم تعود فتسأل نفسك : « نعم . ان اليقظة الروحية هي أخلق شيء بالانسان . بل هي الغرض من الوجود . ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والاشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على اثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلا . ولكن الناموس الأبدي قد جعل الأعراض سلماً تنتهي درجاته بالجوهر المطلق . » – فكأنك بهذا القول تعرض على الناس سلاماً ، وكنت لا تعرض عليهم إلا حرباً . وكأنك ترضى أن تدور معهم الى اليسار وكنت لا تدور إلا الى اليمين . »

« ها هي الأفلاك يا ميشا بما فيها من أجرام لا تحصى . لكل جرم دورته وسبيله . وكلها يدور حول جرم واحد فيؤلف عالماً واحداً . وهذا

العالم يدور حول ذاته وحول عالم سواه . والعوالم كلها تؤلف عالماً واحداً كاملاً . كلنا دورات في دورات . وكلنا ضمن دائرة الحياة الكبرى . »

« فما أجهلنا يا جبران نرضى بأن ندور دورتنا وننكر على سوانا أن يدور دورته . ولولا دورة سوانا لما كانت لنا دورتنا . »

« نعم . ما أجهلنا نرى سبيلنا السبيل السويّ . ونرى كل سبيل سواه معوجاً . ولو استقام سبيلنا لاستقام كل سبيل . لأن كل السبل تؤدي الى سبيل واحد . لكن هو الشباب يا ميشا – نزقه أسرع من حكمته . وغضبه أقوى من عدله . وأنا كنت حتى الآن كثير النزق شديد الغضب . – ما قولك بقليل من الوسكي مع الكازوزة ؟ لقد اشتريت البارحة صندوقاً من أحد مهربي المشروبات الروحية . ودفعت ثمنه ٣٥ دولاراً . ذاك ثمن بخس بالنسبة لأثمان هذه الأيام . والوسكي التي اشتريتها مثل وسكي هذه الأيام – مزيج شيطاني لا يعرف أجزاءه إلا الذين ركبوه . قل لعن الله القسس . هذه بلاد قسس وكتبة وفريسيين . لقد حرّموا المسكرات ظناً منهم أن الله لا يقبل في سمائه إلا من كان على شاكلتهم – نظيفاً من الخارج أما في الداخل فمملوءاً قذارة ونتانة . ولقد حرموها ليجعلوا من تحريمها متجراً لهم رابحاً . »

وسكب جبران كأسين من الوسكي . فذقت كأسي وتركتها إذ لم أقدر على اقتحام طعمها ، وقلت لجبران :

« أعجب لك يا جبران تشرب مثل هذه الوسكي . فهي قتّالة . »

فأجابني وقد جرع جرعة كبيرة :

« لا بأس بها يا ميشا . ومن ثم فالكحل خير من العمى . ما العمل وتلك مشيئة القسس الأطهار فينا ؟ »

« دعنا من الوسكي ومشيئة القسس الأطهار . وهات أخبرني الى أين وصلت في كتابك « السابق » وهل أضفت شيئاً جديداً الى مواده الكتابية والفنية ؟ »

« لم أزد شيئاً على المواد التي أطلعتك عليها . والكتاب اليوم في يد الناشر وسيصدر قريباً . ويعزُّ عليَّ أنك تفضل « المجنون » عليه . »

« ما همك والاثنان لك ؟ اني أفضل « المجنون » لأنه مرارة صِرف . أما « السابق » فمزيج من مرارةٍ فقدت مرارتها وحلاوةٍ لم تكتمل بعد حلاوتها . وأين أنت من كتابك الجديد الذي تفكر به لاحقاً للسابق ؟ »

« لقد بدأت بأول قطعة منه ولم أنتهِ منها بعد . ولن أقرأها لك حتى تكتمل . ذلك الكتاب يملأ الآن كل حياتي يا ميشا ، فأنا أنام وإياه وأقوم وإياه وآكل وأشرب وإياه . »

في اليوم التالي سافر جبران الى بوسطن . وصدر مقالي عن « العواصف » في جريدة السائح . فكتب جبران اليَّ يقول :

« قرأت الساعة مقالتك في « العواصف » فماذا يا ترى أقول لك يا ميخائيل ؟

« لقد وضعت بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت أكبر مما هي حقيقة — وهذا مما يجعلني أخجل من نفسي . لقد ألقيت بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقي ، فهل أستطيع أن أقوم بها — هل أستطيع

تحقيق الفكرة الأساسية في نظرياتك ؟ أتبينك منشئاً هذه المقالة النفيسة وأنت تنظر الى مستقبلي لا الى ماضيَّ – لأن ماضيَّ كان خبوطاً ولم يكن نسيجاً ، كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قطُّ بناءً . أتبينك تنظر إليَّ بعين الأمل لا بعين النقد . فأندم على الكثير من ماضيَّ وفي الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة . فان كان هذا ما أردت أن تفعله بي ولي عندما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل . »

لقد صدق جبران في قوله اني نظرت الى مستقبله لا الى ماضيه . فقد أخذت أشعر من محادثاتي الكثيرة معه أنه مشرف على فجر حياة جديدة . وأن العواصف التي أثارها فيه نيتشه فكادت تقتلع جذوره من تربتها الشرقية وتتركه عالقاً بين الأرض والسماء قد بدأت تهدأ . وأن جبران الذي انسلخ عن نفسه المؤمنة بجمال الحياة وحكمتها والمستسلمة لمشيئتها السرمدية قد عاد الى « وادي الأحلام » يبحث عن تلك النفس وينبشها من لحدها ليجدد معها مواثيقه . وعلاوة على ذلك فحجر الرحى – رحى الفاقة – الذي كان يحمله في عنقه منذ فقد أمه وأخاه وأخته أوشك أن يتحول الى قلادة من ذهب . فقد صار جبران ينام من غير أن يفكر بحاجاته اليومية من أكل وشرب ولباس ومأوى . بل انه أصبح ، في كل شهر تقريباً ، يودع قيمة من المال في البنك . والخمسة والسبعون دولاراً من ماري هاسكل ما فتئت تأتيه في مواعيدها . فاستعاض عن نور الغاز في محترفه بنور الكهرباء . وعن وجاق الحطب بوجاق من الغاز . وجاء بتلفون .

أما « المجد والعظمة » اللذان كان جبران يحلم بهما منذ صباه فقد أخذ يتذوق حلاوتهما من ألسنة الناس الذين كانوا يستسيغون كتاباته ورسومه

فلم يعد في استطاعته أن يشرب من البئر ويرمي فيهـا حجراً – أن يتقبل حلاوة الشهرة من ألسنة الناس ثم أن يكوي تلك الألسنة بنار نقمته وسخريته . بل صار يبذل كل جهده ، بلسانه وقلمه وريشته ، ليكون عند ظن النـاس به ، وليفوق ظنهم بـه . وكلما ازداد توفيقـاً من هذا القبيل اشتد عنف الحرب الناشبة بين نفسه الظاهرة ونفسه البـاطنـة – نفسه التي كان يعرضها عـلى الناس ونفسه التي كان يسترها عنهم فـلا تراهـا إلا عين روحه الساهرة .

نبأ كاذب

أفقت من نومي صباح يوم من ربيع سنة ١٩٢١ وأمام عيني بقايا صورة مزعجة رأيتها في الحلم وعبثاً كنت أحاول أن أمحوها من فكري . فقد رأيتني واقفاً على حافة بئر مستديرة عميقة ولا ماء فيها . ورأيت في قعر البئر شجرة يابسة ذات ساق ضئيل قصير وفروع قليلة لا أغصان لها ولا أثر للورق أو للثمر عليها . ورأيت تحت الشجرة رجلاً مضطجعاً على جانبه الأيمن وقد توسد ذراعه . ثم رأيت الرجل ينهض متواكلا ويفرك عينيه ويتأمل الشجرة ويتسلق بنظره جدران البئر الملسة كأنه يبحث عن واسطة للنجاة . ورأيت في وجهه الهزيل الأصفر المقنّع بالحزن والألم بقعاً سوداء وخضراء وصفراء . وتخيلته في كل حركة من حركاته كأنه اليأس بعينه ، أو كأنه بقية من الحياة تسرولت بسراويل الموت . فناديته بأعلى صوتي : « جبران ! » وأفقت مذعوراً من صوتي ومن الصورة التي رأيتها .

ما صدّقت أن اجتمعت بجبران في ذلك اليوم لتكذبَ عينُ يقظتي عينَ منامي ، وليمحو وجهه النضر رسم وجهه الشاحب من خيالي . ومن غير أن أطلعه على حلمي أخذت أسأله عن صحته حتى انه تعجب لكثرة أسئلتي وقال :

« تدهشني يا ميشا شدة اهتمامك بصحتي اليومَ أكثر من كل يوم . فكأنك تشعر بالخلل الطارىء عليها والذي لم أكشفه بعد لأحد . كنت

أظنني من حديد . لكن هذه الآلة العجيبة الصنع والتركيب التي ندعوها الجسد تنتابها علل شأن كل آلة مركبة من أجزاء كثيرة . بل إن عللها بعض من أجزائها . فأنا أخذت أشعر في الأيام الأخيرة برعشة في قلبي ما شعرت بمثلها من قبل . وهذه الرعشة تشتد عليّ في بعض الأحايين الى حدّ أن تضيق أنفاسي . فيصعب عليّ أن أصعد الدرج من أسفل البناية حتى منزلي . »

« هل استشرت بشأنها طبيباً يا جبران ؟ »

« أنا أكره الطب ولا أؤمن بالأطباء . فهم يرون الجسد أجزاءً متعددة ويحاولون أن يداووا الجزء جاهلين أن علة الجزء هي علة الكل وأن مصدرها قد لا يكون في المحسوس بل في غير المحسوس . وكيف تداوي ما ليس محسوساً بالعقاقير والطلاسم الطبية المحسوسة ؟ مع ذلك قد أضطر الى مخابرة طبيب . لعله يعرف جسدي وعلله خيراً مني . »

« ليس خفقان قلبك إلا نتيجة جورك عليه يا جبران . أنصفه ينصفك . أنت تنهشه نهشاً بقلمك وريشتك . وأنت تنبش منه كل خباياه لتعرضها على الناس . وتسرق كل دقة من دقّاته لتجعلها نغمة في كلمة أو خطّاً في صورة . وأنت تسهر الليل وتقضي جانباً كبيراً من النهار مطارداً قلبك حيثما ارتحل وأنّى استقر . وأنت فوق ذلك تجهد ما فيه من لحم ودم بكثرة ما تتناوله من القهوة ودخان التبغ والمشروبات الروحية ، فخفف من كل هذه . »

« ألم ترَ أني انقطعت عن القهوة بتاتاً ؟ أما الدخان فسأحاول أن أقلل منه . لكنني لن أستغني عنه . وأما المشروبات الروحية فإني أعتقد أنها

تنفع قلبي لا تضره . لكن الداء هو أعمق من كل ذلك يا ميشا . وقد لمستَ بعضه فيما قلته . فماذا أعمل ؟ أأنقطع عن الكتابة والتصوير وهما كل حياتي ؟ أأترك « النبي » وهو ما يزال جنيناً – وهو خير ما حبلت به روحي حتى اليوم ؟ بل سأمضي به حتى النهاية وان انتهت حياتي بنهايته . ولكن قل لي يا ميشا : ما الذي جعلك تكثر السؤال عن صحتي اليوم ؟ أرأيت شيئاً جديداً في وجهي ؟ »

فأخبرته أني رأيت حلماً مزعجاً ولم أخبره بتفاصيله . وذلك جرّنا الى التحدث عن الأحلام وأصنافها . وكان كلانا يؤمن بأن النفس في النوم تستجلي حالات كثيرة من حالات حياتها على ممر الأجيال . قد يكون بعضها تذكارات سحيقة من ماضٍ سحيق كأحلام الطيران التي تعود بالانسان الى زمان كان فيه طائراً قبل أن يصير انساناً . وقد يكون بعضها أشباح رغائب دفينة لم تظفر بالتحقيق . أو رسوم أمور آتية مقررة في سِفر الزمان حيث يلتقي الماضي والمستقبل في الحاضر الأبدي . أو خليطاً مشوشاً من الماضي والحاضر والمستقبل بما فيه من قلق جسدي وروحي . وفي أكثر الأحوال تكون رموزاً تحتاج الى تفسير . ولا يندر أن تأتي جليّة كأن يرى انسان في نومه مدينة لم يرَها قطّ في يقظته . ثم يتفق له بعد حين أن يزور مدينة مثلها بالتمام .

فرويت لجبران حلماً رأيته منذ سنين حين كنت طالباً في روسيا . وكان لا يزال جلياً في ذاكرتي كأني أبصرته الليلة البارحة . وفسرت رموزه لجبران كما فهمتها وبينت له كيف أن ذلك الحلم كان بمثابة خريطة لحياتي بمعانيها الواسعة لا بدقائقها الصغيرة . فقال جبران :

« أما أنا فــلا أزال أذكر حلماً حلمته من زمان . وكلما ذكرتــه ارتعشت . فقد رأيتني جالساً على صخرة في وسط نهر واسع المخاضة ، كثير الرغوة ، شديد العربدة ، ليس على ضفتيه أثر لإنس أو لجن . ومع أني لا أحسن السباحة ، لم أكن في خوف من طغيان النهر . بل كنت أشكر الله لأنني في مأمن من المياه الصاخبة . وأعجب كيف توصلت الى الصخرة ، وأفكر في كيفية العودة الى اليابسة . وأنا كذلك واذا بأفعى عظيمة هائلة تخرج من النهر وتتسلق الصخرة التي أنا عليها . فترتعد فرائصي منها . وأحاول أن أرفسها . ثم أمسك بخناقها لأدفعها عني ولكن بغير جدوى . أما هي فتأخذ تلتف عليّ دورة بعد دورة . ويشتد ضغطها وثقلها على أضلاعي الى أن تنحبس أنفاسي . فأجمع كل قواي لأصرخ طالباً الاغاثة وعندها أفيق من نومي وقلبي يقرع أضلاعي قرعاً وقطرات العرق البارد تبلل جبهتي . »

قلت : « وما تفسيرك لمثل هذا الحلم يا جبران ؟ »

قال : « فسره كما شئت . أما أنا فقد رأيت فيه رمزاً لحياتي . مثلما رأيت أنت في حلمك رمزاً لحياتك . »

ما أبهت كثيراً للحلم في ذلك الوقت . ولا أخاله عبر بخاطري مرة بعدها في حياة جبران . أما بعد مماته فلا أكاد أذكر جبران وأتفحص معاني حياته إلا ذكرت ذلك الحلم ورأيت فيه رمزاً لتلك الحياة . فالنهر الصاخب هو العالم بأمجاده ومساخره ، وملذاته وأوجاعه ، ورغائبه وأطماعه . والصخرة هي حقيقة الوجود الثابتة في تيار الحياة العالمية . وقد أدركها جبران بخياله النشيط واطمأن اليها بروحه . والأفعى الخارجة من النهر هي

ميول جبران العالميـة وتعطشه الى مجد العالم وعظمته وملذاته . وهي التي أفسدت عليه طمأنينته الروحية ونشوته الخيالية وقضت على أمنيته الكبرى ـ أمنية التوفيق بين أعماله وأقواله والتوحيد بين ذاته الظاهرة وذاته الخفية .

في صيف تلك السنة اتفقنـا أنا وجبران ونسيب عريضه وعبـد المسيح حداد أن نقضي عطلة قصيرة في البرية . فانطلقنـا في أواخر حزيران الى مزرعة صغيرة تبعد نحو مئة ميـل عن نيويورك اسمها كاهونزي . وهي واقعة في قلب غاب تمتد أميالاً كثيرة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً . فيها أنهـار وجداول وبحيرات ومنخفضات وتلال وأماكن مدغلة قلما تطأهـا رجـــل انسان . في تلك العزلة الطافحة بالسلام ، المعطرة بالسكينة ، المكحلة بالجمال قضينـا عشرة أيام مرت كعشر دقائق . فقد كنا كأربعة عصافير أفلتت من أقفاصها . أو كأربعة أحداث انعتقوا من المدرسة ومن تهديد معلميهم وأوامر والديهم . وكنا لا نمشي إلا معاً ولا نأكل إلا معاً ولا ننام أو نقوم إلا في ساعة واحدة . حتى ان أهـل المزرعة والمصطافين فيها أطلقوا علينا لقب « الأربعة الكبار » ـ وهو لقب كان لا يزال شائعاً على ألسنة الناس ، وكانوا يعنون به ممثلي الدول الأربع الذين كانت لهم أكبر يدٍ في تنظيم معاهدة فرساي ـ ولسن ولويد جورج وكليمنصو وأورلاندو . ولا وجه شبه بيننا وبينهم إلا من حيث العدد .

وكان نسيب عريضه قد خبر تلك المزرعة وضواحيها من قبلنا بسنين . فكان دليلنـا في تجوالنـا وتطوافنـا . وذات يوم قادنا الى شلال يبعد عن المزرعة بضعة أميال . فما بلغناه حتى نسينا كل مشقة تكبدناها في الوصول إليه . إذ وجدنا أنفسنا في قعر وادٍ حجبته الأشجار والأدغال عن الأبصار

وكادت تحجبه عن الشمس . كأنه متنسك لا تنقطع صلاته ليل نهار . وفي صلاته دويّ الرعد ، وهيبة الوحدة ، ورهبة المثول أمام العزة الصمدانية وجهاً لوجه .

اقتربنا من أسفل الشلال على قدر ما سمح لنا بالاقتراب منه . وهناك وقفنا بضع دقائق كالمسحورين . أشعة الشمس تكوي وجوهنا فيبددها الشلال برشاشه المتطاير في الهواء كمسحوق دقيق من الماس . وأبصارنا تتغلغل في تجاعيد المياه الغزيرة الهاوية من علوها الشاهق فترتدها ألوان النور المتكسرة عليها كليلة حائرة . وأصواتنا تحاول أن تنطق بما فينا من دهشة فتخنقها هلهلة القطرات المتسابقة الى البحر . والأشجار عن جانبينا تنحني ثم تستقيم . وتتأود ذات اليسار وذات اليمين . والأعشاب ما بينها في رعشة دائمة .

وأخيراً أخذنا نفتش عن مكان نجلس فيه . فرأينا صخرة في وسط النهر على مقربة من مصب الشلال كأنها معدّة لمن كان مثلنا يطلب منادمة المياه الزاخرة في خلوة من الطبيعة مثل تلك الخلوة . وكان بيننا وبين تلك الصخرة شقة واسعة من المياه المزبدة . لكنها لم تكن لتحرمنا لذة الجلوس على تلك الصخرة . فأخذنا نرمي في النهر حجارة كبيرة وصغيرة الى أن تيسر لنا أن نجمز من الضفة الى الصخرة .

جلسنا على تلك الصخرة ووجهتنا الشلال . ومع أنه لم يكن بيننا ولا واحد يحسن الغناء ، ما شعرنا إلا ونحن نغني . وكان من الواجب ، إن نحن لم نخجل من أنفسنا ، أن نخجل من أصواتنا المتهدجة ترتفع في آنٍ واحد ومكانٍ واحد مع صوت ذلك الشلال . لكن هو الشلال جنى على

ذاته . فلولاه لما ارتفع لأحدنا صوت . أما أغانينا فكانت كلها من الأغاني القومية القديمة المعروفة في لبنان وسوريا . مثل « العتابا » و « الميجانا » و « أبو الزلف » و « المواليا » . ومن بعدها أخذنا نسرد ما نذكره من الشعر العامي القديم . فأنشدنا جبران « موالاً » كان شديد الاعجاب به ومطلعه :

« يا زين عن درب الهوى ضعنا من كتر ما فيكم تولعنا .
مشتاق اليكم والمجال بعيد يا ريتنا كنا تودعنا »

والذي زاد في زهونا وأنسانا خشونة أصواتنا قليلٌ من العرق شربناه ممزوجاً برشاش الشلال . وعندما نفد ونفدت بضاعتنا الغنائية نزعنا أحذيتنا وانحدرنا الى النهر ندغدغه تارة بأيدينا وطوراً بأرجلنا ، شاعرين كما لو كنا ننزع عنا كل أثقال المعيشة ونطهر أنفسنا من كل أدران الماضي ومخاوف المستقبل .

وآن وقت العودة . فودعنا الشلال حاملين صلاته في أرواحنا وجمال هيكله بين أجفاننا . ورجعنا أدراجنا سالكين الى المزرعة شعاباً تكتنفها الأشجار والأدغال . وسار نسيب وعبد المسيح في المقدمة ومشيت أنا وجبران في المؤخرة . وبيننا وبين رفيقينا مسافة لا يمكنهما معها سماع حديثنا ولا يمكننا سماع حديثهما . وكنت وجبران نتحدث بالانكليزية ، شأننا في كل أحاديثنا عن الأدب والفن والأمور الروحية . وكان حديثنا في قطعة قرأها لي من أمد قريب عن المحبة وقال إنها ستكون الأولى من سلسلة قطع على شاكلتها ينوي تأليفها ونشرها في كتاب سيدعوه « النبي » . وكان قد سبق لي أن أبديت له اعجابي بتلك القطعة وارتياحي لانتقاله من

«التمرد» على الناس وحياتهم الى تفهُّم أسرار تلك الحياة وكشف ما فيها من جمال ينضح من معين الجمال الكلي . وانتهى بنا الكلام الى الصمت الذي هو أفصح من كل كلام .

قطعنا مسافة من الطريق على وقع أفكارنا الصامتة . والأشجار عن جانبينا تستقبلنا وتشيعنا صامتة . والطريق تحملنا كأنها بساط من ريح .

ونحن كذلك ، وإذا بجبران يقف فجأة ويضرب الطريق بعصاه وينادي «ميشا !» فأقف مثله وألتفت اليه . فأرى بهجة الشلال قد طارت من عينيه وحلت محلها سحابة من الكآبة المريرة . ثم أسمعه يناديني ثانية باسمي ويقول :

«ميشا ! أنا نبأ كاذب» — (I'm a false alarm) ثم يُطرق ويعود الى الصمت .

من كل الوقفات التي وقفتها وجبران في خلال خمس عشرة سنة لست أذكر وقفة كانت أبعد أثراً في نفسي من تلك الوقفة . ومن كل ما قاله لي منذ التقينا حتى افترقنا لم يهزّني شيء مثلما هزّتني تلك الكلمات الثلاث .

أهي الساعات التي قضيناها في منادمة الشلال ؟ أهي روح الكرمة التي شربناها ممزوجة بروحه ؟ أم هي هيبة الحقيقة العارية المهيمنة في الغاب دفعت جبران ليقف تلك الوقفة ويفوه بتلك الكلمات ؟ — لست أدري . غير أنني شعرت بروح رفيقي تتعصر من الألم وتستغيث . ولعل الطبيعة التي لا تعرف التكتم والتستر ، فلا تظهر بغير مظهرها ولا تستحيي بحالة من حالاتها ، سطت عليه بكل ما فيها من سحر التعرّي والصدق والامتثال ، وبأسرع من لمحة الطرف أنارت كل زوايا قلبه وخزائن نفسه فجعلته يخجل من كل ما

تخبأ فيها من ضعف تردّى برداء القوّة ، وتصنع امتسح بمسحة الجمال ، وشهوة نهمة بـدت كأنها العفة الصائنة . فرأى نفسه نبـأ كاذباً وهاله أن يكون ذلك النبأ في حضرة الطبيعة التي لا تعرف الكذب ولا الغش . وهاله أكثر من ذلك أن يكون رفيقه الماشي بجانبه ممن صدقوا النبأ . فلم يتمالك من الاعتراف له . بل لم يجد كالاعتراف لصديقه منقياً لقلبه ومطهراً لنفسه . ولم يجد أفضل من الطبيعة شاهداً على صدق اعترافه .

ومثلما هـال جبران أن أكون مخدوعاً بظواهر حياته عن بواطنهـا ، هالني أن يمضي في اعترافه أمامي فيجلد نفسه العاتية المتمردة أمـــام عينيّ وينزع عنها دروعها العديدة ، ويتركها عريانـة وبلا سلاح . ومن ثم فمن أنا لأقتبـل اعتراف نفسٍ وإن تكن أختاً لنفسي ؟ وقـــد تكون نفسي أحوج الى الاعتراف منهـا . لذلك عندمـا حاول جبران أن يتوغـل في تشريح « النبأ الكاذب » غيرت مجرى الحديث وأسرعت في السير .

في مساء ذلك اليوم خرجنا نحن الأربعة نتمشى على الطريق العمومية ، وكانت الشمس قد غابت وأشباح الغسق قد انتشرت في الغاب . وكنا في جـذل وأحاديثنا تتنقـل بسرعـة خطواتنا . ثم أخذنا نتبـارى في تصنيف « القرادي » . وعندما مللناه سكتنا هنيهة كأننا في هدنـة . وفي أثنـاء تلك الهدنة خطر لي بيت من الشعر فأنشدته على مسمع الآخرين وهو :

« أسمعيني سكينةَ الليـل لحنـاً
من نشيد السكينة الأبـديه »

فما كان من أحدهم إلا أن أردف البيت ببيت من عنده على ذات الوزن



« الأربعة » — ١٩٢٠

من اليمين الى اليسار : المؤلف . عبد المسيح حداد . جبران . نسيب عريضه .

والقافية . وهكذا رحنا ينظم واحدنا شطراً والآخر يكمله الى أن تمت لنا قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً . وها أنا أثبتها ، لا لما فيها من كنوز شعرية بل كأثر تاريخي وعلى سبيل التفكهة . ولو سألني القارىء لمن هذا البيت أو ذلك الشطر لأجبته بالتقريب لا أكثر . لذلك أترك له الحق في ردّ المصاريع الى أي من الأربعة . وإليه القصيدة :

«أسمعيني سكينة الليل لحناً
من نشيد السكينة الأبدية

وافتحي يا نجوم عينيَّ عليَّ
أن أرى بينك الطريق الخفية

واجعلي يا رياح منك بساطاً
واحمليني الى الرياض العلية

واخطفي يا نسائم الليل روحي
وخذيها مني اليك هدية

ودعيني هناك أسرح حرّاً
إنما العبد يشتهي الحرية

طال سجني وطال في الأسر يأسي
واحتمالي لحالتي البشرية

أنا ما لي وللورى فارفعيني
ودعيهم في بؤسهم والرزية

ملَّ قلبي بغضاهم وهواهم
ملَّ قلبي سبابهم والتحية

ولساني قد صار يخشى لساني
وجَناني أضحى عليَّ بلية

وفراشي شوكاً ونومي ارتعاشاً
ويقيني شكاً وبِرّي خطية

وشرابي تعللاً وأواماً
وطعامي مجاعة روحية

ولباسي رماد فكري تذريه
رياح تثيرها الأمنية

تلك حالي – حرب عوان فان
أظفر فنفسي قتيلة أو سبية »

***

ودّعنا كاهونزي وعاد كل منا الى نيره . وسافر جبران الى بوسطن ليقضي ما بقي من الصيف مع أخته مريانا . وكان من عادته أن يصرف موسم الميلاد ورأس السنة وأيام الصيف معها . وكان آخر ما قلته له عندما ودعته في ذلك الصيف :

« دارِ قلبك يا جبران . دارِ قلبك . »



جبران والمؤلف (عن يمينه)
في غابات كاهونزي

٣

الفجر

الضباب يتبلور

« أخي ميشا

مذ جئت هذه المدينة وأنا أتنقـــل من طبيب اختصاصي الى طبيب اختصاصي ، ومن فحص دقيق الى فحص أدق . كل ذلك لأن هذا القلب قد فقد وزنه وقـافيته . أنت تعلم يا ميخـائيل أن وزن هذا « القلب » لم يكن قطُّ مطابقاً للأوزان ، وقافيته لم تكن البتّة مماثلة للقوافي . ولما كان العَرَض تابعاً للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر المحتوم أن تأتلف هذه الكتلة في صدري مـع ذلك الضباب المرتعش في الفضاء – ذلك الضبـاب الذي أدعوه « أنا » .

لا بأس يا ميشا ، فكل مـــا قُدّر يكون . غير أنني أشعر بأنني لن أترك لحف هذا الجبـل قبل طلوع الفجر . وسيلقي الفجر نقـاباً من النور والبهاء على كل شيء . »

(من رسالة بعث بهـــا جبران إليّ من بوسطن في أواخر صيف سنة ١٩٢١)

« أنا » – هي ألِف الوجود وياؤه . من عرفها عرف كل شيء . ومن جهلها جهل كل شيء . من عرفهـــا عرف لذة الألم ، وتذوق الطمأنينة الروحية حتى في أنكد حـالاته . ومن جهلهـا جهل مرارة اللذة ولم يعرف سوى الألم حتى في أسعد أوقاته . والفرق بين النـاس ليس عـلى قدر مـا

يملكه ذاك أو هذا من مال أو عقار أو جاه أو موهبة أو صيت أو سلطة وما اليها من صنوف التفاوت البشري . بل الفرق على قدر ما يضيّق الواحد منهم « أنا » وبوسعها الآخر .

ما الفرق بين القائل : « من ضربك على خدك الأيمن حوّل له الأيسر كذلك » وبين القائل : « عين بعين وسن بسن » إلا الفرق بين من أدرك أن كل « أنا » منبثقة من « أنا » الشاملة . فهي شاملة مثلها . فالضارب والمضروب فيها واحد . وبين من حصر « أنا » ضمن حظيرة من الأوهام فراح يثأر لها من كل متعدٍّ عليها جاهلاً أنه المتعدّي والمتعدّى عليه ، وأنه يثأر من ذاته لذاته . وما الوحي إلا انفتاح كوّة في الروح تنفذ منها أشعة « أنا » الشاملة وتبدد ضباب الفردية المحصورة فتبصر الروح ذاتها شاملة غير متناهية - في حضنها الموت والحياة ، وفي قلبها الأزلية والأبدية . وإذ ذاك فما « القضاء » إلا مشيئة الكل ، في الكل ، وللكل . فهو فوق خيرنا المحصور وشرنا المحدود . ولا « القدر » إلا ما تحتمه النفس على ذاتها ما دامت مصرّة على الاحتفاظ بالضباب الذي ندعوه « أنا » .

غير أن سواد الناس لا تزال كوى أرواحهم مغلقة دون أشعة « أنا » الشاملة . ولذلك لا يزال ما يدعونه « أنا » ضباباً . ولذلك كان كل ما يصدر منهم ضباباً في ضباب . وكانت حياتهم مقايضة مستمرة بين اللذة والألم . أما الذين انفتحت كوى أرواحهم فأبصروا أنفسهم في كل نفس ، واتصلت حياتهم بكل حياة ، وطبّقوا أعمالهم على أفكارهم ، فهؤلاء هم رسل الحق وهداة البشرية اليه . ولا عجب لو عبدهم الناس . فهم قد اكتشفوا الاله في الانسان .

هل عرف جبران الوحي ؟ — لقد عرفه مثلما عرفه كل ذي خيال طليق ، فأنت تلمح له وميضاً متقطعاً في بعض مقالات « دمعة وابتسامة » ثم يغيب عنك ذلك الوميض من بعد أن استسلم جبران لسحر نيتشه فثار على الناس وكاد يغرق في رغوة ثورته ويختنق بعجاج معاركه من غير أن يُغرق أحداً من الناس أو يخنق طقساً من طقوسهم . فكأنه في تلك الفترة من حياته الروحية والأدبية كان يثير حرباً — بل حروباً — انما على جبهات مختلفة . فعلى الجبهة الواحدة كان يحارب الفقر . وعلى الأخرى الأدب والفن لينال منهما القسط الذي كان يحسبه من حقه . وعلى الثالثة الناس ليحملهم على إكبار أدبه وفنه . وعلى الرابعة قلبه ومن احتله أو حاول احتلاله من النساء . فكان في شغل عن جوهر « أنا » الشاملة وموحياتها . بل إنه أوصد دونه كوى روحه بما أثارته حروبه العنيفة من عثير وضباب .

لكنه ، بعد أن تحصن من الفقر ولو بعض التحصن ، وتمكن من أدبه وفنه ، وآنس من الناس ارتياحاً اليهما ، واستقر قلبه على حب امرأة واحدة ، ثاب الى نفسه يسترشدها ويستفسرها ويفتح كواها لأشعة الوحي . فلم ترذله نفسه ولم تخيبه . بل راحت تعظه وتعلمه وتصوغ له من الضباب الذي كان يدعوه « أنا » جوهرة نورانية تنعكس فيها كل ذات من غير أن تحدث أقل تعكير في صفائها ، أو أقل تشويش في جمالها :

« وعظتني نفسي فعلمتني وأثبتت لي أنني لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظني نفسي كنت أحسب الناس رجلين : رجلاً ضعيفاً أرثي له أو أزدري به . ورجلاً قوياً أتبعه أو أتمرد عليه . أما الآن فقد علمت أنني كوّنت فرداً مما كوّن البشر منه جماعة . فعناصري

عناصرهم وطويتي طويتهم . ومنازعي منازعهم ومحجتي محجتهم . فان أذنبوا فأنا المذنب . وان أحسنوا عملاً فاخرت بعملهم . وان نهضوا نهضت وإياهم . وان تقاعدوا تقاعـدت وإياهم ... »

ان بين هذا القول وقوله : « إنني أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجد والعظمة » لوحدة عميقة . ولكنهما ، على كل ما بينهما من التناقض ، موجتان من بحر واحد . فجبران الذي يكره النـاس القانعين من حياتهم بغير المجد والعظمة هو نفس جبران الذي يرى ذاته شريكاً لكل أثيم في إثمه . ولكل عبد في عبوديته . ولكل ضعيف في ضعفه . ذاك جبران في عالم الظواهر . وهذا جبران في عالم البواطن . ذاك ضباب يعميك عما فيه من نور . وهذا نور ينسيك ما حوله من ضباب . ذاك هو القشرة . وهذا هو اللب .

هكذا خمدت ثورة هذا الثائر الذي كان يدعـو نفسه ، ويباهي اذا ما دعاه الغير ، ثائراً ومتمرداً . وهل الثورات بكل أنواعها غير فوران تلهيك رغوته عن صريحه ؟

ما اتسعت ذات انسان فعانقت الذات الجامعة إلا رآه مضطراً الى نبذ كل محدود ومحصور . ومتى نبذ الانسان المحصور والمحدود أصبحت عنـده كل مقاييس الناس وموازينهم ألاعيب صبيانيـة . فأصبح لا يرى العلة إلا رأى فيها النتيجة . أو البداية إلا أبصر فيها النهاية . وبكلمة أخرى أصبح لا يرى إلا دوائر وأشكالاً كروية حيث يرى غيره خطوطاً مستقيمة ومكسرة ، ومسطحات ومربعات ومكعبات . فصار لا ينطبق منطقه على منطق الناس . ولا يماشي فكره أفكارهم . هم يخاطبونه بعقولهم واستنتاجاتها وهو يخاطبهم

بخياله وومضاته . فاذا ما رأى قاتلاً وقتيلاً قال في كليهما إنه القاتل والقتيل في وقت واحد . واذا ما سمع منشداً ونائحاً كان الانشاد والنوح عنده سيين على حد قول المعري :

«وشبيه صوت النعيّ اذا قيس
بصوت البشير في كل وادِ»

وقد تعجب ، مثلما أعجب ، لهذا الخيال الشرقي كيف أنه ينفذ أبداً من البدايات الى اللابداية . ومن النهايات الى اللانهاية . ومن المحسوس الى غير المحسوس . فمذاهب الشرق كلها ، على وفرتها واختلافها في الظاهر ، تلتقي في ذلك الجو الفسيح حيث المسبِّبُ والمسبَّبُ واحد . وكل ذي خيالٍ طليق لا بدّ من أن يدرك ذلك الجو بخياله . ولكن الويل كل الويل لمن كان خياله أنشط من ارادته . فهو كالطيارة التي يطلقها الأولاد في الهواء مشدودة بخيط في أيديهم . فلا تتذوق حرية الفضاء حتى يجذبها الخيط الى عبودية الأرض . ومن كان كذلك لن يتحرر من ربقة الأرض ولا بالموت . تلك كانت حال جبران مع خياله وارادته . والمجد كل المجد لمن كان نشاط ارادتهم كنشاط خيالهم . هؤلاء ، وان مشوا بأرجلهم على الأرض ، فقلوبهم أبداً في السماء . وهم قد تحرروا من الموت قبل أن يموتوا . وما أقل ما هم في تاريخ البشرية !

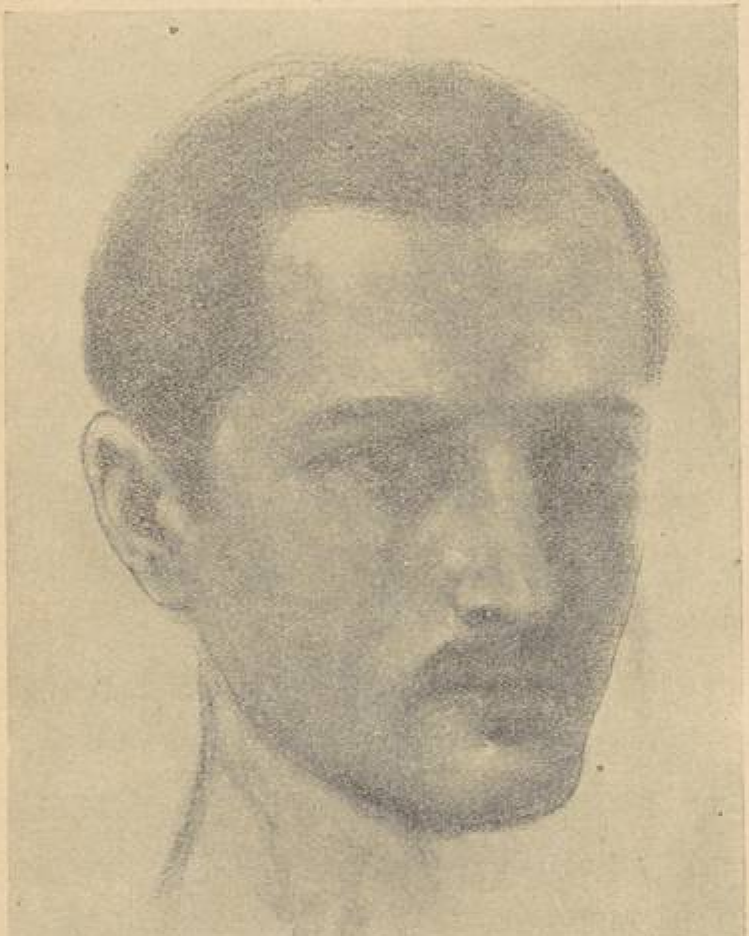
***

« ميشا . ميشا ! نجاني الله واياك من المدنية والمتمدنين . ومن أميركا والأميركيين . ونحن سننجو بإذن الله . وسنعود الى قمم لبنان الطاهرة ، وأوديته الهادئة . وسنأكل من عنبه وبقوله ، ونشرب من خمره وزيته .

وسننام على بيادره ، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعاته وخرير غدرانه . – ما بالك لا تدخن ؟ أشعل سيكارة ، ولا تخشَ من الدخان أن يحجب وجهك عني . – أمِل رأسك الى اليسار قليلاً . هكذا هكذا – آه ! لقد صح لي النور الذي أرغب . وسأنتهي منك بأقل من ساعتين . – التصوير كالنظم يا ميشا : اذا تملكك الموضوع واهتديت الى القالب المناسب نظمت القصيدة بسرعة وبغير عناء ، فكأنها نظمتْ ذاتها . كذلك اذا آنستَ ممن تصوره ، أو فيما تصوره ، قوّةً تستفزك الى التصوير ، فالصورة تصوّر ذاتها فتصبح الريشة في يدك بعضاً من يدك . وتصبح أناملك كأن في رأس كل منها عيناً . وكأن كل هذه العيون تبصر بحدقة واحدة . استرح قليلاً اذا كنت قد تعبت . »

كنت جالساً في كرسيٍّ على دكة التصوير . وعلى مقربة مني المنصب . وعلى المنصب لوحة من الكرتون الأبيض بقياس ٤٢ × ٥٥ سنتيمتراً . وجبران يصورني عليها بقلم من رصاص حسب عادته مع كل من صورهم في حياته من الرجال والنساء . ومنهم رودين ، وطاغور ، وميسفيلد – شاعر بريطانيا – والمصور الأميركي ريدر ، والكاتب الأسوجي سترندبرغ وسواهم . مكتفياً بتصوير الرأس لا غير .

كنت أرقب حركات جبران وهو يصورني فتدهشني بسهولتها ورشاقتها . فكان بعد أن يحدقني هنيهة يهجم على المنصب بقلمه الرصاصي الذي لم يكن يتجاوز الأربعة القراريط ويعمله في لوحة الكرتون . ثم يأخذ ينقل بصره من اللوحة الى وجهي ومن وجهي الى اللوحة . ثم يبتعد قليلاً عن المنصب ويأخذ يزورُني تارة واللوحة أخرى . ثم يعود الى اللوحة بقلمه أو بالماحي



المؤلف بريشة جبران – ١٩٢٢

(المجابة) الذي لم يكن أكبر من حبة الفول . وبعد أن يفركه بين إبهامه والسبابة حتى يتكوّن له رأس كرأس القلم يأخذ يصلح بـه بعض الخطوط أو الظلال ، وكثيراً مـا كان يستعيض عن الماحي باصبعه – بالسبابة أحيـاناً وأحيـاناً بالوسطى – ليخفف من ظل أو ليمد ظلاً . كل ذلك ووجهه مشرق بلذة العمل ، ولسانه جذل يجاري بالسرعة قلمه . وأنا ، إذ آنست منه تلك الرغبة في الكلام ، تركت له كل الحديث . فما كنت أقاطعه إلا لأستزيده .

« ليس يتعبني من كل من أصورهم مثـل النساء يا ميشا . فقلما ترضى الواحدة منهن بصورتها كما تراها عيني ويبرزها قلمي . لأنها ، إن تكن عليها مسحة من الجمال ، تتوقع مني أن أصورهـا أجمل من فينس . وإن تكن خلواً من الجمال ، تحسب من واجبي أن أجعلها جميلة . وأنا لا أسخر فني لأحد . فالمعاني التي أراها في الوجه الذي أمامي هي التي أصورها . والوجه يعكس كل معـاني الروح لمن يعرف كيف يستجليها . والفن كل الفن في تصويرها ، فهي مركبة من دقائق لا تحصى . تبصرها عين الفنان اذا كان أهلاً لأن يدعى فناناً وقلّما تبصرهـا حتى عين صاحبها . أما الآلة الفوتوغرافيـة فعمياء عن الكثير منها . ولو لم يكن الأمر كذلك لقامت الآلة الفوتوغرافية مقام الفنان . لكنها لا ولن تقوم مقامه . ومن الآن حتى انقضاء الدهر لن تقوم آلة مقام انسان .

« لا بد يا ميشا ، لا بد لي ولك من الرحيل عن هذه البلاد . فالويل لمن كان مجهولاً فيها لأنه ليس أثمن من خرقة . والويل لمن نال فيها ولو بعض الشهرة لأنـه يصبح مثل ممسحة . أنا اليوم ممسحة يا ميشا . ونفسي تطالبني

بعزتها . وفكري يطالبني بحريته . وجسمي يطالبني براحته . ولن أستعيد عزة نفسي وحرية فكري وراحة جسمي إلا في لبنان . ولو كنت تعرف الصومعة التي اخترتها لي والك هناك لكنت تجذبني من يدي في هذه الدقيقة وتقول : هيا بنا اليها . هي صومعة أصلية يا ميشا لا تقليدية كصومعتي هذه . »

فقلت بلجاجة : « هات أخبرني عنها بالتفصيل . »

« هي دير قديم مهجور في ضاحية من ضواحي بشري اسمه مار سركيس قائم في جبهة وادي قاديشا ، في سفح جبل الأرز . أما غرفه القليلة ، ومنها كنيسة صغيرة ، فمحفورة حفراً في قلب الجبل الكلسي . وأمامه منحدر من الأرض لا تزال فيه بعض أغراس قديمة من الكرمة . هي خلوة يا ميشا لا أظن في السماء أجمل منها . وأنا قد فوضت محامياً في طرابلس ليبتاعها لي لكنني أخشى من الرهبنة – قاتل الله الرهبان والرهبنات – أن تمتنع عن بيعها لي . لأنني ، كما تعلم ، رجل كافر في نظر الرهبان والرهبنات . مع ذلك ، لي ثقة كبيرة بصديقي المحامي . فهو لا شك سيدبر الأمر بحنكة ودراية .

« هناك سنعتزل العالم يا ميشا . وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم . وسنكتب ما شئنا أن نكتب . وسنقتني مطبعة كاملة المعدّات نذيع بواسطتها أحلامنا للناس . وسنجعل من الطباعة فناً جميلاً . وسنعمل في الأرض فنحوّل اليابس منها أخضر . والقاحل خصباً . وستباركنا الرياح ، وتفرح بنا الشمس ، ويحمل الينا الوادي أنفاسه الملهمة . »

قلت وقد شاقني وصف جبران لتلك الصومعة ، وأيقظ في نفسي أمنية قديمة عميقة :

« نحن اليوم في تشرين الثاني من سنة ١٩٢٢ . فما قولك لو استقبلنا ربيع السنة القادمة على كتف وادي القديسين ؟ »

فأجابني ، وكان في جوابه شيء من التردد . وكان تردده كالماء تصبه على نار متأججة : « لي علاقات كثيرة هنا لا يمكنني قطعها في شهر أو أشهر . وعندي بعض أشغال لا بد من تتميمها . ومنها نشر كتابي - النبي . »

قلت : « ما زلت ههنا فعلاقاتك تزداد من يوم ليوم . وما دامت لك اليوم أشغال لا يمكن انجازها في لبنان فستبقى تولد لك أشغالاً جديدة من نوعها . فلا تسكن مار سركيس إلا في أحلامك . »

« لا بـل سأسكنه - سنسكنه يا ميشا - بالجسد . اذا كنتَ قد مللت هذا العـالم - عالم الماكينات والخيـالات - فأنا قـد مللته مثلك وأكثر . وأنت وأنا لم نجـد منه ملجأ أجمـل وأهنأ وأقدس من مـار سركيس . وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبها . »

قلت : « لقد جعلتني أحبهـا منذ الآن . وستزورهـا أحلامي مراراً عديدة قبل أن تزورها عيناي وتطأ ترابهـا قدماي . ألا قرّبنا الله منها أو قرّبها منا . »

تحدثنا طويلاً في مـار سركيس . ولا شك في أن الأقدار التي كانت تصغي لحديثنا كانت تضحك منا . لأنهـا كانت تعلم أن جبران لن يدخل تلك الصومعة إلا محمولاً على الأيدي ، وفي نعش من صنع تلك الماكينات التي كان يود أن يهرب منهـا . وانني لن أزورها لأنقطع فيها الى التأمل . بل لأطرح سلامي على جثمان رفيقي معطراً بأنفاس طاقة جمعتها بيدي من أزهار جبل الأرز المقدس .

المصطفى

عندما أطل جبران بخياله على عالم الوحدانية الكاملة ، حيث الحياة ألفة أبدية ، تضاءلت في عينيه كل العوالم التي سكنها من قبل والتي كان يحسبها حقيقة ولم تكن إلا وهماً . وصار اذا ما ذكرها فكما يذكر الطائر قشرة البيضة التي نقف منها . أو كما يذكر النهرُ الصخورَ والأدغال والأوحال التي مرّ بها قبل أن يبلغ البحر . أو كما يذكر من تسلق جبلاً الأودية والهضاب التي اجتازها قبل أن يدرك القمة . وصار كيفما أطلق خياله في جوّ عالمه الجديد رأى كل ما فيه يعانق بعضه بعضاً عناق محبة لا حواجز فيها ولا حدّ لها . فراح يمجد الحياة – وقد دعاها من قبل عاهرة – ويهتف من أعماق قلبه :

« ما أكرم الحياة وما أسنى هباتها !

« ليت لي ألف يد منبسطة أمام السماء والأرض بدلاً من هذه اليد المستحيية القابضة على حفنة من تراب الشاطىء . » – ويشتهي لو كان له ألف عين ليرى كل ما في الحياة من جمال . وألف أُذن ليسمع كل أنغامها الساحرة . ولأنه شاعرٌ – وداء الشاعر بث مشاعره وأفكاره بالكلام ، ولأنه مصور – ومحنة المصور تصوير ما يراه من الحياة ، راح يفكر في « كيف » يخبر الناس بالكلام والخطوط والألوان عن الجمال الذي رآه في عالمه الجديد .

و « كيف » هذه ذات قيمة عظيمة في نظر الشاعر والفنان . اللهم اذا كان الشاعر شاعراً والفنان فناناً . فهي من الشعر والفن بمثابة الجسد من الروح . وهي لا تنحصر في تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والألوان . بل هي القالب الذي يُفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والألوان من بعد التنسيق . والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه ، لعلمه أن جمال القالب يزيد في جمال ما يُسكب فيه . لذلك عندما تنسم جبران بخياله جمال الروح الكلي ، وشاقه أن يخبر الناس عنه ، كان همه الأكبر أن يخلق القالب الفني اللائق به . فما هو القالب الذي خلقه ؟

لقد خلق جبران رجلاً دعاه « المصطفى » وجعل روحه نيّرة الى حد أن سامعيه كانوا يخاطبونه « يا نبيّ الله » . وفي انتقاء الاسم وحده ما يحمل على التجلة والاحترام . فكلمة تسمعها من فم انسان عليه وشاح النبوءة لأكبر وقعاً بما لا يقاس من الكلمة عينها تسمعها من رجل عادي . وهكذا ، بكلمة واحدة ، رفع جبران الفنان قيمة شعر جبران الشاعر الى مستوى النبوءة حتى قبل أن يفوه به .

لكن جبران الفنان عرف كيف يخلع على مصطفاه وشاح النبوءة . فهو يُبوزه لك رجلاً غريباً في مدينة اسمها « اورفليس » صرف فيها اثنتي عشرة سنة في انتظار سفينته التي كانت قادمة لتعود به الى الجزيرة التي هي مسقط رأسه . ثم يصعد به أكمة خارج المدينة حيث يبصر سفينته مقبلة في الضباب . فيفتح لك قلبه ويريك ما يتمايل فيه من العواطف المتضاربة بين لذة الانعتاق من الغربة وألم الوداع . فتفهم الى أي حد أحب مدينة

غربته وأهلها والى أي حد أحبوه . ومن بعد ذلك يهبط بـه المدينة . واذ يبصره أهلها ويدركون أنه مودّع يتركون كل أعمالهم ويتقاطرون اليه ويلحون عليه بالبقـاء بينهم . فلا يجيبهم إلا بالصمت والدموع . وأخيراً يسير واياهم الى السـاحة الكبيرة أمام الهيكل . وهنـاك تخرج من الهيكل رائية اسمهـا « الميترا » . فيرمقها المصطفى بحنان كلي « لأنهـا كانت أسبق الناس الى اكتشافه والايمان بـه حين لم يكن قد مرّ عليه في مدينتهم إلا يوم واحد . »

الميترا هذه تدرك أن لا مردّ لعزم المصطفى لأنهـا تعرف عظم شوقه الى « أرض تذكاراته ومسكن أمانيه الكبرى . » فتطلب اليه أن يحدثهم قبل الوداع عن أنفسهم وعما عرفه بالوحي من كل مـــا هو بين الولادة والموت ، بادئـة بالحب أو المحبة . وهكذا تفتح المجال فسيحاً للمصطفى ليكشف لسامعيه علائقهم بعضهم مع بعض ومع الحياة ، لا كما يرونهـــا بأعينهم المقنّعة بالأوهام ، بل كما يراهـــا هو بعين روحه الصافية في عالم الروح الصافي . فيمضي في حديثه الطلي . ولا ينتهي من علاقـة حتى يسأله بعض السـامعين أن يحدثهم في أخرى . وبعد أن يلقي عليهم خمساً وعشرين موعظة في خمس وعشرين جهة من جهات الحيـاة الانسانية يودعهم وداعاً مؤثراً وينصرف عنهم الى بلاده .

هذا هو القـالب الذي اختـاره جبران ليسكب فيه خلاصة أفكاره في الناس وحياتهم . وهو ، كما ترى ، قالبٌ جميل يليق بما يحمله ، وما يحمله يليق به . لكنه — ويا للأسـف — لم يكن كله من صياغة جبران . فشكله الاجمالي مستعار مـن نيتشه وزرادشته . فكأن جبران الذي تخلص من

سطوة أفكار نيتشه لم يتخلص من سطوة أساليبه البيانية والفنية . ولم يكن يعلم أنه لم يتخلص .

نيتشه اتخذ زرادشت – وهو نبي – بوقاً لأفكاره . وجبران اتخذ نبياً دعاه « المصطفى » .

زرادشت نيتشه يسير غريباً بين الناس ناثراً عليهم أفكاره . وعندما تتعب روحه من الغربة بينهم وتحن الى العزلة الملهمة يتركهم ويعود الى « جزائره السعيدة » . ومصطفى جبران ينثر مواعظه على الناس ثم يعود بعد غربته بينهم الى « الجزيرة التي هي مسقط رأسه . »

زرادشت نيتشه يودع تلاميذه في آخر القسم الأول من الكتاب ويقول لهم في ما يقوله : « وأنا لن أعود اليكم إلا متى أنكرتموني كلكم . » ومصطفى جبران يودع أصحابه قائلاً في بعض ما يقوله لهم : « أما اذا تلاشى صوتي في آذانكم ، وطار حبي من ذاكرتكم ، فإني عائد اليكم مرة ثانية . »

زرادشت نيتشه ، في أول القسم الثالث ، يتأهب للعودة من الجزائر السعيدة الى العالم . فيصعد جبلاً عالياً وفي صعوده يكشف قلبه وآلامه . ثم يشرف على البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر القاتم ، الحزين ، المنبسط تحتي ! أيها القدَر وأيها البحر ! اليكما أنحدر الآن . » ومصطفى جبران يصعد هضبة خارج اورفليس ويخاطب قلبه طويلاً ثم يرى البحر فيخاطبه هكذا : « وأنت أيها البحر الشاسع ، أيتها الأم الهاجعة ، فيك وحدك السلام والحرّية للجدول وللنهر . سيدور هذا الجدول دورة بعد سيهمس بعد همسة في هذه الغاب . ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد . »

وكما أن زرادشت هو نفس نيتشه ، كذلك المصطفى هو نفس جبران . وكما أن نيتشه طرح على زرادشت نقاباً من التمويه الرمزي والمجازي يحجبه عن عيون الذين يجهلونه من قارئيه ، هكذا طرح جبران على المصطفى نقاباً من المجاز والرموز يحجبه عمن ليس يعرفه . أما من عرف جبران كما عرفته فلا يصعب عليه أن يراه ويرى بعض ظروف حياته وكل أشواقه في المصطفى وظروفه وأشواقه . فما اورفليس التي كان فيها غريباً يترقب رجوع سفينته إلا نيويورك أو أميركا . وما « الميترا » التي اكتشفته وآمنت به قبل كل الناس إلا ماري هاسكل . ولا « الجزيرة » التي كان يشتاق العودة اليها غير لبنان . ولا وعده لأهل اورفليس بأنه سيعود اليهم سوى إيمانه بعقيدة التناسخ القائلة ان الموتى الذين لم ينهوا دورة الحياة الكاملة يعودون حتماً الى الأرض ليجددوا عليها ويكملوا العلائق التي تركوها عند موتهم . ولك ، ان أنت شئت ، أن تتخيل في غربة المصطفى في اورفليس غربة الروح عن ربها اثناء دورتها الأرضية . وأن ترى في عودته الى « الجزيرة » عودته الى مصدر الحياة الأسمى . فالشاعر يترك المجال فسيحاً لخيالك . وفي ذلك سرّ من أعظم أسرار فنه .

لئن دفع جبران في كتابه « النبي » جزية كبيرة لنيتشه من حيث القالب فهو من حيث الروح التي سكبها في ذلك القالب لم يدفع جزية إلا لخياله . أما تلك الروح فهي من ينبوع الروح الفياضة الذي تستقي منه كل روح . فاذا ما رأيت تشابهاً فائق الحد بين ما يبديه جبران من النظرات بلسان المصطفى وبين ما تقرأه في آثار بعض الصوفة ، وبالأخص في كرازة بعض الأنبياء والرسل ، فلا تتسرع بحكمك على جبران ولا تقل إنه قد

نقل ما ليس له . بل قل إنه قد تناوله بخياله من حيث تناوله من قبل ، ويتناوله اليوم ، كل خيال انعتق من كابوس المقاييس والموازين وجميع ما تقيسه من المحدودات المتناقضة . فهو من هذا القبيل لم يأت بشيء جديد ـ وهل من جديد تحت الشمس ؟ لكنه قال ما قاله بأسلوب يكاد يكون جديداً بنضارته ، وانسجامه ، وجمال ألوانه واتساقها ، ووفرة أنغامه وائتلافها ، مع قلة كلامه ، وقوة الحياة النابضة في كل نبرة من نبراته ، وسكتة من سكتاته . حتى انك لو شئت أن تجد فيه عيباً يستحق الذكر لما استطعت . إلا اذا قصدت التنكيت والتعنت . أو كنت ممن لا يستسيغون كثرة الطلاء في الكلام . فقد تعيب عليه وفرة المجاز والاستعارة والكناية . وحينئذٍ ليس أسلوب « النبي » عندك غير طلاسم في طلاسم . لأن جبران في هذا الكتاب ، أكثر منه في أي كتاب آخر ، بلغ أقصى مقدرته الفنية في انتقاء التشابيه المبتكرة وابتداع الاستعارات والمجازات الناتئة كتماثيل محفورة في صخر . لكنها تماثيل مبهمة لمن لا ميل فيه الى مثل هذا النوع من الفن . أو لمن حرم التمتع بها في حلتها الانكليزية . فهي في الترجمة تفقد الكثير من روعتها وطلاتها لا سيما اذا كان المترجم قليل الحظ من الذوق الفني وقصير الباع في اللغة التي يترجم منها أو اليها .

وماذا الذي قاله جبران بلسان نبيه ؟

في « النبي » أشرف جبران بخياله على الحياة فرأى جوهرها واحداً وهو المحبة . ورأى الناس شركاء أسواء في جوهرها لا يتميز واحدهم عن الآخر إلا بقدر ما أدرك الواحد ذلك الجوهر وجهله الآخر . وهذا الجوهر يذيع ذاته لكل الناس على السواء . لكن بعضهم لا يسمعه ولا يبصره لكثرة ما

في أذنيه من أصوات الحس المشوشة ، وما على بصره من غشاوات الوهم الكثيفة . أما الذي طهر أذنيه من جلبة الحواس الخارجية ومزق غشاوات الوهم عن بصيرته فليس يسمع أو يبصر من الحياة إلا جوهرها الصافي . وعندئذ فهو لا يحب بعضها ويكره بعضها بل يحبها بكليتها ويمتثل لها فيصبح واحداً وإياها .

لذلك يقول المصطفى لأهل اورفليس :

« اذا ما أحببتم فلا تقولوا : ان الله في قلوبنا . بل الأحرى بكم أن تقولوا : اننا في قلب الله . »

ومن كان في قلب الله هل يرى من فاصل بينه وبين انسان ؟ أو َلا يصبح كل انسان فيه وهو في كل انسان ؟ ومن كان كذلك كيف له أن يقول : أعطيت فلاناً أو أخذت من فلان ؟ أو َليس هو الآخذ عندما يعطي والمعطي عندما يأخذ ؟ واذ ذاك ففضل من يعطي كفضل من يأخذ — لا أكثر ولا أقل .

ومن كان في قلب الله كيف له أن يدين أثيماً بإثمه ؟ أفي الله إثم ؟ — حاشا . إنما الاثم في الانسان الذي لم يتوصل بعد الى ذاته الالهية . والناس في الاثم سواء :

«أنتم لا تقدرون أن تفصلوا بين العادل والظالم ، وبين الصالح والشرير . من شاء منكم أن يرفع الفأس على شجرة ليقطعها باسم الصلاح عليه أن يتفقد جذورها أولاً . الحق أقول لكم انه يجد الجذور الصالحة والطالحة ، والمثمرة وغير المثمرة ، ملتفة معاً في قلب الأرض الصامت ... وكما أن ورقة واحدة

على الشجرة لا تصفر إلا بمعرفة الشجرة كلها ، هكذا لا يرتكب احدكم جريمة إلا بارادتكم الخفية المشتركة . »

ومن كان في قلب الله كيف له أن يقيم حواجز بين شيء وشيء ، حتى بين نفسه وبين ما يأكله ويشربه ؟ :

« ليت لكم أن تحيوا بأريج الأرض ... ولكنكم ما دمتم مضطرين الى القتل لتأكلوا ، والى سلب صغار البهائم حليب أماتها لتطفئوا عطشكم ، فليكن أكلكم وشربكم نوعاً من العبادة . ولتكن موائدكم مذابح تقدمون عليها الطاهر والبريء من مواليد الغاب والسهل ذبائح لكل ما هو أطهر وأكثر براءة منه في الانسان ... وعندما تذبحون بهيمة قولوا لها في قلوبكم : ان القدرة التي تذبحك تذبحنا ... وما دمك ودماؤنا إلا العصير الذي يغذي شجرة السماء . »

الى مثل هذا المستوى يرفع المصطفى سامعيه . مستعيناً في حديثه بالطبيعة ومظاهرها . وماسحاً لهجته بمسحة ظاهرة من لهجة بعض أسفار « العهد القديم » ومستعيراً من الانجيل بعض الرموز والقوالب اللفظية مثل : « لقد قيل لكم كذا و كذا أما أنا فأقول لكم كيت وكيت ... والحق الحق أقول لكم » وسواها . إلا أنه يفعل كل ذلك بحذاقة ولباقة وفن تنسيك ما في حديثه من مستعار ، وتحملك على أجنحة قوية سريعة الى حيث تقصد أن تحملك . فلا تودّع المصطفى إلا تحس بأنه قد أودع حشاشتك حشاشة السنين التي صرفها في التأمل والألم . وانه – ان كنت مغمض الروح – قد فتح في روحك كوّة واسعة تطل منها على الروح الكلي .

وضع جبران لكتابه « النبي » اثني عشر رسماً . عشرة منها بالأدهان المائية واثنان بالرصاص ، وهما رسم المصطفى في أول الكتاب و « اليد المبدعة » في آخره . أما المصطفى فأول ما يستوقفك من وجهه عينان واسعتان ذاهلتان تبدوان كأنهما لا تنظران الى شيء ولكنهما تبصران ما هو أدقّ من الأشياء وأقصى من مجال الأبصار . ثم تنظر الى فمه بشفتيه المتلاصقتين فتكاد تحسبهما متورمتين بحمى الشهوات الجسدية لولا ما فيهما من حزن عميق وصمت يترفع عن الشهوات وكل ما فيها من ضوضاء النزاع والغيرة والاستقتال . وعلى الوجه كله ، بما في تقاطيعه من صلابة وقوة ، تطفو سحابة شفافة من الكآبة القصوى التي تكاد تلامس الفرح الأقصى . أما الشعر فقد انسدل عن جانبي الوجه الى تحت الذقن بسهولة وخفة ونعومة تنسيك أنه شعر وتجعله يبدو كهالة من نور . هو وجه تحدق اليه طويلاً فترى فيه ميدان عراك عنيف بين ما استتر تحته من أهواء الأرض وأشواق السماء وترى الغلبة بجانب السماء . لكنها غلبة لم تلتئم بعد الجراح التي سببتها . ولم تُلحد بعد الأشلاء التي تركتها مبعثرة في ساحة القتال .

وأما « اليد المبدعة » فيدٌ منبسطة تكاد تلمس قوة الفن في كل اصبع من أصابعها . وفي وسط كفها عين مفتوحة تبصر كل شيء . ومن حولها دائرة من الأجنحة المتلاصقة بأطرافها وكأنها في زوبعة من الحركة السريعة . ومن حول الأجنحة سديم أو ضباب تطوقه دائرة من الأجسام البشرية المشتبكة بعضها ببعض . هذه يد الله . في لمسها بصر . وفي بصرها خيال . تتخيل الأشكال قبل أن تكوّنها . ثم تلمس السديم فتكوّن الأشكال .

ولعلّ جبران عندما وسم هذه اليد ، عاد بالذكرى الى « يد الله » من صنع رودين . لكنه اذا ما أخذ منها الفكرة الأساسية ، فقد أعطاها من فنه كياناً استقلت به كل الاستقلال عن يد رودين .

ما بقي من الرسوم قد جاء بمثابة تعليق على المتن ، وأحياناً بمثابة متن فوق المتن ، فيه رموز بعيدة ، وانسجام فني بديع . ولكن في تقاطيع بعضه نعومة تبلغ درجة من الاسترخاء والأنوثة قد تستحبها في فن امرأة إلا أنك تستهجنها في فن رجل . أما من حيث قوتها الرمزية ، والفكرة التي ترمي اليها ، فلا يسعك إلا أن تجلها وتكبر الخيال الذي تخيلها واليد التي أبرزتها أمامك أشكالاً محسوسة . مثال ذلك رسم الألم . وهو يمثل امرأة مصلوبة على صدريْ رجلين تحبهما بالسواء أو يحبانها بالسواء . فلا هي تستطيع أن تقسم قلبها بينهما . ولا الواحد منهما يرضى بأقل من قلبها كله . ولعمري هل من ألم أشد من ألم الحب الذي يصبح صليباً للمحب ؟ بل هل أعذب من الحب يقود المحب الى آلام الصليب ، ومن آلام الصليب الى غبطة المحبة العلوية ؟

***

قبل أن سلم جبران « النبي » الى الناشر بشهر أو شهرين أعطاني نسخة منه مكتوبة على ماكنة الكتابة . وأرسل مثلها الى ماري هاسكل لتنظر فيها وتهديه الى كلمات قد يكون أساء استعمالها أو عبارات قد لا يكون قالبها انكليزياً بحتاً . وتلك كانت عادته معها في كل كتاباته الانكليزية . أما النسخة التي أعطاني اياها فكان قصده منها – وان لم يكشفه لي بالتمام – أن أدرس الكتاب درساً وافياً وأقول فيه كلمة عند صدوره . وكان قد

قرأ لي كل موعظة من مواعظه حال فراغه من تأليفها – ما خلا الفاتحة والخاتمة . لكنني بعد أن قرأت الفاتحة والخاتمة ورأيت جبران يحدث عن نفسه في تلك وهذه استنكرت منه أن يصور نفسه « نبياً » حتى تحت نقاب من التمويه الفني . فلو أنه اتخذ من المصطفى بوقاً لا غير لأفكاره وأشواقه لهان الأمر . ولقلت إن جبران الفنان والشاعر شاء أن يصور نبياً ويكشف عن روح نبي . كما نصور أمراً نرغب فيه ونقصر دون الوصول اليه .

لكن جبران ربط ظروف حياة المصطفى بظروف حياته وصوّره كمن بلغ في الواقع الحالة الروحية التي يحدث عنها . فكأنه صوّر نفسه بالغاً تلك الحالة لا بخياله فقط بل في كل أحوال معيشته وأدوارها . ولأنه خلع عليه وشاح النبوءة فكأنه خلعه على ذاته أيضاً .

قد يكون أن جبران لم يقصد هذا القصد . لكن ذلك ما تؤديه فاتحة الكتاب وخاتمته . وذلك ما أدّاه الكتاب كله الى أذهان الكثير من الناس وبالأخص أولئك الذين كتبوا فوق ضريحه في مار سركيس هذه الآية :

« هنا يرقد نبينا جبران »

وكأنه قام لهم من يحاسبهم عن الضمير في « نبينا » الى أين يعود . فغيروا الكلمة الى « بيننا » . وهي التي قرأتها عندما زرت الضريح في صيف سنة ١٩٣٢ .

حصة في السماء وحصص في الارض

رَحلَ « النبي » عن قلب جبران فتسلمته المطابع ولفظته ، في خريف سنة ١٩٢٣ ، كتاباً صغيراً ، بسيط الهندام ، جميله ، وأرسلته في الشعاب التي تدرج عليها مواليد المطابع في هذه الأيام والتي يحفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان فلا يبقيان منها إلا على القليل القليل . وكان جبران قد فرش لكتابه الجديد بساطاً من الدعاية المستطرفة التي تنسيك أنها دعاية لما فيها من جواذب اللطف والدماثة والفن . ففي نيويورك وحدها من مدن الولايات المتحدة جمعيات وحلقات وأندية و « صالونات » لا تحصى تدعي علاقةً مابجهة ما من جهات الفن أو الأدب أو الدين وما ينتمي اليها . بعضها للنساء ، وبعضها للرجال ، وأكثرها مشترك بين الرجال والنساء الذين يروقهم أن يسرقوا من ساعات أعمارهم المهدورة في سبيل الجسد ومنازعه بضع ساعات في الأسبوع يتلهون فيها بما يحسبونه أرفع من حاجات الجسد وملذاته . وبذلك يوهمون أنفسهم أنهم من طينة أنقى وأشرف من سائر الناس ، وأنهم «يوفون قسطهم للعلى» . ولا يخفى ما في ذلك الوهم من لذة التخدير والاغترار بالنفس .

من عادة تلك الجمعيات والحلقات والأندية والصالونات – على ما بينها من تفاوت في المراتب – أن تتبارى في دعوة الشعراء والكتّاب والفنانين لالقاء المحاضرات ، أو للقراءة من مؤلفاتهم . وجبران كان لا يردّ دعوة

للقراءة حتى اذا جاءته من هيئة يستصغرها أو يحتقرها . وان هو تلكأ في ذلك كان ناشر كتبه يحثه أن لا يهمل فرصة تمكنه من الظهور بين الناس ، لأنه يعرف أن اسم الكاتب اذا شاع على ألسنة الناس كان من أقوى العوامل في ترويج كتاباته . والكاتب الذي كثر معارفه راجت مؤلفاته . لا سيا اذا كان معارفه من ذوي « النفوذ » . لذلك ما صدر « النبي » إلا بعد أن كان جبران قد قرأ فصولاً منه في أندية أميركية عديدة .

أما بين اخوانه المهاجرين في الولايات المتحدة فقد كان لجبران في « السائح » أكبر بوق وأعظم نصير . وجبران كان يعرف كيف ينتقي الأخبار التي كان يقصد اذاعتها عن نفسه في السائح من غير أن يجعل صاحب السائح يشعر بقصده . وصاحب السائح ، من فرط حبه لجبران ، كان يأخذ عنه الخبر ويبرزه في الجريدة بأسلوب منمق يزيد في أهميته أضعافاً . فكان من جراء ذلك أن أقبل السوريون المهاجرون على كتب جبران الانكليزية – والنبي بوجه خاص – يبتاعونها لأنفسهم ويهدونها الى بعض معارفهم من الأميركان آملين بذلك أن يرفعوا مقامهم في نظر جيرانهم وعملائهم من أهل البلاد . فكأنهم كانوا يقولون لهم : « انظروا . فمؤلف هذه الكتب ابن جلدتنا وابن لغتنا . وهو يجيد لغتكم خيراً منكم . فما نحن بالقوم الخاملين كما تتوهمون . » وذلك أبداً شأن الضعيف يباهي بعزم ابن عمه أو ابن خاله . وشأن الأقرع يفاخر بشعر أخيه أو جاره . والمفلس يذكرك بما كان عليه من الثروة آباؤه وأجداده .

من الأخبار التي أذاعتها « السائح » عن « النبي » خبر قراءته في كنيسة أميركية في نيويورك ، فقد كان منه ، ومن شتى الروايات التي نقلتها

الصحف العربية عنه ، أن اعتقد الكثير من الناس بأن « النبي » أصبح في أميركا كتاباً كنسياً مقدساً . الى حد أن البعض في لبنان كان يسألني بكل جد :

« أصحيح أن « النبي » قد حل في كنائس أميركا محل الانجيل ؟ ! »

أما حقيقة الخبر فهي أن في نيويورك كنيسة أسقفية (أبيسكوبالية) تدعى كنيسة القديس مرقس في الباوري . وهي من أقدم الكنائس في المدينة . ولها قسيس اسمه وليم غثري . ولهذا القسيس نظر غريب في العبادة وطقوسها وأساليب تحبيبها الى الناس . فهو يرى أن طقوس الكنيسة لم تعد تفي بغايات الناس في هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع الملاهي . وأن الناس يتوانون في تأدية فروضهم الدينية لأنها متحجرة وقاسية بالنسبة الى ما في روح العصر من المرونة واللين . لذلك رأى أن يجعل من كنيسته شبه مسرح ، أو هيكل يوناني قديم ، فيه الرقص ، وفيه الشعر ، وفيه التمثيل – حتى ومناجاة الأرواح . مدّعياً أن في ذلك « جمالاً » . وأن الجمال في كل مظاهره يبعث على التخشع والعبادة . فقد شهدت هناك مرة امرأة جاء بها غثري كانت تدّعي أن الأرواح توحي اليها الشعر . فكان من شاء من الحضور أو « المصلين » يعطيها « موضوعاً » . وهذا الموضوع قد يكون كلمة ، أو عبارة ، أو اسم علم أو أي شيء آخر . فتذهل هنيهة ثم ترشقك « برباعية » تتسابق مفرداتها من فمها تسابق الرصاص من فم المتراليز . وليس في الرباعية معنى ، والشعر منها براء . غير أن الحضور كانوا مبتهجين لمثل هذه الفرجة ، وكانت الكنيسة غاصة بهم حتى الأبواب .

لقد نجح غنري نجاحاً باهراً من حيث اكثار عدد « المصلين » في كنيسته لاسيما من بعد أن اصطدم بمطران الأبرشية الذي شجب أعماله ، وهدده بالحرم والتجريد من حلله الكهنوتية ان هو لم يقلع عنها . فتناولت الصحف الخلاف ووسعت خرقه . فازدحمت كنيسة غنري « بالمصلين » والمتفرجين وطارت « شهرته » في البلاد من أدناها الى أقصاها .

ذات أحد دعاني جبران مع نسيب عريضه وعبد المسيح حداد الى كنيسة القديس مرقس هذه ، قائلاً إنهم سيقرأون من بعض كتاباته في خلال الخدمة وسيمثلون « النبي » . فذهبنا . وكان أول ما سمعناه هناك من كتابات جبران قصيدته المنثورة في « الليل والمجنون » . وهي قطعة لا صلة بينها على الاطلاق وبين ما اعتاد الناس سماعه في الكنائس . اذ لا علاقة لها بالدين لا بمعناه المحصور ولا بمعناه الواسع . فكان رجل ينشد ما يقوله « المجنون » على توقيع الأرغن . فيجيبه آخر بلسان « الليل » . وهكذا حتى آخر القصيدة . وعند انتهاء الخدمة ظهر على المسرح رجل في قميص أبيض عرفنا أنه يمثل « المصطفى » . وهذا الرجل أخذ يجيل بصره ذات اليمين وذات اليسار ، ثم راح يخاطب نفسه بما يخاطب « المصطفى » نفسه في أول الكتاب وذلك بصوت غير طبيعي وبلهجة تمثيلية خالية من الروح . وبعد قليل أقبل عليه نفر من رجال « اورفليس » ونسائها وفي مقدمتهم امرأة في حلل بيضاء عرفنا أنها الميترا . فألقى المصطفى موعظتين أو ثلاثاً من مواعظه . وبها اختتم « الرواية » .

عندما خرجنا من الكنيسة أبديت لجبران أسفي على أن الممثلين قد شوهوا ما حاولوا أن يمثلوه فوافقني جبران في ذلك لكنه أضاف :

« ولكن ، يا ليتك شهدت يا ميشا تمثيل « النبي » في كلية سمث للبنات . فقد أجاد البنات في تمثيله ايما إجادة . أما هؤلاء فليسوا بممثلين . »

إلا أن « النبي » ، وان ساعدته الدعاية ، ليس من الكتب التي لا تعيش إلا بالدعاية . ولا من الكتب التي تموت على دواليب المطابع فلا تحييها لا الدعايات ولا الاعلانات . بل ان فيه من عصير الفكر الصافي ومن وهج الخيال المتوقد ما يكفل له حياةً مترامية الأطراف ، متعددة الأصداء ، موفورة بالسنين . فجبران قد عرف كيف يجعل منه شجرة كاملة بفروعها وأغصانها ، وكيف يدفن جذورها في تربة الحياة البشرية حيث تبقى حية ما دامت البشرية حية . فما دام الناس يولدون ويموتون ، ويأكلون ويشربون ، ويحبون ويتزوجون ، ويفرحون ويحزنون ، — ما دام الناس ناساً سيبقى بينهم من يفتش عن معاني الحب والزواج وسواهما من علائق الحياة ، ومن يرتاح الى تفسيرها كما هي مفسرة في « النبي » . وقد يبوخ أسلوب الكتاب الرمزي والمجازي كما باخت من قبله أساليب بيانية كثيرة . أما جوهره فلن يبوخ .

وكأني بجبران ، بعد أن أسلم « النبي » الى العالم ، تنفس الصعداء وقال في قلبه : « الآن قد لفظتها ! » — والضمير عائد الى « الكلمة » التي كان يحسها في فمه فلا يطلقها إلا بعد أن يتثبت من أنه قد أودعها خلاصة روحه وجوابه الأخير لنفسه عن الحياة وكنهها وزبدتها . فقد عرف أن الحياة وحدة شاملة تتكسر عليها كل المقاييس الجزئية والفردية والزمانية والمكانية . وأنها في قطرة الماء مثلها في الأوقيانوس . وفي ذرة الرمل مثلها في الجبل . فهي لا تحد حتى في أصغر مظهر من مظاهرها . وكأني به

ذكر ما كان من شأنه معها قبل ذلك من تأفف وتفجع وثورة وعصيان فضحك من نفسه وقال :

« عندما طرحني الله حصاة في بحرة الحياة العجيبة أحدثت على سطحها دوائر لا تحصى . لكنني من بعد أن بلغت القاع أصبحت هادئاً . »

لقد كان على جبران ، وقد بلغ القاع ، أن يهدأ . لكنه لم يهدأ هناك ولم يستكن . لأنه لم يبلغ القاع إلا بخياله . فكان كموسى الذي أشرف على أرض الميعاد فوطئها بعينيه لا بقدميه . وذاق طعم لبنها وعسلها بروحه لا بفمه . أو كان كالغوّاص ينحدر الى قاع البحر مشدوداً بالحبال . فلا يتلمس القاع هنيهة من الزمن حتى تشده الحبال الى سطح البحر . والحبال التي كانت تربط جبران بسطح الحياة وما عليه من أمواج صاخبة وزبد متطاير كانت أشد من أن يقطعها خياله . وهذه الحبال ظلت تحز مفاصل أيامه ولياليه ، وتكبل أجنحة أحلامه وأشواقه ، وتحول دون السلام بين نفسه ونفسه حتى آخر حياته .

ان كلمة تطلقها من فمك تصبح شهادة لك أو عليك تجاه الناس . ان خيراً فخيراً وان شرّاً فشرّاً . وليس ينقضها إلا أعمالك . وجبران قد أدّى في « النبي » شهادة في نفسه تكاد تكون الكمال بعينه . فمن يشهد مثل تلك الشهادة عليه أن ينسى ذاته الفردية ليجدها في الذات العامة . فلا يبغض انساناً لأنه كل الناس . ولا يملك شيئاً لأن كل شيء له . ولا يهرب من الألم لأنه الطريق الى الخلاص . ولا يدين مجرماً لأنه يدين نفسه . ولا يطلب مجداً لأن كل مجد باطل . وان هو لم يفعل كل ذلك كانت شهادته كاذبة .

وجبران كان أدرى النـاس بذلك . فهو كان يعرف أن « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غـيره » – كما قال الإمام علي – « وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم النـاس ومؤدبهم . » ولأنه كان يعرف ذلك كان يتألم من نفسه القاصرة دون اللحاق بخياله ، ويعزيها بقوله انها ستعود الى الأرض لتتغلب في دورات تالية على ما استعصى عليها في دورتها هذه .

كان « النبي » لا يزال مخطوطة في حقيبة جبران عندما طغت عـلى الولايات المتحدة موجـة المقـامرة بالأطيـان والمسقفات . فكنت لا تسمع إلا بمن ابتاع أمس بيتاً أو قطعة من الأرض بألف دولار فباعه أو باعها في الغـد بألفين أو ثلاثة . فاندفع جبران مـع من اندفعوا بذلك التيار . وتشارك مع رجـل سوري في بوسطن في شراء بناية هناك . ودفعا نحو عشرة آلاف دولار من أصل ثمنها وبقي نحو أربعة أضعاف تلك القيمة ديناً عليهما . وتوفق الشريكان على الأثر الى سيدة استأجرت منهما البناية لتجعلها مركزاً لجمعية نسائية . وكانت قيمة الأجر المتفق عليها وافية لدفع الفوائد واستهلاك الدين في خلال سنين قلائل . إلا أن الشريكين اضطرا أن يحدثا في البناية تحسينات وتبديلات كثيرة لجعلها « لائقة » بتلك الجمعية وغاياتها . والتحسينات هذه كلفتهما من المـال قدر القسط الذي دفعاه من الثمن . لكنهما كانا يمنيان نفسيهما بأرباح طائلة . وهكـذا راح جبران يرى الثروة على قيد باع منه وفيها يرى الاستقلال المادي التام الذي كان يحلم به كل حياته .

ولكن سرعان ما انقلب الأمل الى ألم . فما هي إلا شهور حتى قصرت السيدة المستأجرة عن الدفع مدعية أن جمعيتها لم تنجح ، وأن آمالها بنجاح

تلك الجمعية كانت كل ما لديها من رأس مال . وإذ أن البناية لم تعد صالحة إلا لجمعية كتلك الجمعية تعذر على جبران وشريكه إيجارها . واذ لم يبقَ في أيديهما مال تعذر عليهما دفع الفوائـد واستهلاك الرهن . فذهب مالهما وذهبت أتعابهما هباء .

في تلك الأثناء كتب جبران إليّ من بوسطن يقول :

« ... يعلم الله أنني لم أصرف شهراً في غابر حيـاتي يماثل الشهر الماضي بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته . ولقد سألت نفسي مرات ما اذا كانت «جنيّتي» أو « تابعتي » أو «قرينتي» قد تحولت الى عفريت يعاديني ويقاومني ويوصد الأبواب أمامي ويضع العثرات في سبيلي . منذ مجيئي الى هذه المدينة العوجاء وأنا في جحيم من الدنيويات . ولولا شقيقتي لتركت كل شيء وعدت الى صومعتي نافضاً غبار الدنيا عن قدمي .

« ... غير أن الأمور التي أبقتني في هذه المدينة والتي تجبرني على البقاء عشرة أيام أخرى ، لا تتعلق بما كتبت أو بما قرأت أو سأقرأ بـل بأشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكاً وعلقماً وتقبض عـلى الروح بكف حديدية خشنة كالمبرد . »

هي ضربة استنزفت من جبران كل ما جمعه من المال بالجدّ والتوفير في خلال سنين طويلة . فضعضعت قواه ، وبعثرت أفكاره ، وأغلقت عليه أبواب إلهامه ، وأثقلت من وطأة مرضه . لكنه تلقّاها بصبر جميل وجأش رابط . ورأى أن لا مناص له من تجديد بنيان استقلاله المادي . فهجر القلم زماناً وعاد الى ريشته يستعين بها على رد خسارته . وكانت كتبه قد بدأت تدر عليه بعض المال . والخمسة والسبعون دولاراً من ماري ما برحت تأتيه في

كل شهر . وما هي إلا سنتان أو ثلاث حتى انتعش جيبه من جديد ، فلملم شعث أفكاره واسترد مفاتيح خياله ، وثاب الى محابره ودفاتره . وكان قد مضى عليه نحو ثلاثة أعوام لم يصدر له في خلالها كتاب . وهي سكتة طويلة ، في بلاد كأميركا ، لكاتب لا يرضى أن ينساه الناس وهو حي .

فأقبل جبران على شذور كان قد وضعها بالعربية في أدوار مختلفة من أدوار حياته . فترجمها الى الانكليزية وزاد عليها وأصدرها في سنة ١٩٢٦ في كتاب سمّاه « رمل وزبد » . وقد قال لي في ذلك الوقت إنه كان يشعر كما شعر الملك داود عندما مات ابنه من بتشابع – امرأة اوريا . فداود انقطع عن الطعام والشراب ، واستسلم للحزن في كل مدة مرض الصبي . أما عندما بلغه خبر موته « فاغتسل وادّهن وغيّر ثيابه » وأمر عبيده فجاؤوه بطعام وأكل قائلاً : « لما كان الصبي حيّاً صمت وبكيت لأني قلت من يعلم لعل الرب يرحمني ويحيا الصبي . وأما الآن فقد مات . فلماذا أصوم ؟ أفأستطيع أن أرده بعد ؟ »

وهكذا هو – جبران . فقد كان ، قبل أن تنتهي مشكلة البناية في بوسطن ، يعلل نفسه بأن يسترد منها ولو بعض ما دفنه فيها من ماله . لكنه ، بعد أن انتهت المشكلة ولم يبقَ له من أمل بأقل تعويض ، طرح خسارته من فكره وثاب الى أدبه وفنه .

لم يمضِ وقت طويل حتى ابتاع جبران أربعين حصة في البناية التي يسكنها في نيويورك . وهذه المرة كانت صفقته رابحة الى حد أنها عوضت عليه أضعاف خسارته في بوسطن .

الدبك

« الدّبْكْ » كلمة عامية شائعة في بعض جهات لبنان . وهي تعني حيلة يُقصد بها المزح اذا انطلت على المزوح معه . وأنا مدين بعنوان هذا الفصل لرشيد أيوب الذي نبش هذه الكلمة من خزانة تذكارات صباه فأدخلها على قاموس اخوانه في « الرابطة » والمقرّبين منهم . وأكثرهم لم يكن سمعها من قبل في حياته . وأنا مدين بالفصل كله لعبد المسيح حداد الذي كان يجيد هذا النوع من المزاح أيما إجادة ، لاسيما مع رشيد أيوب الذي دعاه لذلك « شيخ الثعالب » أو « الثعلبان » للمبالغة . وكلاهما خفيف الروح ، حاضر النكتة ، لطيف المعشر . فكم حالة عابسة بدلاها بحالة ضاحكة . وكم ساعة تدب ثوانيها في أصفاد من الهمّ والأسى جعلاها دقيقة ترفرف بأجنحة من الزهو والطرب .

كان النهار سبتاً . وكان عبد المسيح منهمكاً في اصدار عدد ممتاز من السائح . فمررت به بعد الغداء ، ومن لطخ الحبر على يديه عرفت أنه كان في المطبعة وأنه قد باشر الطبع بعد أن اكتملت لديه كل المواد . وكان آخر ما وصله منها أبيات لرشيد أيوب أطلعني عليها قبل ذلك بيوم فأعجبتني . وقرأتها لجبران بالتلفون فأعجبته .

كان عبد المسيح يحدثني عن تعبه المضنك في ترتيب « الممتاز » وتنسيقه والوقوف على طبعه . وكنت أقلب بعض الصحف على المنضدة أمامي .

فوقع في يدي عدد من جريدة « ألف باء » الدمشقية وفي صفحته الأولى عمود أبيض ضرب قلم المراقبة علـــى مـا فيه . تأملت ذلك العمود وأنا أعجب لسخافـة المراقبين وأقلامهم . وهنـا خطر لي أن في ذلك العمود الأبيض جرثومة صغيرة لـ « دبك » كبير أو لأحبولة ينصبها عبد المسيح لرشيد أيوب . فما كدت أبوح لعبد المسيح بما جال في خاطري حتى أطرق هنيهة ، ثم انتصب واقفاً ، وقد لمعت عيناه بنور الفوز . وبأسرع من لمحة الطرف خطف الجريدة من يدي هاتفاً : « عندي ! » وهرول خارجاً .

بعد دقائق عاد عبد المسيح وفي يده عدد ألف باء . واذا بالعمود الأبيض قد اسودّ . واذا بالسواد الذي فيه أبيـات رشيـد أيّوب التي قدمها للسائح الممتاز . وفي أعلاها بأحرف كبيرة هاتان الكلمتان : « لابن المعتز » !

أدركت في الحال ما فعله عبد المسيح . فقد ذهب توّاً الى المطبعة حيث كانت أبيات رشيد لا تزال منضدة . فحذف من أعلاهـا اسم رشيـد أيوب « العامـل في الرابطة القلمية » ووضع مكانه اسم ابن المعتز . وطبعهـا في العمود الأبيض كما تطبع « البروفا » فجاءت نظيفة ، منمنمة ، سوداء ، لا تميزها عما حواليها من مواد إلا عين خبيرة جداً بأسرار الطباعة وألوان الحبر وأشكال الأحرف .

وكان قد قرب ميعاد قدوم رشيد أيوب الى الادارة لينام هناك « دقيقته المعهودة » حسب عادته من بعـد ظهر كل يوم . فاتفقت وعبد المسيح أن نطرح الجريدة في سلة المهملات . وبعد أن يأتي رشيد أن نكلف رجلاً من غير الرابطة أن يجلس الى منضدة التحرير ويتظاهر كما لو كان يفتش من غير اكتراث عن صحيفة ما يتـلى بها . فينتشل مصادفة ذلك العدد من « ألف باء »

ثم يطرحه من يده الى الأرض . ثم يرفعه وقد وقع نظره على أبيات ابن المعتز . فيظهر لها اهتماماً كبيراً ويقرأها بصوت عالٍ لاغماً عبد المسيح لأنه يطرح مثلها في سلة المهملات بدلاً من أن ينقلها الى السائح حين أنه ينقل الكثير مما هو دونها .

وهكذا كان . فما دخل رشيد واحتل كرسيه وسند رأسه بكفه وراح يغازل إلاهة الأحلام حتى بدأ « المساعد » بتمثيل دوره . وما قرأ بيتين أو ثلاثة من أبيات « ابن المعتز » حتى أرهف رشيد أذنيه ورفع نظارتيه عن عينيه الى جبهته ، ثم هب عن كرسيه ، وبالرغم من سنيه الخمسين وثب وثبة واحدة الى القارىء واختطف الجريدة من يده . فما وقعت عينه على العمود الذي فيه أبياته حتى جمد في مكانه وقد جحظت عيناه ، وامتقع لونه ، واستولت الدهشة على كل عضلاته . هي لحظة لا توصف . لكنها لم تكن إلا لحظة أشرقت بعدها أسرّة رشيد ، وعادت نظارتاه من جبهته الى عينيه ، ومشى الدم في عروق وجهه . فالتفت الى عبد المسيح مقهقهاً وقال :

« آه يا ثعلبان ! هذا دبك ... لقد بلغت من فنك درجة هي العبقرية بعينها . »

ونحن في ذلك واذا بجبران يخاطب الادارة بالتلفون قائلاً إنه قادم بعد قليل . فاتفقنا بالبداهة أن « نلعب الدور » معه . وكان من نصيبي أن أمثل الجانب الأكبر من ذلك الدور .

وجاء جبران . فلم نبشّ له كالمعتاد بل استقبلناه بوجوه ارتسم عليها الحزن والهم والارتباك . إلا رشيد . فقد تظاهر كما لو كان لا علم له بشيء . وما هي إلا هنيهة حتى بدت الحيرة على وجه جبران كذلك . فأخذني جانباً

وسألني بالهمس : « ما الخبر ؟ » أما أنا فمن غير أن أجيبه بكلمة أخذته من يده ودخلت به غرفة محاذية . ومن بعد أن أغلقت الباب كمن يخشى أن يسمعه أحد ناولته عدد « ألف باء » وأشرت له باصبعي الى العمود المعهود وهمست له همساً : « اقرأ . » وجلست أرقب حركاته وأدرس التغيرات الطارئة على معاني وجهه . فما انتهى من القراءة حتى رفع إليّ عينيه وفيهما من الحيرة أخماس وأسداس . وقال :

« أليست هذه الأبيات أبيات رشيد التي قرأتها لي أمس بالتلفون ؟ »

« بلى . حرفاً حرفاً . »

« عجباً يا ميشا كيف ينتحل رشيد مثل هذه الأبيات وقد نظم في حياته ما هو أجمل منها بكثير . أوَليس من الممكن أنه قد نظمها من زمان وبعث بها الى ألف باء ؟ »

« هذا مستحيل يا جبران . فلا علاقة بين رشيد وألف باء على الاطلاق . وفوق ذلك فهو يعرف مثلما يعرف كل واحد منا أن ما ينشر في السائح الممتاز يجب أن يكون جديداً وخصيصاً بالممتاز . ثم ان رشيداً قال لعبد المسيح ولي إنه نظم هذه الأبيات منذ يومين وقضى ليلة كاملة في نظمها . »

« أنقول اذن إنه توارد خواطر ؟ أم نقول إن رشيداً حفظ القصيدة في حداثته ونسي أنه حفظها . وعندما جاء لينظم خطرت له معانيها ومع المعاني أكسيتها اللفظية فكتبها وهو يحسب أنه ينظمها . وهكذا انخدع من حيث لا يدري ومن حيث لا يقصد أن يخدع ؟ »

« أنت تستخف بنفسك وبي يا جبران عندما تأتيني بمثل هذه التعاليل . »

« ما كنت أحسب رشيداً يرتكب مثل هذه الفظيعة . »

« أما وقد ارتكبها فما العمل لتلافيها ؟ بماذا نجيب الناس غداً بعد أن يصدر « المتاز » ويروا أن أحد عمال الرابطة قد اختلس قصيدة برمتها ؟ وهل في العالم من الصابون ما يكفي لغسل هذه اللطخة عن اسم الرابطة ؟ »

« لنقل لعبد المسيح أن يهملها من العدد الممتاز . »

« ولكنها قد طبعت يا جبران ولا سبيل الى اسقاطها إلا بإتلاف الملزمة كلها . ومن ثم فماذا نقول لرشيد اذا صدر الممتاز ولم يرَ فيه أبياته ؟ أنقول له إننا عرفناه سارقاً فنبذناه ؟ »

« لا . لا . وألف لا . بل نقول له إن عبد المسيح أهمل أبياته من غير قصد . ثم ننشرها في عدد عادي . فقد تعوّد الناس أن لا يقرأوا في الممتاز إلا مواد جديدة . أما الأعداد العادية فليس لها من المكانة والتأثير ما للأعداد الممتازة . »

« وهكذا نبقى حيث كنا . وتبقى اللطخة على اسم الرابطة . ويبقى رشيد سارقاً . — لا . لا يا جبران . هذا عذر أقبح من ذنب . »

« اذن لتصدر القصيدة في الممتاز باسم رشيد . وفي أول عدد من السائح يصدر بعده ليعلن عبد المسيح أنه قد ظهرت خطأ في الممتاز قصيدة تحت اسم رشيد أيوب وهي لابن المعتز . »

« وبذلك نكون كمن يحاول أن يغسل لطخة من الحبر على ثوبه فيزيدها تفشياً . أما رشيد الذي هو أخونا ومنا وفينا فنكون كأننا غمسناه في مِرْجل من الزفت . لا يا جبران . جئني برأي غير هذا الرأي . »

هنا أطرق جبران طويلاً وقد شعرت بأفكاره كأنها الأسماك في شبكة يتراءى لها منفذ فلا تندفع اليه حتى تجده مسدوداً . فتعود تختبط بعضها فوق بعض . وكان عبد المسيح في أثناء هذا المشهد يدخل علينا بين الفترة والفترة . فيفتح الباب بهدوء كلي ، ويغلقه بهدوء كلي ، كأنه داخل الى مجلس يترتب مسير الكون على خلاصة مناقشاته . وكان ، اذا ما فاه بكلمة ، فليزيد بها في هول المصيبة وحراجة الموقف . وأخيراً نفدت حيل جبران ، فالتفت إليّ التفاتة المستغيث وقال :

« ولكن ما حيلتك يا ميشا ؟ انها لمصيبة عمياء . » قلت :

« لا حيلة عندي غير الصراحة يا جبران . وكل حيلة سواها ستكون عاراً علينا حتى وان نجحت . فمن رأيي أن تصارح رشيداً بالأمر لأنك عميد الرابطة . » فانتفض كالملسوع وقال :

« أنا ؟ لا والله ! فان عرفت أن رشيد أيوب عرف أني عرفت لما استطعت بعد ذلك أن أرفع اليه بصري . بل الأحسن أن تصارحه أنت لأنك مستشار الرابطة . »

« هذا هو الجبن بعينه يا جبران . وما كنت أعهدك جباناً تهرب من أمر واقع وتتخلص من مسؤولية على عاتقك بإلقائها على عاتق غيرك . ان يكن رشيد صديقك فهو صديقي أيضاً . وعلاوة على ذلك هو ابن بلدتي . » — وكان عبد المسيح قد دخل علينا للمرة الرابعة أو الخامسة ، فاستنجدته بقولي :

« ما رأيك يا عبد المسيح ؟ أليس من واجب العميد أن يفاتح رشيداً بأمر هذه القصيدة قبل أن نقع ونوقع رشيداً والرابطة في ورطة لا يعلم

مغبتها إلا الله ؟ » – وبالطبع لم يتردد عبد المسيح لحظة واحدة في تثبيت رأيي . وعندها ، بعد أن طالت مجادلتنا أكثر من نصف الساعة ، وبعد أن انسدت كل المسالك أمام جبران ، انتشرت على وجهه سحابة من الحيرة الصماء والحزن الأبكم ، وبرقت في عينيه دمعتان ، ومن غير أن يقول كلمة ، نهض عن كرسيه ، وفتح الباب ، وخرج الى الغرفة التي كان فيها رشيد أيوب ونفرٌ من عمال الرابطة ومن يلوذ بهم ، وارتدى معطفه وأخذ عصاه وقبعته وهمَّ بالانصراف دون أن يودّع أحداً .

فلم يتمالك رشيد عندئذٍ من الضحك . ومعه ضحك رجل لم يكن جبران يعرفه . فشزره كأنه يريد أن يمزقه بعينيه لأنه غريب عن الرابطة وتجاسر أن يضحك في مثل تلك « المأساة » . وعلى الأثر خرجتُ وعلى وجهي ابتسامة وخرج عبد المسيح وهو يقهقه . فوقف جبران لمحة كالمشدوه أو كمن خولط في عقله . ثم ألقى نظرة على الجمهور كله فأدرك أن المأساة لم تكن إلا ممازحة . فبسم بسمة صفراوية وضرب الأرض بعصاه وقال :

« يا مناحيس . لقد أنقصتم من عمري عشر سنين . من هو صاحب هذا الدبكّ الذي هو طرفة من طرف الفن ؟ أنا حتى الآن لا أفهم منه شيئاً . أين عدد ألف باء ؟ أم أنا أعمى ؟ أم أنا بليد ؟ هاتوا فسروا لي كيف وصلت أبيات رشيد الى دمشق منذ أربعين يوماً ولم ينظمها إلا منذ يومين ؟ ومن هو ابن المعتز ومن أين نبشتموه ؟ لله دركم . لله دركم ! »

السيدة الملتحية

ما برح الانسان يتكلم عن الحياة منذ تعلم النطق . ويكتب عنها منذ تعلم الكتابة . ويصورها بالأنغام والألوان والحجر منذ تعلم الغناء والتصوير والنحت في الحجر . والحياة ما تزال بحراً بلا شواطىء . لا تستوعبها كلمة ، ولا يسبرها لحن ، ولا تقتنصها صورة ، ولا يمثلها تمثال . لكن الذين أدركوا بلاغة الصمت وهيبة السكون في حضرة ما لا يحدّ لم يولدوا بعد . وإما عرفتْ هذه الأرض أمثالهم فالبشرية لم تعرفهم لأنهم كانوا صامتين ساكتين .

لعل أقصى درجات المعرفة هي المعرفة بأن سرّ الحياة يدرك بالروح ولا يذاع باليد واللسان . وأسمى مراتب البلاغة هو الصمت المبطن بتلك المعرفة . وقد يكون أن ذلك الصمت هو المحجة التي نسير اليها عن غير علم منا . فلو كان لواحد من الناس أن يجمع كل ما قاله في حياته لدهش للسانه كيف أنه لم يبرَ من ترديد بعض الكلمات والعبارات ملايين المرات من غير ما جدوى . ولنفسه كيف لم يرهقها بالثرثرة دون أن يدنيها قيد شعرة من المعرفة التي هي معرفة . ولفكره كيف لم يرزح تحت جبال من المقاطع والمفردات التي لو غربلها كلها لما بقي منها في غرباله كلمة واحدة يمكنه أن يقول فيها : « هي ذي خلاصتي . »

لكن بعض الناس مهنتهم الكلام . ومنهم الكتّاب . فواحدهم لا يكاد ينتهي من فصل أو كتاب حتى يفكر بآخر . وعذره في ذلك أن

عنده أفكاراً وآراء جديدة يعرضها على الناس . والناس يحملونه على ذلك اذا هو لم يحمل نفسه عليه . فهم يتوقعون منه أن يكون شجرة فاكهة على الطريق ، وأن يكون عليها ثمر جديد كلما مرّوا بها . وكما أن الشجرة المثمرة لا تعرف في أي فصل من الفصول ، وفي أية سنة من السنين تأتي بثمرة تكون أجمل وأشهى كل أثمارها ، هكذا الكاتب المثمر قد يأتيك اليوم بكتاب يبلغ فيه أقصى مداه فلا ينفكّ يكتب جاهلاً أنه لن يقول غير ما قال ولا أجمل مما قال .

كتب جبران « النبيّ » وهو يشعر أنه قد أفرغ فيه كل قلبه وكل فكره وكل فنه . لكنه ما درج الكتاب في سبيله حتى راح يفكر بسواه . فكأنه من بعد أن ظن أنه قد لفظ « الكلمة » التي كانت في فمه عاد فوجد أنه لم يلفظ منها سوى مقطع واحد . فعاد يفكر بما بقي من مقاطعها وهو لا يشك في أن بامكانه أن يلفظها كلها . وما كان يدري أنه يحاول المستحيل . ولا كان يدري أن العمر ينقضي ، والبشرية تنقرض وتبقى الحياة كلمة يفهمها الوجدان ويعجز عن النطق بها اللسان . لذلك قال لي بعد صدور « رمل وزبد » :

« هذا لسد الفراغ في حياتي الكتابية ما بين « النبي » والكتاب الذي سيتلوه . فقد مر بي ثلاث سنوات لم يصدر لي فيها كتاب . أما « النبي » فكتاب غريب يا ميشا . وما أكثر الذين يغبطونني عليه . لكنه مقدمة لا غير . فأنا فيه أتحدث عن علاقة الانسان بالانسان . وبفكري اليوم كتاب آخر أتحدث فيه عن علاقة الانسان بالطبيعة . وسأدعوه « حديقة النبي » . وكتاب ثالث أبين فيه علاقة الانسان بالله . وسأدعوه « موت النبي » .

وهكذا تتكوّن من هذه الكتب الثلاثة حلقة كاملة . فما رأيك ؟ »

لكنه ما عتم أن فاجأني بخبر جديد . فقد جئته يوماً أسأله أين أصبح من « حديقة النبي » . فاذا به يجيبني :

« الحديقة ما برحت في خاطري . ومثلها موت النبي . ولكن ما قولك في كتاب عن يسوع ؟ يسوع يساور أفكاري من زمان . وقد سئمت الذين يؤمنون به يا ميشا يتحدثون فيه ويكتبون عنه ويصورونه كما لو كان سيدة بلحية . فهو جميل لكنه مسكين وضعيف وفقير ووديع ومتواضع . وسئمت الذين لا يؤمنون به يصورونه مشعوذاً وساحراً . وسئمت « العلماء » يأتونك بالأبحاث الطويلة والبراهين العقيمة ليثبتوا أو ليدحضوا وجوده ، وهو أكبر حقيقة في حياة البشرية . وسئمت اللاهوتيين يحوكون له من مماحكاتهم السخيفة أكفاناً تحجبه عن الفكر والقلب . فلا هو بشر مثلك فنقتدي به . ولا هو إله فنعبده . ويسوعي بشر مثلي ومثلك . وقد بلغت قحة أحد الكويتبين الأميركان أن صور يسوع تاجراً محنكاً يرمي بكل تعاليمه الى غاية مادية بحتة . فتأمل ! وعندي أنه كان رجل العزم مثلما كان رجل الرأفة . وأنه قطّ لم يكن مسكيناً أو متمسكناً . وأنا أكره المسكنة وأرى التواضع ظاهرة من ظواهر الضعف . »

فقلت من غير أن أجادله في رأيه :

« يسوع موضوع لا ينضب مهما تناولته الألسن والأقلام . ومهما كثرت الكتب عنه يظل هناك مجال لكتاب جديد . ولكن كيف تنوي أن تكتب عنه يا جبران ؟ »

« لقد اهتديت الى قالب يعجبك يا ميشا . وبعد أن اهتديت الى القالب

أصبح الكتاب في فكري كأنه قد كتب . فسأجعل معاصري يسوع يتحدثون عنه – كل حسب منازعه ومداركه . ومن أحاديثهم تتكون صورة يسوع كما أراه أنا . وهو قالب يناسب أسلوبي كل المناسبة . »

وراح جبران يستنطق الأموات عن يسوع . وهو في الواقع لا يستنطق إلا قلبه ولا يحكّم إلا فكره . فقد كان يجهد ذاك وهذا في الليل والنهار . وكم ليلة سهرها حتى الفجر متغلغلاً في روح يهوذا الاسخريوطي أو قيافا أو بيلاطس البنطي أو مريم المجدلية أو مريم أمّ يسوع أو كل من الرسل وسواهم وهو لا يأتي على شهادة واحد منهم إلا بعد أن يتقمص فيه وينتقل بالفكر الى عصره . فكان ، وهو في صومعته في نيويورك ، أو عند أخته في بوسطن ، يرود جبال الجليل ، وبطاح اليهودية ، وغور الأردن ، وشواطىء بحيرة طبرية متتبعاً خطوات يسوعه ومصغياً الى كرازته في الجماهير وفي الهياكل وفي التلاميذ على انفراد . ومحاولاً أن يأتي بخلاصة تلك الكرازة والقوة التي جعلتها أحرفاً من نار على جباه عشرين من القرون .

كل ذلك والداء يمكّن قبضته من قلبه يوماً بعد يوم . وهو لا يعي أو لا يبالي . بل كأنه كان والداء في سباق . وكان يخشى أن يسبقه الداء قبل أن ينتهي من كتابه الجديد . لكن الأقدار كانت لا تزال بجانبه . فقد مكنته من السبق . فانتهى من كتابه في صيف سنة ١٩٢٨ وسلمه للنشر . فصدر في خريف تلك السنة وجبران في بوسطن . وقد كتب إليّ في أول تشرين الأول يقول :

« كتاب يسوع تناول صيفيتي مريضاً وصحيحاً – ولا أكتمك أن قلبي ما برح فيه رغم أنه قد صدر « وطار من هذا القفص . »

على أثر صدور «يسوع ابن الانسان» كتبت فيه كلمة بعنوان: «يسوع جبران» لست أرى بأساً من اثباتها هنا لأن رأيي اليوم في الكتاب لا يزال ما كان منذ ست سنوات:

وجه جميل ونبيل. يعلوه غشاء لطيف من الشحوب النام عن شفقة ممسكة بالقلب. لا عن أسى رابض في النفس.

في فمه الحساس صلابة تفهم اللين فلا يجرح. ورفعة تعرف ذاتها فلا تتضع. وفي أنفه رقة الشعر، ودقة الفن، واتساق الهندسة.

أما عيناه فتنظران الى أبعد مما تبصران. فيهما رهبة الوحي دون طمأنينته. واليقين بالنصر دون النصر. ووحدة لا تلطفها المحبة. وعزلة لا يؤنسها نورها.

في حاجبيه تقطب خفي. كأنه يجهد فكره للوصول الى سر عميق. وكأنه بلغ عتبة ذاك السر. أما بابه فلا يزال موصداً في وجهه.

في جبينه الواسع العالي إباء وعظمة. وفي شعره الناعم المرتد عن جبينه وصدغيه، والمسترسل فوق كتفيه، طهارة لا تعرف الدنس. هو وجه معانيه كثيرة. وأظهرها ارادة تحاول أن تتغلب على ذاتها أو أن تستر ضعفها ريثما يتم لها النصر.

هذا هو يسوع بريشة جبران. وهو أول ما يقع بصرك عليه في كتابه الجديد «يسوع ابن الانسان». ذاك ما رأيته فيه. ولعلك ترى غير ما رأيت أو عكس ما رأيت.

أما يسوع من قلم جبران فلن نحظى به في صفحة أو صفحتين. بل

تتناول صفاته الحسية والروحية من سبعة وسبعين فماً (وفم جبران أحدها) . بينها فم التلميذ وفم الجار وفم الصديق وفم العدو . فم العالق بالأرض . وفم الطامح الى السماء . فجبران يحدثك عن يسوعه بألسنة معاصريه . بعضهم مذكور في الانجيل وبعضهم اختلقته مخيلة المؤلف .

وعندما تشبع نفسك ، وتشنف أذنك بأقوال هؤلاء كلهم – وأقوالهم منسقة بقلم جبران فهي قصائد منثورة – قابل بين يسوع الذي انطبع في خيالك من مطالعة سطور الانجيل القليلة ، ويسوع الذي علق بذهنك من ألسنة معاصريه كما أنطقها جبران ، ترَ أن بين الاثنين فرقاً ليس طفيفاً .

يسوع الانجيل وُلد في بيت لحم من عذراء . أما يسوع جبران فوُلد في الناصرة من رجل وامرأة .

يسوع الانجيل يبكي ويتألم . أما يسوع جبران فيضحك . وهو فوق الدموع والألم .

يسوع الانجيل يطوّب المساكين بالروح والفقراء . أما يسوع جبران فلا يعرف مسكنة ولا يرى غبطة في الفقر .

يسوع الانجيل أدرك منتهى الرفعة الروحية ، لذاك كان « وديعاً ومتواضع القلب » . أما يسوع جبران فلا دعة فيه ولا تواضع .

يسوع الانجيل لا يخجل من أن يهتف على الصليب : « إلهي . إلهي لماذا تركتني ؟ » لأنه لم يكن قد تغلب بعد على كل ضعف في بشريته . أما يسوع جبران فلا ضعف فيه . أو أنه يخجل من اظهار ضعفه فيهتف : « لماذا تركتنا ؟ »

ولعلك تذهل ، مثلما ذهلت أنا ، عندما تمادى في قراءة الكتاب فترى أن المؤلف ، رغبة في اظهار شخصية يسوع كما يراها بعين روحه ، يجيئك بانجيل يكاد يكون جديداً لولا أنه يتقيد ببعض حوادث الانجيل وأشخاصه وهيكل أقواله . فهو يأتيك بموعظة على الجبل من فم متّى منسوجة على نسق الموعظة الانجيلية الشهيرة لكنها تغايرها مبنىً وروحاً . ويسرد بعضاً من عجائب يسوع وحوادث حياته وأقواله . فيسقط منها أو يضيف اليها طبقاً لما يتصور أنه كان من واجب الانجيليين أن يسقطوه أو يضيفوه .

لعل لجبران عذراً في ذلك . فهو لا يكتب كمؤرخ . لأنه لم يكن مؤرخاً ولن يكون . بل هو الشاعر والفنان أولاً وآخراً . لقد تلجم قلم المؤرخ أما خيال الشاعر وريشة الفنان فكيف وبماذا تلجمهما ؟ ومن ثم فجبران يكتب عن يسوعه بقلب طافح بالإعجاب والمحبة والعبادة . فهو في نظره مثل البشرية الأعلى وأقصى محجاتها .

مع ذلك أقول إن جبران كان في غنى عن التصدي لما جاء في الانجيل وتحريفه أو التصرف به . فقد ورد في آخر انجيل يوحنا أن هناك « أشياء أخَر كثيرة صنعها يسوع لو أنها كتبت واحدة فواحدة لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة . » أليس أن في هذه الأشياء التي لم تدوّن مجالاً واسعاً لخيال كخيال جبران ؟ فليختلق من الحوادث ما أراد . ولينظم من المواعظ ما شاء وشاء رب إلهامه .

أما ما دُوّن في الانجيل فلسبب قد دُوّن بتلك الألفاظ لا بغيرها . ولسبب قد احتفظت به البشرية بأحرفه تسعة عشر قرناً . من ليس يفهمه أو يقبله كما هو فليقل في نفسه إنه لم يُعطَ بَعْد فهمه بالتمام . ومن ليس

يفهمه إلا اذا حرّفه وتصرف به فهو في الواقع غير فاهم له . لنا أن نفسر الانجيل . ولكلّ أن يصوّر لنفسه يسوعه ، مثلما يصوّر لنفسه ربه . لكن ليس لنا أن نأخذ يسوعنا من الانجيل ومن ثم أن نحرف الانجيل لينطبق على يسوعنا .

والآن فلنعد الى جبران الشاعر المأخوذ بمجالي الروح في الكون . لاسيما بأسمى مجاليها في البشرية – يسوع ابن الانسان .

فما أجمل ما يقوله بلسان ملاخي الفلكي البابلي –

« في يسوع اجتمعت كل عناصر أجسادنا وأحلامنا طبقاً للناموس . وكل ما كان من قبله سابقاً لأوانه وجد فيه أوانه . »

ثم اسمع تعليله الجميل لبعض عجائب الناصري –

« يقولون إنه كان يعطي العميان بصراً . والمقعدين مقدرة على المشي . وانه كان يُخرج الشياطين من المجانين .

قد لا يكون العمى إلا فكرة مظلمة يمكن التغلب عليها بفكرة ملتهبة . وقد لا يكون العضو المشلول إلا سكوناً يمكن تنبيهه بالقوة المتحركة . وقد يكون أن الشياطين – تلك العناصر القلقة في حياتنا – تخرجهم منا ملائكة السلامة والطمأنينة . »

وهاك ما يقوله بلسان اندراوس في قضية الزانية التي أطلقها يسوع قائلاً – وأنا لا أدينك –

« عجبت آنئذ مما اذا كان « يسوع » قال ذاك للزانية لأنه هو كذلك لم يكن بغير خطيئة ... أما الآن فأعرف أن نقيّ القلب فقط يغفر العطش

الذي يقود صاحبه الى مياه آسنة . »

ان جبران في كتابه الجديد ، شأنه في كل كتبه ، ينثر بسخاء جواهر من التشابيه المبتكرة . وينقش رسوماً من الفن تقف عندها جذلاً مهللاً . ولا بد لي من نقل بعضها –

« الريب ألمٌ أنسته وحشته أنه والايمان توأمان . »

« وعند الفجر بقيت واقفة بيننا (الكلام عن أم يسوع) كأنها علم يخفق في قفر لا جحافل فيه . »

« ستبقى المرأة أبداً رحِماً ومهداً وقطُّ لن تكون رمساً . »

« لا تمشي النساء إلا مقودات بأبنائهن . »

« غسل بيلاطس يديه ولا يزال يغسلها . وحتى اليوم تحمل أورشليم الطست وروما الابريق . »

واليك بعضاً من التقاريع الجبرانية . وجبران اذا ما قرع وأنب وتبرم أتاك بأقصى مقدرته البيانية . وكأنه في الكلام الآتي لا يدفع تهمة عن يسوع فحسب . بل عن نفسه كذلك . فقد قال البعض في يسوع إنه لم يكن عالماً في نفسه . ولذلك كان مشوش الفكر :

« كم بومة لا تعرف من الأغاني غير ما شابه نعيبها . أنا وأنت نعرف مشعوذي الكلام الذين لا يحترمون إلا من كان أكبر شعوذة منهم . هؤلاء هم الذين يحملون رؤوسهم في سلال الى السوق ويبيعونها بأول ثمن يُعرض عليهم . نحن نعرف الأقزام المتحاملين على من تلمس رؤوسهم السماء . ونعرف ما يقول العوسج عن السنديانة والأرزة . »

خذ كذلك هذه الفقرة من كلام يسوع ليهوذا الاسخريوطي –

« مملكتي ليست من هـــذه الأرض . وعرشي ليس قائماً على جماجم أسلافكم . اذا كنتم تطلبون غير مملكة الروح فخير لكم لو تركتموني ههنا وانحدرتم الى مغاور موتاكم حيث رؤوس الأمس المتوجة تعقد مجالسها في قبورها . ولعلها حتى اليوم تجود بالألقاب والمكارم على عظام أجدادكم . »

كذلك تهكمه على الأغنياء بلسان واحد منهم . وعلى أولياء الأمور والمحافظين على كل سلطة وتقليد بلسان قيافا . فهو يسوّد وجوههم بما يضعه من الكلام في أفواههم .

ومن الغريب أن جبران يتناول بتهكمه حـــتى الرسول بولس . فهو يكرهه ولا يعترف له بفضل . بل يعتقد أنه أفسد تعاليم الناصري بما أدخله عليها من تعاليمه . وفي اعتقادي أنها تهمة ظالمة .

***

ليس ما ينقشه جبران بريشته أقل فعلاً في النفس مما يسطره بقلمه . وهو كعادته في كتبه السابقة قد زين كتـابه الجديـد بطائفة من الرسوم تقف أمامها مستجلياً رموزها ، مأخوذاً بتناسق خطوطها . منها وجه يسوع وقد ذكرته . ووجه مريم المجدلية الذي تـكاد تقرأ فيه ما قاله لها يسوع (حسب رواية جبران) – « أما أنا فإني أرى فيكِ جمالاً لن يذوي ، وعندما تدركين خريف أيامك لن يخشى ذلك الجمال من أن ينظر ذاته في المرآة . ولن يهان . »

هناك وجه لبطرس وآخر ليوحنا الحبيب . ورسوم أخرى رمزية أذكر منها اثنين ملونين – أحدهما يمثل انساناً راكعاً على سحابة وقـد أحاطت



مريم المجدلية
نقلاً عن «يسوع ابن الانسان»

به سلسلة حلقاتها أجسام بشرية . والآخر يمثـل « شجرة الحيـاة » جذورها بشر . وساقها بشري . وأغصانها مجنّحة . وأثمارها دانية . إن في هذين الرسمين ألواناً موسيقية . بل ألحاناً ملونة . بل شعراً فياضاً .

***

لقـد قيل في نبي الجليل منذ بدأ بكرازته حتى اليوم مـا ليس يحصى . فأنكر البعض وجوده . والذين سلـّموا بوجوده رمـاه بعضهم بالشعوذة . وبعضهم قـــال إنه كان مخدوعاً . وجعله البعض إلهاً . والآخر انساناً . والبعض إلهاً وانساناً معاً . ولعمري إن في ذلك دليـلا بيّناً على أن هذا الرجـل كان مظهراً رائعاً من مظاهر الكونية الشاملة . فهو أكبر من أن ينحصر بين دفتي كتاب . وليس يدخل « ملكوته » من فهم أقواله فحسب . بل من عمل مشيئة « أبيه » الذي في السموات .

على أننا ، وان قصرنا عن العمل بمشيئة « الآب » ، نكفـّر بعض التكفير عن تقصيرنا بكشف ما في وجداننا من الشوق والتعطش الى مجاراة « ابنه » . وكتاب جبران الجديد هو المحرقة التي يقدمها قلبه لأخيه الأكبر « يسوع ابن الانسان » .

الصلح

قال بعضهم في الدنيا إنها ان أقبلت بلت وان أدبرت برت . فهي مقبلة حين تراها مدبرة . ومدبرة حين تحسبها مقبلة . وجبران ، من بعد « النبي » و « يسوع ابن الانسان » ، أدبرت دنياه وهو يظنها مقبلة بجحافلها وبيارقها وطبلها وزمرها . فقد أخذ عدد المعجبين به يزداد من يوم الى يوم . وأكثرهم من النساء . واتسعت موارد رزقه حتى ان صديقاً له من أصحاب المصارف اسمه ادغار سباير أخذ يهتم « بتوظيف » أمواله . وأقبل البعض على ترجمة كتابه « النبي » الى لغات أجنبية . وعرضت عليه شركة أن يتجول في البلاد ويقرأ من كتاباته في مختلف الأندية . ونقل أخته من بيت قديم في حي الصينيين في بوسطن الى بيت جديد ابتاعه في ضاحية جميلة من ضواحي المدينة . وأقام له اخوانه في نيويورك مأدبة تكريمية احتفلوا فيها بيوبيله الفضي . وأصبح لا يكاد يمر به يوم إلا جاءه البريد أو التلفون بشهادة اعجاب أو تقدير من أناس يعرفهم وأناس يجهلهم ما بين أعراب وأعجام . فقد قال لي مرة بفخر كلي ، متظاهراً بعدم الاكتراث الكلي ، ان ملكة رومانيا السابقة — ماري — كتبت الى احدى صديقاتها في نيويورك التي كانت قد أهدت اليها نسخة من « النبي » تقول إنها طالعت الكتاب بلذة فائقة ، وتكلف صديقتها إهداء سلامها الى المؤلف . وأطلعني مرة على رسالة من رئيس كلية في ولاية كولورادو يستأذنه فيها بحفر آية

صغيرة من آيات « النبي » على الجرس الكبير من سلسلة أجراس صداحة (Chimes) في قبة كابيلاّ المدرسة . أمـــا الآية فهذه : « ما اليوم إلا ذكرى الامس . ولا الغد إلا حلم اليوم . »

لكن للدنيا شؤوناً مع الذين يركنون اليها هي أشبه بشؤون الهرّ مع فأرة يلاعبها . فهي أقرب ما تكون من الهلاك عندما يطلق الهرّ سبيلها فتحسب أنها نجت . ثم لا تلبث أن تجد ذاتها بين شدقي الهرّ .

لعل أفظع الفقر فقر يعضك بأنياب من ماس في لثة من ذهب . وأشد الضنك ضنك يرفل بالخز والبرفير . وأقسى الوحدة وحدة تخاطبك بألسنة المعجبين والمكرّمين . وجبران ، من بعد أن تفتقت الأكمام عن الكثير من أحلام صباه وشبابه ، فتغلب عــلى الفاقة ، واتسعت دنياه ، وكثر مكرموه والمعجبون به ، أحس بفقرٍ أحدّ ناباً من الفقر الذي عرفه من قبــل . وبضيق أشد وطأة من الضيق الذي كان فيه . وبوحدة أقسى ملامس من تلك التي كانت تساور أيامه ولياليه . فقد أقفر قلبه من الحب في حين أن النساء كن يحمن حوله حوم الفراش حول السراج . والشهرة وما فيهـا من بخور الاعجاب والتكريم قـد تخدر القلب يوماً – قد تخدره شهراً – لكنهـا لا تطفىء عطشه ، ولا تسكن جوعه ، ولا تؤنس وحشته اذا ما أفاق من تخديره في سكينة الليل وضوضاء النهار . فكيف بـه اذا كان قلب شاعر وقلب فنان ، وكان ، علاوة عـــلى ذلك ، قلباً عليلاً في صدر عليل ؟

لقد ظل جبران أعواماً يماطل الداء والداء يماطله ، وهو يحسبه رجفة في القلب تزول بالحماية والوقاية . لكنها ما كانت لتزول . بل كانت كلما

تقادم بها العهد تكاثرت نوباتها ، وتنوعت أشكالها ، وتصلبت أوجاعها . فكانت تارة تفتك في مفاصله فيظنها النقرس . وأخرى في أجهزة التنفس فيخالها نزلة قوية . وطوراً تشد على قلبه بأصابع من حديد فيحسبها علة في القلب . والأطبــاء كانوا يصفون له المداواة حيناً بالحماية والراحة وآخر بالكهرباء وحيناً بالراديوم وأحيـاناً بالعقاقير . فكان يتداوى بكل ذلك . وكان المرض يهادنه بين النوبة والنوبة هدناً متفاوتة المدى . فتنتعش قواه وتتجدد آماله ، وتبرأ همته من فتورها ، فيعود في الحال الى قلمه وريشته ليقتنص الخيالات والأفكار التي كانت تحاصره في سريره ، وتجالسه وتماشيه في مجالس الناس ومعابرهم .

وأخيراً كشفت «الأشعة» لجبران مكمن الداء في أحشائـه . فكتمه عني وعن كل أصحابـه . ولو كان بامكانـه لكتمه حتى عن نفسه . وأشار عليه طبيب في بوسطن باجراء عملية جراحية . فامتثـل لاشارته . واستعد لاقتبال القدر المحتوم في الميعـاد الذي ضربه له الطبيب . وارتدى ثيـابه وخرج من بيت أخته قـاصداً المستشفى . لكنه مـا بلغ أسفل الدرج حتى عاد وقال انه قد عدل عن عزمه فلتفعل الأقدار ما تشاء . وكان في عدوله صلابـة ، وفي استسلامه عتوّ . فهو لم يتذمر قطّ من مرضه ، ولم يشكُ دهره ، ولم يقنط من حيـاته ، ولم يشلّ الوجع يده ، ولا كبّل خوف الموت خياله .

إلا أنه عندما عاد الى «حديقة النبي» ليخبر عما فيهـا وجدها غير مـا كان قد تخيلها . فقد رآهـا من قبل بعين خياله حديقة تآخت فيهـا النبتة والحشرة ، واندغم النور بالظلمة ، واستوى الانسان والحيوان في ميزان

الوحدانية الصمدانية . فكانت كلها جمالاً وسلاماً ومحبة . ذلك في الفترات التي كان فيها صافي الذهن ، قرير الفكر ، وفي هدنة مع الألم . وقد صوّر بعض ما رآه منها في بضع صفحات لم تُنشر بعد . أما الآن ، وقد توالت عليه غارات الوجع ، فأصبح كيفما تفقد تلك الحديقة رأى الألم يعبث في غرسها ، ويعكر صفاء جوها ، ويفسد سلامها . فمال عنها وهو يمني نفسه بالعودة اليها حالما تعود اليه نشوته الروحية التي عرفها في « النبي » . لكن تلك النشوة لم تعد . وهو مع ذلك لا ينفك يكتب ويصوّر .

كم مرة في تلك الأثناء لاذ جبران بقلمه من الألم ، فسمع قلمه يهتف اليه : دعني وشأني وعد الى قلبك . ففيه وحده نور الهداية والخلاص :
– « طوبى للأنقياء القلوب فانهم يعاينون الله ! »

وكم مرة عاد الى قلبه فهتف اليه قلبه : « ألا رحمة يا جبران . كم شكوت اليك الجوعَ فأطعمتني ما ليس يُشبع . والعطشَ فسقيتني ما ليس يُروي . وها أنا ما أزال جائعاً الى طعام لا يبلى ، وعطِشاً الى شراب لا ينفد . وها أنا في خلوة هذه الصومعة أتكوّى بالأوجاع ولا قلبَ يخفف أوجاعي . ولا عين تسهر فوقي . ولا يد تجس أنباضي . »

ذات يوم تسلم جبران رسالة اعجاب وتقدير من فتاة ما كان يعرف عنها شيئاً . لكنه آنس في رسالتها روحاً تفوق باخلاصها ، وجمالها ، وشدة شغفها بما هو خلف المحسوسات ، كل ما جاءه من رسائل الاعجاب والتقدير . وكان في الرسالة عنوان الفتاة ورقم تلفونها . فأخذ في الحال التلفون وخاطبها وشكر لها جميل رسالتها . وعندما أبدت رغبة في زيارته رحب بها كل الترحيب . فزارته ، وكانت لم تقرأ من كتبه إلا « النبي » . وبلسان يتعثر

بشتى الانفعالات ، ولكن بروح تفيض حماسة وطهارة ، راحت تصف له تأثير الكتاب في نفسها وكيف أنها لاقت فيه أقوى نصير لأفكارها وأوفى صديق لأشواقها ومعتقداتها . وانصرفت من عنده ثملى بخمر حديثه ، وكأنها وجدت فيه الكمال الروحي في جسد بشري .

وتلت تلك الزيارة زيارات . وكان جبران قد أجدب قلبه من الحب وأخذ يشعر بحاجته الى امرأة تقاسمه حلو الحياة ومرها . فقد كان قبل أن اشتد به المرض يخشى على عزلته من أن تعبث بها امرأة أو رجل . وعزلته كانت مبعث إلهامه ومهد مواليد فكره وخياله . أما بعد أن ثقلت عليه وطأة الداء فأصبح يخشى العزلة في المرض والمرض في العزلة . وكان اذا ما عرض أمام نفسه كل النساء المقربات منه لا يجد بينهن واحدة تطمئن اليها روحه إلا ماري هاسكل . وماري فاتحها مرة بأمر الزواج فكان بينهما ما كان . وهي ما تزال كوكباً نيّراً في سماء حياته الروحية . وماري قد تزوجت منذ سنوات من نسيب لها غني ، لكنه مسن ، في مدينة سافانا من ولاية جورجيا . وقد استشارته في زواجها فأشار عليها بالزواج وبارك ما فعلت .

والآن جاءت هذه الفتاة الغريبة . أيكون أن الحياة قد بعثت بها اليه لتؤنس وحشته ، وتخفف من أوجاعه ، وتوافق أشواقه وآلامه ؟ أيكون أنها المرأة « المكتوبة » له في سجلات الأرض الغامضة ؟ كيفما كان الأمر ، ها هي – شعاع دافىء ومؤنس . وهي صحيحة الجسم ، نشيطته ، وفي قلبها من الاخلاص له والتفاني في سبيله ما يقارب العبادة .

ولكن هي البشرة – وما أضعفها ! ولكن هي الشهوة – وما أقواها ! فقد نسي جبران هذه المرة كذلك بيته الجميل في « المواكب » :

« والحب ان قادت الأجسام موكبه
الى فراش من الأغراض ينتحرُ »

وكان عذره في ذلك لنفسه وللفتاة : « تلك هي حياتي . » لكنه عذر ، ان كان مقبولاً عند جبران ، لم يكن مقبولاً عند الفتاة التي كانت روحها مشبعة بروح « النبي » والتي أخذت الندامة تنهش قلبها وتعصر فكرها . فأحست كأن جوهرة ثمينة كانت في يدها وتحولت الى تراب . أو كأن الأرض قد خسفت بها . فكتبت بعد ذلك الى جبران تبكته وتبكت نفسها وتندب إيماناً جميلاً طار من قلبها . فقد ظنت عندما اهتدت الى صاحب « النبي » أنها قد اهتدت الى مثل الرجل الأعلى ، الى الرجل الذي يكفّر بجمال روحه وجمال حياته عن كل ما في أرواح الرجال وحياتهم من شناعة . إلا أنها وجدته كسائر الرجال . ووجدته يفعل غير ما يقول . ويقول غير ما يفعل ... أفي الحياة بعد ذلك ما يستحق الاعتبار ؟ أليس الايمان بالكمال وهماً والمحافظة على الطهارة ضرباً من البلادة ؟

لقد كان من تلك الرسالة أنها دفعت جبران الدفعة القاضية على محاسبة نفسه المحاسبة الأخيرة وتعريتها من كل أكسية الغش التي تحوكها الرغائب والمنى الأرضية . واذ مثلت لديه نفسه عريانة أقبل عليها يغسلها بكل ما في وجدانه من ماء الحق ، ويضمخها بكل ما في روحه من عطر الجمال ، ويدفن عند قدميها أوزار حياته وزراً وزراً . فأحس كأنها كانت قصية عنه فدنت منه . وكأنها كانت غريبة فأصبحت قريبة . وكأنها كانت له خصماً فانقلبت صديقاً . فعانقها وعانقته وعقد معها الصلح الذي كان ينشده كل حياته . وعندها استدعى اليه الفتاة واستغفرها وتوسل اليها أن تستعيد

إيمانها بالحياة وجمالها . وألا تدين الله بهفوة انسان ، وان يكن ذلك الانسان جبران خليل جبران . وقال لها نظير ما قاله مرة لماري هاسكل : « تعالي نقطع الطريق سوية . »

وما كان يدري ، ولم يكن قد بقي من عمره إلا بضعة شهور ، أن طريقه أوشكت أن تنتهي وأنه سيقطعها وحيداً حتى آخر خطوة .

أشعة في الغمام

استسلم جبران لمشيئة الحياة . ولكنه ما كان يحسبه مستسلماً للموت . فقد ظل يحاربه حتى آخر نحب من أنحابه . وكأني به كان يعتقد من كل قلبه ما قاله لي في احدى رسائله الأخيرة :

« أما العلة فهي في مكان أعمق من الأعصاب والعظام . ولقد فكرت مرات في ما اذا كانت علة أو صحة . هي حالة يا ميشا ، صحة كانت أم علة ... هو فصل من فصول حياتي ، وفي حياتك وحياتي شتاء وربيع ، وأنت وأنا ، بالحقيقة ، لا ندري أيهما أفضل . »

لذلك ، ولأنه كان يكره كل مظاهر الضعف ، ما سمعته يوماً يقول « آخ » أو « أواه » . فقد كان يقضي الليل بعد الليل ، والنهار تلو النهار يحارب وحده الوجع . فيندر أن يستدعي اليه صديقاً أو صديقة إلا اذا اشتد عليه الألم أو عضت الوحدة قلبه الى حد لا يطاق . ومما لا ريب فيه أيضاً أن اعتقاده بقوة الألم المطهرة كان يدعم جميل صبره عليه .

مرة – في أوائل سنة ١٩٣١ – خاطبته بالتلفون أسأله عن صحته . فأجابني : « تعال وانظر . » وعندما دخلت عليه وجدته في فراشه ، وعلى وجهه وفي حركاته علامات ضعف ما رأيتها فيه من قبل . إلا أنه طمأن بالي وأكد لي أن ما ألمّ به لم يكن إلا وافدة قوية . وأنه قد تعافى منها أو كاد . فلمته أشد اللوم لتهامله في أمر صحته . وقلت له إن بقاءه وحده

في صومعته أصبح ضرباً من المجازفة القريبة من الحماقة . فإما أن يرضى بي أو بسواي من أصحابه ينام عنده ويخدمه عند الحاجة ، وإما أن يأتي بأخته من بوسطن لتسكن معه . فأقنعني أن لا ضرورة لشيء من ذلك . فزوجة حارس البناية تخدمه بكل أمانة . أما أخته فالأفضل أن تبقى في بوسطن فلا تحمل من همه أكثر مما تحمل حيث هي . ومن ثم فلو جاء بها الى نيويورك لاضطر أن يفتح بيتاً آخر مع الاحتفاظ بالصومعة . وفي ذلك ما فيه من الأكلاف . وبالتالي فهو لا يرضى عن الصومعة بديلاً . ولا يفضل على تشويشها بيتاً مهما توافرت فيه معدات الراحة والرفاهية واكتمل اتقانه وترتيبه .

« ومار سركيس يا جبران — أما آن أن تفي بنذرك ؟ صدّق انه لو كان بامكاني لكبلتك الآن و « شحنتك » الى لبنان حتى في هذا النهار . ان بقاءك في هذه البلاد وانكبابك على الكتابة والتصوير في حالتك هذه هما الانتحار بعينه . »

« مار سركيس لا بد منه . وقريباً ان شاء الله . أما الكتابة والتصوير فلا معنى لحياتي بدونهما . وهما تعزيتي الوحيدة . واني لأعجب لك من بين كل الناس ، تنهاني عنهما . أأنت تنهاني عن الكتابة والتصوير يا ميشا ؟ أأنت تقول مثل هذا القول ؟ لا أكاد أصدق أذني . أنقضي اذن على الفن — أنقضي على الشعر ؟ »

« ليس الفن ما نصوره ، ولا الشعر ما ننظمه يا جبران . بل الفن أن ندرك بأرواحنا ألفة الحياة فنؤلف ما بين أفكارنا ومنازعنا وأقوالنا وأعمالنا حتى لا يبقى فينا من نقيض يناهض نقيضاً . والشعر أن نجد لأيامنا وزناً

ولليالينا قافية . وما دمنا تمر بنا حالات تتعصر لها قلوبنا ، وتعتم أبصارنا ، ويتحول الشهد في أفواهنا علقماً ، والشدة في مفاصلنا رخاوة ، فما نفعنا من صورة جميلة نرسمها أو من قصيدة « عصماء » ننظمها ؟ أنصور الجمال قبل أن يصورنا الجمال ؟ أنلفظ الحق قبل أن يلفظنا الحق ؟ ونحن لو حيينا حياة جميلة لما استطعنا أن نصور غير الجمال . وإذ ذاك كنا في غنى عن التصوير . ونحن لو كان الحق سلطان أفكارنا لما استطعنا أن نفوه بغير الحق . وعندئذٍ كنا في غنى عن الكرازة بالحق . »

« أليس يا ميشا أننا كلما صورنا الجمال اقتربنا من الجمال . وكلما نظمنا الحق اتحدنا مع الحق ؟ أم أنت تشاء أن تحتم الصمت على الفنانين والأدباء ؟ والافصاح عن مكنونات النفس حاجة من حاجات النفس . »

« لا بد للنفس من أن تشع بمكنوناتها ، ومن تلقاء ذاتها . لكننا حالما نحاول تصوير تلك المكنونات للناس نشوهها وننقلها الى غير حالها . فاما نزيد فيها أو ننقص منها . وكثيراً ما نستر الذي نحسبه شنيعاً فيها ونبرز الذي نعده جميلاً . والجمال الذي يحتاج الى يد تخرجه من بيت الشناعة ليس جميلاً . والشناعة التي تسكن والجمال في بيت واحد ليست شنيعة . والانسان الذي لا ينفك يغربل الكون ليفرز جميله عن شنيعه أحرى به أن يقول لرب الكون : « لقد أسأت سياسة خلقك . وقد اختلط عليك حقه وباطله . وجميله وشنيعه . فانزل عن عرشك وأنا أريك كيف أجمع الجميل من كونك الى الجميل ، والشنيع الى الشنيع ، والحق الى الحق ، والباطل الى الباطل . » أوليس الله أبعد من جمالنا وشناعتنا ، وفوق حقنا وباطلنا ؟ »

« هو كذلك يا ميشا . هو كذلك . وقد يكون أننا نهتدي اليه كلما حاولنا أن نقسمه فوجدناه لا ينقسم . وأنا ما أزال أقول ان الفن ، وان ميز بين الجمال والشناعة ، هو من أقرب السبل الى الله . أما التأمل البحت الذي أنت تومي اليه فسبيل آخر . لكنه يؤدي الى الصمت وكتم سر النفس ضمن النفس . والصمت أرهب من الكلام وأصدق . أنت محق في ذلك . ولكن ستأتينا ساعة نصمت فيها . فلماذا نصمت قبل أن تدق الساعة ؟ هوذا صاحبك لاوتسو لاذ بالصمت ولكن بعد ان أعطى الناس بالكلام خلاصة إيمانه . سنصمت يا ميشا . سنصمت . ولكن لنتكلم الآن . واليك طائفة من الكلام . اقرأها وقل لي رأيك فيها . »

ودفع جبران الي مخطوطة « آلهة الأرض » وطلب إليّ أن أقرأها بصوتٍ عالٍ .

أخذت أقرأ ما بيدي فاذا به قصيدة منثورة ذات ثلاثة أصوات تمثل ثلاثة أرواح أو آلهة . لكل منهم نزعته الخاصة ونظرته في الناس وحياتهم . فالأول إله عبوس كؤود ، ملّ الناس وسياسة الناس ، وملّ جبروته وألوهيته الى حد أنه أصبح ينشد العدم :

« لقد سئمتْ روحي كل ما هو كائن . وأنا أربأ بيدي أن أحركها لأخلق عالماً أو لأمحو عالماً . وأنا أوثر الموت على الحياة لو كان في استطاعتي أن أموت . فقد أثقلت كاهلي دهور لا تحصى . وأنين البحور المستمر يسلبني لذة النوم . »

والثاني إله يطيب له اللعب بالأرض وما عليها من حياة . لا سيما بالانسان

وحياته . فيقول لرفيقه الأول إنه ليس نظيره يطلب العدم . لكنه يختار طريقاً أصعب من طريقه . وهي :

« ... أن أبعث الانسان من الظلمة الخفية وأترك جذوره عالقة بالأرض .

« أن أعطيه العطش الى الحياة وأجعل ساقيه الموت .

« أن أمنحه الحب الذي ينمو بالألم ، ويتسامى بالشهوة ، ويزداد بالشوق ثم يذوي لدى أول قبلة .

« أن أمنطق لياليه بأحلام أيام مشعشعة بالفرح ، وألقح أيامه بخيالات ليالٍ مترعة بالغبطة ، وأن أقيد لياليه وأيامه فتبقى أبداً متشابهة .

« أن أجعل خياله كنسر الجبال ، وأفكاره كعواصف البحار ، ومن ثم أن أعطيه يدين تترددان في العمل ، ورجلين يثقلهما التأمل .

« أن اعطيه الفرح كيما يرنم لنا . والحزن كيما يضرع الينا . ومن ثم أن ألقمه الأرض عندما تصرخ الأرض من جوعها طالبة طعاماً .

« أن أرفع نفسه فوق السماء كيما يذوق طعم غدنا . وأن أدع جسده يتمرغ في حمأة الأرض كيما ينسى أمسه الدابر . »

أما الاله الثالث فيصغي الى رفيقيه ، وبصره تائه في الوادي يرقب فتى وفتاة يرقصان للحب ويرغان له . وفيهما يرى كل سر الحياة . ولكنه عبثاً يحاول أن يجذب اليهما أبصار رفيقيه وأفكارهما . فهما لا ينتبهان في البدء الى ما يقول . إلا أنه يفوز في النهاية فيستميل الاله الثاني الى رأيه بأن الحب هو السرّ كل السر والحق الذي ما بعده حق ، ويبقى الأول حائراً

ما بين النور والظلمة . ويختم الإله الثالث المحاورة قائلاً في بعض ما يقوله :

« نحن سيكتنفنا الغسق . وقد نستيقظ لنرى فجر عالم غير هذا العالم . أما الحب فسيبقى ، وآثار أصابعه لن تمحى الى الأبد . »

كنت في قراءتي كلما وقفت عند عبارة بارعة ، أو تشبيه بديع ، أو فكر جذاب أنظر الى جبران فأرى وجهه مشرقاً بنور كأنه أذيال الشمس عند المغيب وقد نشبت في غمامة . والغمامة هي ذلك الألم الذي أنزلته به الحياة وحاول أن يصفه بلسان الإله الثاني . ومع أني كنت منذ دقائق أنهاه عن الكتابة ، لم يسعني إلا أن أبدي له اعجابي بأسلوب القصيدة النضر وخيالها الواسع . وأسفي لأنها من معدن غير معدن « النبي » الصافي ، ولأن نفسه التي كانت قد التأمت في « النبي » عادت فتشعبت في « آلهة الأرض » . وأنا أعلم في داخلي أن الألم كان مبعث التشعب . أما لساني فما كان يطاوعني لأفوه بذلك .

بعد أن انتهينا من قراءة القصيدة والتحدث فيها قام جبران من فراشه وهو في ثياب النوم وأخذ يعرض عليّ الرسوم التي أعدّها لها – وعددها اثنا عشر – فكاد ينسيني نفسه ونفسي والقصيدة التي ما برحت أنغامها ترن في أذني . فقد أدهشتني من تلك الرسوم – علاوة على ما فيها من رشاقة وانسجام وألفة ألوان – قوة كنت ألمحها في فن جبران ولكن ما رأيتها قط مجسمة الى هذا الحد . وأدهشني كيف أن كفة جبران الفنان أخذت ترجح على كفة جبران الشاعر كلما تمادت بذاك وهذا السنون . فحين أن جبران الشاعر لم يبقَ عنده ما يقوله من بعد « النبي » إلا اعادة ما قاله ، كان جبران الفنان يزداد براعة وجرأة وقوة في فنه .

« كل هذه من شغل الصيف الماضي يا ميشا . فقد كان صيفاً مثمراً » ـ وبعد فترة من السكوت :

« ميشا . لقد ذكرتك في وصيتي . »

سقطت هذه الكلمات عليّ سقوط البرَد من غمامة في الصيف . فأجفلت من سكوتي وشعرت كأن قلبي تحول فجأة الى جرة من دموع . وكادت الجرة تفرغ كل ما فيها من عيني لو لم يسد فوهتها خوفي على الجالس بجانبي ومعرفتي أن دمعة من عيني في مثل تلك الساعة تنفجر لها ساقية دموع من عينيه . فقلت له وفي صوتي غصة :

« ما كنت أحب أن أسمع ذلك منك يا جبران لا اليوم ولا بعد اليوم . فأنت لو فتشت عن أمر توصي لي به ـ من بعد عمر طويل ـ لما وجدت أعز من نفسك . وتلك أنا حاصل عليها من غير وصية . فأنت معي في كل حين مثلما أنا معك في كل حين . »

***

بعد ذلك بأسابيع أخبرت نسيب عريضه عما كان بيني وبين جبران بشأن وصيته ، فأجابني أن جبران قال له عين ما قاله لي : « لقد ذكرتك في وصيتي يا نسيب . » وعلى أثر وفاة جبران حدّثني عبد المسيح حداد عن زيارته له قبل وفاته بأربعة أيام . قال :

« دخلت عليه وكان النهار ممطراً . وكان قد طلب إليّ أن آتيه ببعض الصحف العربية ليتسلى بها . فأخذت له رزمة كبيرة منها . وكان في فراشه فنهض وجلس بجانبي . وللمرة الأولى سمعت الموت في صوته

ورأيته على وجهه . غير أني حاولت مقدرتي ألا أظهر له شيئاً مما سمعت ورأيت . تحدثنا في أمور كثيرة . ولكن أكثر حديثه كان عن « الرابطة » واخوانه فيها . فقد أخذهم واحداً واحداً وراح يكشف فكره وقلبه نحو كل منهم كأنه يقصد أن يجمعهم حواليه ولو بفكره وأن يودعهم الوداع الأخير .

وعندما سألني عن عائلتي ذكر كل واحد من أولادي وأعطاني بضعة دولارات وكلفني أن أشتري بها طاقة من الزهر أقدمها كسلام منه الى أمهم . ثم التفت إليّ وقال : « لا تخف على مستقبل أولادك يا عبد المسيح . اذا مدّ الله بعمري فأنا سأهتم بأمر تعليمهم . وإلا فاني قد تركت لهم في وصيتي ما يكفيهم . ووصيتي في تلك الخزانة . » وأشار الى الخزانة الصغيرة بجانب سريره . »

ولكن لا عبد المسيح ولا نسيب ولا أنا كنا نعرف مرض جبران الحقيقي . فكان يودعنا ونحن غافلون عن أنه مودّع . وكانت الأقدار تلملم خيوط حياته الأرضية ونحن نحسبها ما تزال ماضية في نسجها .

الاحتضار

الغرغرة تغور في الصدر ويبعد قرارها ، كأنها بقايا شريدة من عاصفة في قعر واد . والأنات تتواهى وتتقطع وتتباعد . ومعـاون الطبيب يجس النبض من حين الى حين في انتظار النبضة الأخيرة .

وأنا ، بجانب السرير ، أفكر في القلب المحتضر أمامي ودقاته من الأولى حتى الأخيرة – أين هي ؟ فيتراءى لي أن في الفضاء حافظة تعي كل دقة من كل قلب ، وكل شهوة ، وكل فكر ، وكل عمل ، وكل طرفة عين ، وكل حلم ، وكل نبرة ، وكل نفس . وأن كلّ انسان سيأتيه يوم تتمزق فيه أغشية الحس عن عينيه ، وتنفك عصائب الوهم عن أذنيه ، فيبصر ويسمع كل ما كان من أمره منذ صدوره من مصدر الحياة حتى عودته اليه . بل يخيل اليّ أن تلك الحافظة كامنة في أعماق الانسان نفسه ، وأن الانسـان ، من حيث لا يدري ، يحفر حياته فيها مثلما يحفر الصوت في صفيحة الفونوغراف . وأذكر قول يسوع « ليس خفي إلا سيظهر » فأحس برهبة الدينونة وعدلها وأرى أن يوم الدين هو اليوم الذي نسمع فيه فونوغراف حيـاتنا يردد علينا كل ما كان منا على ممر الدهر . فأستغفر الحياة عن كل ما نسبته أو ينسبه اليها الناس من جور وخشونة وقساوة وأقول لنفسي : مثلما تغنين يغنى لك . والذي تزرعين تحصدين . ما ظُلمتِ إلا لأنـك ظلمتِ . ولا توجعتِ إلا لأنك أوجعتِ . ولا بكيتِ إلا لأنكِ أبكيتِ . كما أنت كذلك حياتك .

والموت ؟ – أتكون حافة السرير بجانبي الحدّ الذي تنتهي اليه حياة من في السرير ؟ أيكون هذا السرير الصغير أوسع من الله الذي انبثقت منه تلك الحياة ، فكانت أزلية مثله ، والذي يستحيل عليها أن تخرج عن نطاقه فتبقى أبدية مثله ؟

وعلاقتي برفيقي ؟ أتنقطع بانقطاع أنحابه ؟ وأفكارنا التي تقاربت فتلاصقت في بعض مناحيها ، وروحانا اللذان تعارفا فتآخيا – أتفصل بينها وهدة الموت الى الأبد ؟ أين هي القدرة التي في وسعها أن تحل حلقة واحدة من سلسلة الزمان وتترك السلسلة مفككة مقطعة ؟ أليس أن علاقتي برفيقي حلقة في تلك السلسلة ، فهي لا تنفك مادام الزمان زماناً ؟ أليست كل حلقة في سلسلة لا بدء لها ولا نهاية حلقةً لا بدء لها ولا نهاية كتلك السلسلة ؟ أليس أن حلقتين متصلتين في مثل تلك السلسلة تبقيان كذلك الى الأبد ، فاذا ما اختفتا في ناحية من نواحي الزمان برزتا في غيرها ، كالشمس تغيب عنا في بقعة من الأرض فتشرق في سواها ؟ لا . ليس على الأرض ولا في السماء قدرة تستطيع أن تفصم عروة مكنتها الحياة بين انسان وانسان ، أو بين شيء وشيء . وهل في الكون ذرّة ليست مربوطة بكل ما في الكون ؟

رباه ما أوسعك ! رباه ما أجملك ! رباه ما أعدلك ! وما أجهلنا نفصل أنفسنا عنك بكل ما نفعل ونقول ونفكر ونشتهي . فنشقى ، ونحزن ثم ننتحب عندما تضمنا اليك . وما أغبانا نحرق العمر طالبين معرفة غير معرفتك ، وحقاً غير حقك ، وسلاماً غير سلامك . وما أفقرنا ندّخر من دنيانا كل أصناف الزاد الا زاد المحبة الذي لا يفنى . وما أضعفنا نتحصن من هذه

الساعة بكل أنواع الحصون إلا حصن الايمان الذي لا يُدكّ . وما أشد عمانا نفتش عنك في غير أنفسنا !

ولكن ، لماذا كُتب لي من بين كل رفاق جبران واخوانه أن أشهد عراكه مع الموت وحدي ؟ لقد حاولت مراراً وبغير جدوى أن أتصل بالتلفون بنسيب وعبد المسيح . فقد كان يحبهما محبة جمة . فلأحاول مرة بعد .

أنهض عن كرسيّ فأسمع خارج الباب نحيباً . وأفتح الباب فأعرف أن مريانا قد قدمت من بوسطن فور تسلمها برقية تستدعيها الى نيويورك . ولم تكن حتى ذلك اليوم تعرف أن أخاها في خطر الموت . وأرى النسوة يقدنها الى غرفة محاذية لغرفة أخيها . وهي تشهق بدموعها ، وتنتحب وتستغيث . وكانت تعرفني عندما زرت جبران مرة في بوسطن وتعرف الكثير عني من جبران . فلا يقع نظرها عليّ حتى تختنق بعبراتها مستجيرة بي كأن في قدرتي رفع القدر المحتوم :

« دخيلك ! اني أشمّ فيك رائحة جبران . دخيلك ! أنت أخوه وأخي . أيموت ؟ أمات جبران ؟ دخيلك ! أتتركه يموت ؟.. »

أعود الى غرفة جبران وفي قلبي نحيب مثلما في أذني . فأسمع الغرغرة تكاد تتلاشى والأنات يهبط قرارها حتى لا يكاد يُسمع . فتهرب مني أفكاري ، وتتشتت خيالاتي . وتسألني نفسي ألف سؤال فأجيبها بألف لون من ألوان الصمت . وتختلط عليّ مشاعري فلا أدري أأحزن أم أتجلد . أأفرح لانعتاق أخي من متاعب الأرض ، أم أتفجع لحياته الملأى بالعواصف والخيالات والأشواق والأماني والظلال والأنوار تلملم أذيالها عن الأرض قبل أن تشبع من الأرض أو تشبع الأرض منها . لكنني أشعر

برهبة الساعة وهيبة السر الذي تتممه الحياة أمام عيني . وتخطر ببالي كلمات المصطفى للبحر :

« سيدور هذا الجدول دورة بعد . سيهمس بعد همسة في هذه الغاب . ومن بعدها سآتيك قطرة لا تحد الى محيط لا يحد . »

وكلماته الأخيرة لأهل اورفليس :

« عما قليل ، بعد هجعة قصيرة على أجنحة الريح ، ستحبل بي امرأة أخرى . »

وعندما ينسلّ آخر نفس من صدر جبران ، نحو الساعة الحادية عشرة من الليل ، أحس بقوة تجذبني الى الأرض . فأهبط على ركبتي بجانب السرير وأدفن وجهي في ثنايا الملاءة البيضاء عليه . ومن كل الأصوات التي تتسابق الى أذني لا أسمع في داخلي إلا صوتاً واحداً . أسمعه متقطع النبرات . وفي بعض نبراته صلاة قلب منسحق . وفي بعضها ترنيمة ايمان ظافر . هو صوت داود النبي :

« ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك امح معاصيّ ... اني في الاثم ولدت وفي الخطيئة حبلت بي أمي ... تنضحني بالزوفى فأطهر . تغسلني فأبيض أكثر من الثلج ... قلباً طاهراً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي ... »

وتغمرني شبه غيبوبة أفيق منها مخاطباً نبي الجليل ومردداً كلماته الوداعية لتلاميذه :

« وها أنا معكم كل الأيام الى منتهى الدهر . »

ملحق
٣

جثمان جبران

يحكى عن الفيلسوف الصيني تشوانغ تسو الذي عاش في القرن الرابع ق. م. أنه ، عندما كان على فراش الموت ، جاءه تلاميذه ليطلعوه على رغبتهم في الاحتفال بدفنه احتفالاً باهراً . فقال لهم :

« ما دام لي من الأرض نعش ومن السماء كفن ومن الشمس والقمر والنجوم أوسمة ، وما دامت الخليقة بأسرها ستشيعني الى القبر — أوَليست كل معدات دفني جاهزة ؟ »

فردَّ عليه تلاميذه : « لكننا نخشى كواسر الجو من أن تمزق جثمان معلمنا . » فكان جوابه لهم : « أنا عَلى التراب سأكون طعاماً للكواسر . وفي التراب سأكون طعاماً للدود . فلماذا نُجيع تلك لنطعم هذه ؟ »

لكن « المدنية المنوَّرة » تقاليد عمياء أنى لها أن تبصر حكمة تشوانغ تسو ! فهي تجلّ التراب من بعد أن تفارقه نسمة الحياة أكثر من اجلالها إياه ونسمة الحياة ما تزال فيه . وكم خلقت للأحياء من متاعب فوق نكبتهم بموت أمواتهم .

قضيت ما تبقى من ليلتي — بعد أن تركت المستشفى وشيعت مريانا ومن معها الى النزل — ولم يغمض لي جفن . وفي صباح اليوم التالي — السبت — قصدت محترف جبران فوجدت مريانا ومن كان معها قد سبقوني اليه . ورحت أهتم مع بعض الأصحاب باذاعة خبر الوفاة في الجرائد ،

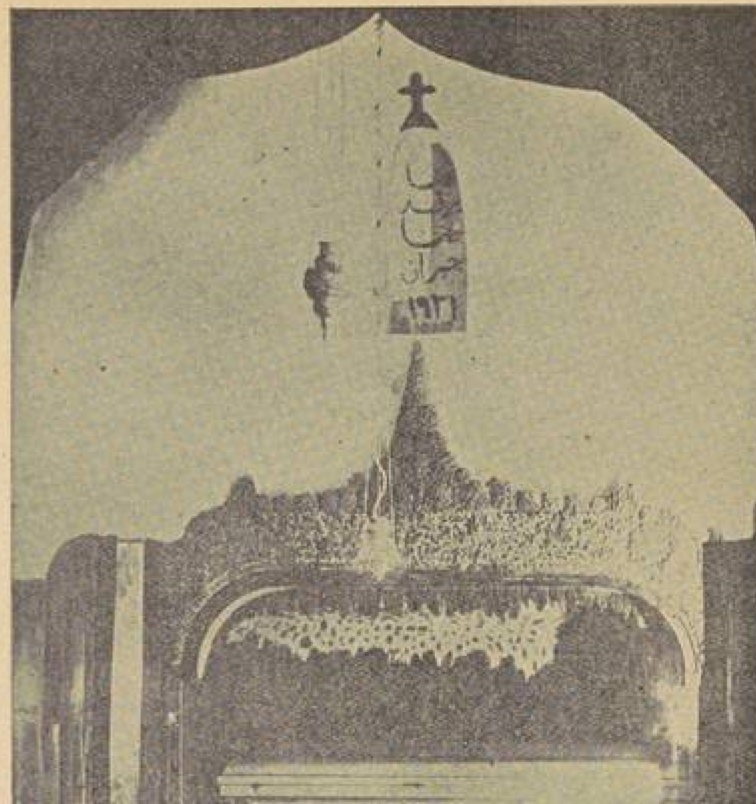
وبالتفتيش عن محنط ، وعن نعش ، وعن قاعة لائقة ومناسبة عند أحد الدفّانين تعرض فيها الجثة . فقد رأينا أن يعرض الجثمان كل نهار الأحد في نيويورك ليودعه من شاء من الأصحاب والمعجبين قبل أن ننقله الى بوسطن . وهكذا كان . وتقاطر المودعون من سوريين وأميركيين ليلقوا النظرة الأخيرة على جبران وهو مسجىً في نعشه المحفوف بالرياحين والأزهار .

في تلك الاثناء جاءني من يقول لي إن كاهن الكنيسة المارونية في نيويورك لا يرضى أن يعطي تصريحاً لكاهن الكنيسة المارونية في بوسطن بالصلاة على جثمان جبران . لأنه زار جبران في المستشفى وعرف من الراهبة ما قاله لها عندما سألته اذا كان كاثوليكياً ، ولم يتمكن من مخاطبته ليعرف ما اذا كان يرغب في الاعتراف ومناولة الأسرار الالهية بعد أن انقطع عنها نحو ثلاثين سنة . فقلت لمخبري – وكان مارونياً وذا نفوذ كبير في طائفته – أن يستعمل نفوذه مع الكاهن ليحصل على ورقة تصريح ، لا إكراماً لجبران الذي لم يكن يحفل بمثل هذه الأمور ، بل رحمة بشقيقته التي ما كانت تكف عن البكاء والنحيب دقيقة واحدة . فلم يخيِّب طلبي .

صباح الاثنين نقلنا الجثمان بالقطار الى بوسطن ، وقد رافقه غيري وغير مريانا ونسيبين من أنسبائها عدد من اخوان جبران في الرابطة القلمية وسيدتان اميركيتان من اللواتي لقيتهن في المستشفى . وفي بوسطن بقي الجثمان مسجىً في قاعة جمعية المساعدة للسيدات السوريات حتى صباح الثلاثاء . وهناك – في تلك القاعة – تعرفت بماري هاسكل التي قدمت من سافانا البعيدة لتحضر الدفن . فرأيت الرصانة والبساطة والدعة ورحابة الصدر في كل ملامحها – حتى في ثيابها . ولم أقرأ في وجهها حزناً ولا سمعت في



دير مار سركيس



ضريح جبران في مار سركيس

صوتها غصة . بل حدثني حينئذٍ – ومراراً بعدئذ – عن جبران كما لو كان ما يزال حياً . وأنا مدين لها بالكثير مما صورته في هذا الكتاب من علائق جبران معها ومع ميشلين .

صباح الثلثاء نقل الجثمان الى كنيسة سيدة الأرز المارونية . ومن بعد الصلاة عليه سير به في موكب حافل الى المقبرة حيث أودع مدفناً موقتاً ريثما تفتح وصية جبران فنرى اذا كان يبدي رغبة ما في أمر دفنه إما في أميركا أو في لبنان .

بعد أشهر قرّ رأي مريانا أن تنقل جثمان أخيها الى لبنان الذي كان يحن اليه حنيناً دائماً . فبلغ الجثمان بيروت في ٢١ آب حيث جرى له استقبال ما عرفت بيروت نظيره . وفي اليوم التالي سار في موكب رهيب الى بلدته المحبوبة – بشري . وهناك استقر ، بعد مناورات كثيرة ، في الخلوة التي كان جبران يمني نفسه ويمنيني بها – في مار سركيس . وقد توفق ذووه الى ابتياع ذلك الدير .

زرت مار سركيس في صيف سنة ١٩٣٢ . ولست أعرف ما يصف جمال موقعه وهيبة سكينته أبلغ من الآية المخطوطة باللاتينية فوق بوابته بأحرف تكاد العناصر تعبث بها :

OH BEATA SOLITUDO
OH SOLA BEATITUDO

أيتها الوحدة المغبوطة
أيتها الغبطة الوحيدة

وصية جبران

ان الوصية التي قال جبران لي ولنسيب عريضه ولعبد المسيح حداد وعدد من السيدات الأميركيات اللواتي عرفت منهن سبعاً انه ذكرنا فيها لم يظهر لها أثر . أتراها ما برحت في ذمة جبران ؟ لا أظن ذلك البتة . فجبران أخبرنا عنها كأمر ناجز . حتى انه دل عبد المسيح على الخزانة التي وضعها فيها . وما كان من داع له أن يذكرها قبل موته بثلاثة أيام الا رغبته في تثبيت وجودها . أهي في ذمة الزمان ؟ أهي في ذمة بعض الناس ؟ الله أعلم . أما الوصية التي ظهرت وتقدمت الى المحكمة فتاريخها في ١٣ آذار سنة ١٩٣٠ ، أي قبل وفاة صاحبها بما يقارب السنة . وقد وجدت نسخة منها عند مريانا في بوسطن ، والأصل عند ادغار سباير في نيويورك . واليك ترجمتها :

« كل ما لي من دراهم وسندات مالية عند المستر ادغار سباير ، الذي تلطف واحتفظ لي بها ، أريد أن يكون بعد مماتي من نصيب شقيقتي ماري خ. جبران الساكنة حالاً تحت رقم ٧٦ شارع تيلر في مدينة بوسطن من ولاية ماساتشوستس .

هناك أيضاً ٤٠ (أربعون) حصة من حصص شركة بناية المحترف رقم ٥١ من الشارع العاشر غرباً ، وهي موجودة في صندوقتي للودائع في بنك منهاتان ترَسْت كومباني ، رقم ٣١ يونيون سكوير ، مدينة نيويورك . وهذه الحصص أوصي بها لشقيقتي كذلك .

وهناك ، علاوة على ما تقدم ، دفتران للتوفير في وستْ سَيدسايفينغس بنك ، رقم ٤٢٢ من الأفنيو السادس في مدينة نيويورك . وهذان

الدفتران عندي في المحترف . وأنا أريد من شقيقتي أن تأخذ هذا المال الى بلدتي بشري وتنفقه هناك على الاحسان .

كذلك أوصي لبشري بريع كتبي التي ، حسبما أعرف ، يمكن ورثتي أن يطلبوا تجديد الاحتفاظ بحقوق طبعها لثمانٍ وعشرين سنة بعد مماتي .

كل ما هو في محترفي من رسوم وكتب وسلع فنية الخ ، أوصي به بعد مماتي لمسز ماري هاسكل مِينس ، الساكنة حالاً تحت رقم ٢٤ شارع غاستون في مدينة سافانا من ولاية جورجيا . لكنني أرغب الى مسز مينس ، اذا هي استنسبت ذلك ، أن تبعث بكل هذه الأشياء أو ببعضها ، الى بلدتي . »

بلغ مجمل تركة جبران ٥٣،١٩٦ دولاراً . أما قبل حلول الأزمة وهبوط أسعار العقارات والأسهم المالية فكانت ثروته تقدر بين الثمانين والتسعين ألفاً .

رسائل جبران الي

لدي طائفة من رسائل جبران ما كنت لأعرضها على القارىء بكل ما فيهـا من شؤون خاصة الا لأنها تكشف له نواحي كثيرة من نفسية جبران وحياته . وفي بعضها ما قد يجرح بعض الناس بصراحته . لكنها جراح تشفع بها سلامة النية . وكان من عادة جبران ، الا فيما ندر ، أن يهمل التاريخ في رسائله فيكتفي بذكر نهار الأسبوع دون الشهر والسنة . وذلك لأن أكثر رسائله الي كان من بوسطن الى نيويورك . والبريد بين المدينتين يصل في ست أو سبع ساعات . لكنني قد وضعت في أول كل رسالة مهملة من التاريخ السنة التي كتبت فيها مهتدياً اليها من مضمون الرسالة :

(من نيويورك الى والا والا ، واشنطن) في ٤ أيلول سنة ١٩١٩

عزيزي ميخائيل . سلام الله عيك وبعد فقد عدت من سفرتي المستطيلة واجتمعت بأخينا نسيب وتحدثنا ملياً في شأن إحياء الفنون وفي السبل التي تضمن مستقبلها . ولقد اجتمعت وحادثت الكثيرين من أدباء ومتأدبي بوسطن ونيويورك في هذه المسألة فكانت تلك الاحاديث تبلغ نقطة واحدة وتقف عندها . أمـا النقطة فهي هذه : نسيب عريضه لا يستطيع أن يقوم وحده بالعمل ومن الواجب أن يعود ميخائيل نعيمه الى نيويورك ويشترك مع نسيب بوضع المشروع على أساس عملي أمام أدباء نيويورك وتجارها لأن ثقة هؤلاء تكون بوجود الاثنين ولن تكون بوجود الواحـد . نيويورك عـاصمة السوريين في المهجر ولميخائيل نعيمه تأثير على سوريي نيويورك . يجب إقامة

حفلة كبيرة في نيويورك يوصد ريعها للمجلة ، وكيف تنجح الحفلة بما تتناوله من خطب وموسيقى وتمثيل وتشجيع وترغيب والذي يجب أن يديرها ويرتبها موجود في واشنطون ؟ يجب تشكيل لجنة صغيرة لتقوم بالعمل ويجب أن يكون أمين صندوقها من المعروفين عند سوريي الداخلية الذين سيسألون نفوسهم ألف سؤال وسؤال قبل أن يجيبوا على النشرة — ومن يا ترى غير ميخائيل نعيمه يستطيع أن يشتغل بتشكيل هذه اللجنة ؟

وهناك يا ميخائيل أمور كثيرة تبتدي وتنتهي بك كلما فتحنا حديث مجلة الفنون . فاذا كنت تريد إحياء المجلة عليك أن ترجع الى نيويورك وتكون « الزنبرك » وراء كل حركة لأن نسيباً لا يستطيع أن يفعل شيئاً في الوقت الحاضر وليس في نيويورك من محبي « الفنون » ومريديها من يقدر أن يتخذ مسؤولية المشروع على عاتقه . أنا أعتقد أن خمسة آلاف ريال تكفل مستقبل المجلة بيد أنني أعتقد أن النشرة بدون الحفلة لا تجمع نصف هذه القيمة . الخلاصة — انه على وجودك في نيويورك يتوقف نجاح المشروع . واذا كان رجوعك الى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية في مثل هذه الظروف هي العزيز الموضوع على أقدام الأعز والمهم الموقوف على مذبح الأهم . وعندي أن الأعز في حياتك هو تحقيق أحلامك ، والأهم في حياتك هو استثمار مواهبك .

اكتب اليّ ان شئت والله يحفظك لأخيك . جبران .

(من بوسطن الى نيويورك) في ٢٤ ايار سنة ١٩٢٠

أخي ميخائيل . سلام على روحك الطيبة وقلبك الكبير . وبعد فان الرابطة القلمية ستعقد اجتماعاً رسمياً مساء غد (الاربعاء) أما أنا فلسوء

حظي سأكون بعيداً عنكم . ولولا محاضرة عليّ أن ألقيها مساء الخميس لرجعت الى نيويورك كرامةً لعيني الرابطة القلمية ، فان حسبتم إلقاء المحاضرة عذراً شرعياً شكرت لكم كرمكم والتفاتكم ماذا وإلا فاني سأدفع الخمسة ريالات (جزاء نقدي) بكل طيبة خاطر – وحبة مسك !

كانت هذه المدينة في الأيام الغابرة تدعى مدينة العلوم والفنون ، أما اليوم فهي مدينة التقاليد . أما نفوس سكانها فمتحجرة وأما أفكارهم فعتيقة بالية . والغريب يا ميخائيل أن المتحجر يتكبر ويتعجرف دائماً والعتيق البالي يتبجح ويتشامخ أبداً . وكم مرّة جالست أحد أساتذة هارفرد وشعرت بأني في حضرة شيخ من مشايخ الأزهر ، وكم مرة حادثت سيدة بوسطونية وسمعت من فمها ورقيها ما كنت أسمعه من جهالة وبساطة عجائز سوريا . الحياة كلها واحدة يا ميخائيل ، ومظاهر الحياة في قرى لبنان مثلها في بوسطن ونيويورك وسان فرنسيسكو .

اذكر اسمي مشفوعاً بودتي أمام اخواني العمال في الرابطة القلمية والله يحفظك عزيزاً لأخيك . جبران .

(بوسطن – نيويورك) مساء الاربعاء (١٩٢٠)

أخي ميخائيل . قرأت الساعة مقالتك في « العواصف » فماذا يا ترى أقول لك يا ميخائيل ؟

لقد وضعتَ بين عينيك وصفحات كتابي مكبرة بلورية فظهرت أكبر مما هي حقيقةً – وهذا مما يجعلني أخجل من نفسي . لقد ألقيت بمقالتك مسؤولية كبيرة على عاتقي فهل أستطيع أن أقوم بها – هل أستطيع تحقيق

الفكرة الأساسية في نظرياتك ؟ أتبينك منشئاً هذه المقالة النفيسة وأنت تنظر الى مستقبلي لا الى ماضيّ – لأن ماضيّ كان خيوطاً ولم يكن نسيجاً. كان حجارة مختلفة الحجم والصورة ولم يكن قط بناءً . أتبينك تنظر اليّ بعين الأمل لا بعين النقد فأندم على الكثير من ماضيّ وفي الوقت نفسه أحلم بالمستقبل وفي نفسي حماسة جديدة ، فان كان هذا ما أردت أن تفعله بي ولي عندما كتبت نقدك فقد نجحت يا ميخائيل .

قد استحسنت أوراق « الرابطة » الى درجة قصوى غير أنني أرى أن الآية « لله كنوز تحت العرش الخ » يجب أن تكون ظاهرة بوضوح تام . أما نشر أسماء الموظفين والأعضاء فلا بد منه اذا كنا نريد إيجاد التأثير المعنوي المطلوب . وكل ناظر الى ورقة من أوراق « الرابطة » يسأل « من هم عمال الرابطة القلمية ؟ » ولكنني مع ذلك أفضل أن تنشر الأسماء بأصغر أحرف عربية موجودة .

بكل أسف يا ميخائيل لا أستطيع الرجوع الى نيويورك قبل منتصف الأسبوع الآتي ، فأنا مقيد ببعض المشاكل الحيوية في هذه المدينة المكروهة ، ولولا هذه المشاكل لكنت ذهبت وشقيقتي الى البرية منذ اسبوعين ، فما العمل ؟

اذهبوا الى ملفرد واملأوا كؤوسكم من خمرة الروح وخمرة العنب ولكن لا تنسوا أخاكم ومحبكم المشتاق اليكم ... جبران .

(بوسطن – نيويورك) مساء الاربعاء (١٩٢٠)

يا أخي يا ميخائيل . سلام عليك وعلى قلبك الكبير وروحك الطيبة . وبعد فاني أريد أن أعرف كيف أنت . وأريد أن أعرف أين أنت . هل

أنت في غابة أحلامك أم في مسارح أفكارك أم على قمة ذلك الجبل حيث تتحول جميع الأحلام الى رؤيا واحدة وجميع الأفكار الى ميل واحد ؟ أخبرني أين أنت يا ميخائيل .

أما أنا فبين صحتي المشوشة ومشيئة الناس بي أشبه شيء بآلة موسيقية محلولة الأوتار في يد جبار يضرب عليها أنغاماً غريبة خالية من الألفة والتناسب (الله يساعدني يا ميخائيل على هولا الامار كيين) الله يبعدني واياك عنهم الى أودية لبنان الهادئة .

بعثت الساعة الى عبد المسيح بقطعة صغيرة للنشر . انظر فيها يا أخي فان وجدتها غير حرية بالنشر قل لعبد المسيح أن يحفظها في قرنة مظلمة حتى رجوعي . هي كلمة كتبت بين نصف الليل والفجر وأنا لا أدري ما اذا كانت حسنة أم غير حسنة . أما الفكرة الأساسية فيها فليست بغريبة عن أحاديثنا في سهراتنا . وأخبرني كيف نسيب وأين نسيب . كلما فكرت بك وبنسيب شعرت بسلامة وطمأنينة وهدوء سحري وقلت في سري : « ليس تحت الشمس شيء باطل . »

وألف تحية وسلام الى اخواننا بروح الحق . والله يحفظك ويحرسك ويبقيك أخاً عزيزاً لأخيك . جبران .

(قمت مرة برحلة قصيرة من قبل محل تجـاري الى بعض الولايات المجاورة لنيويورك . فكتب الي جبران في اثنائها الرسائل الثلاث التالية ، أما « المجموعة » التي يذكرها فمجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١)

(عن نيويورك) في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٢٠

عزيزي ميخائيـل . كلما فكرت بك متجولاً في « الداخلية » كممثل لبيت تجاري شعرت بنوع من الألم . غير أنني أعلم أن هذا الألم هو من بقايا الفلسفة القديمة ، فأنا اليوم أؤمن بالحياة وبكل ما تجلبه الحياة وأحقق أن جميع ما يأتي الأيام والليالي حسنة وجميلة ونافعة .

قد اجتمعنـا ليلة أمس عند رشيد فشربنا وأكلنـا وسمعنا الأغاني والقصائد – ولكن ليلتنا لم تكن كاملة ، فأنت لم تكن معنا بكليتك !

أمـا مواد المجموعة فجاهزة بالروح ! ومرتبة بالكلام ! وكلمـا طلبت شيئاً من أحد اخواننا يقول لي « بعد يومين » أو « في آخر هذا الأسبوع » أو « في الأسبوع الآتي » . ان فلسفة التسويف – وهي شرقيـة – تـكاد تخنق جلدي . والغريب يا ميخائيل أن بعض الناس يحسبون الغنج والدلال مظهرين من مظاهر الذكاء !

قد طلبت من نسيب بواسطة عبد المسيح أن يفتش عـلى « العاقر » و « مذكرات الأرقش » وهو فاعل ان شاء الله .

سررت بقولك انك لا تطيل الغربة . وربمـا كان الواجب عليّ ألا أكون مسروراً .

عد الينـا يا ميشا عندما تشاء تجدنا مثلما تشاء – والله يحفظك ويحرسك لأخيك . جبران .

(عن نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢٠)

عزيزي ميشا . أسعد الله صباحك أيها التائه بين منازع الأرض ومرامي السماء . وبعد فقد سمعت صوتك منادياً «عــلى بضاعتك» في الأسواق والساحات . سمعتك تقول بصوت عــالٍ رخيم : «يا الله عالحام – يا الله عالشبت والعنبر كيس» – ولقد استحسنت نغمة صوتك يا ميشا – وأنا أعلم أن الملائكة تسمعك وتدوّن مناداتك في الكتاب الأبدي .

قد سررت «بتوفيقك الباهر» بيد أنني أخاف من هذا التوفيق ! أخافه وأخشاه لأنه قد يسير بك الى قلب العــالم التجاري ومن يبلغ ذلك القلب يصعب عليه الرجوع الى عالمنا !!

سوف أجتمع الليــلة بنسيب وعبد المسيح في هذه الصومعة ونبحث ونتحدث بشأن «المجموعة» ويا ليتك معنا يا ميخائيل – يا ليتك معنا .

أنا في هذه الأيام بين ألف عمل وعمل مثل نحلة مريضة في حديقة أزهار . ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الأزهار . ولكن النحلة مريضة مشوشة . صلّ من أجلي واكتسب أجري واسلم أخاً عزيزاً لجبران .

(عن نيويورك) مساء الاثنين (١٩٢٠)

عزيزي ميشا ، قـــد صرنا مشتاقين اليك وأنت لم تزل مودعاً ، فماذا يحلُّ بنا اذا ما غبت عنا ثلاثة أسابيع ؟

«المجموعة» «وما أدراك ما المجموعة» – هي سلسلة حلقاتها مصنوعة من التسويف والتردد . وكلما قلت كلمــة لنسيب أو لعبد المسيح بخصوص

المجموعة يقول لي الأول « غداً » أما الثاني فيجيب « الحق معك » ! ولكن قهراً عن التسويف والتعديد[1] فالمجموعة ستصدر في نهاية العام ان شاء الله .

اكتب إليّ عندما لا يكون لديك ما هو أفضل من الكتابة إليّ . واذا كانت قصيدتك الجديدة قد بلغت حدّ الكمال فابعث إليّ بنسخة منها . لم تعطني نسخة من « أيها الساقي » فليسامحك الله . كن كيفما شئت تبقى أخاً عزيزاً لأخيك . جبران .

(بوسطن – نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢١)

عزيزي ميشا . أسعد الله صباحك ومساءك وغمر الله أيامك بالأناشيد ولياليك بالأحلام . وبعد فاني باعث اليك طيّه برسالة حسنة وحوالة أحسن من أحد أنصار الرابطة ، فهلا أجبتَ على الأولى بما نعهده بك من سلامة الذوق ودقة البيان ، وتفضلتَ وقبلت الثانية بخوراً محروقاً وزيتاً مهروقاً ؟ لعلك فاعل ان شاء الله !

تقول لي انك قد أوعزت الى جورج[2] أن يبعث إليّ بمجلة وجريدة اسبانيتين ، أما جورج فللآن لم يفعل . سامح الله جورج . ورفع الله ذاكرة جورج بخبوط صبري وتجلدي ! يبدو لي يا أخا الصفا أن جورج قد رمى بجمهورية تشيلي الى سلة المهملات !

البرد في بوسطن هائل ، فقد تجمد كل شيء حتى أفكار البشر . ولكن رغم

---

١ هذه كلمة جديدة في اللغة العربية (التعليق لجبران) .

٢ كان كاتباً في ادارة السائح . والمجلة والجريدة كان فيهما شيء عن جبران .

البرد والريح القاصفة العاصفة فأنا في صحة ورغـد عيش . أمـا صوتي (أو زعقتي) فأشبه شيء بثورة بركان ! وأما لبطتي فمثل نيزك هبط من السماء ففغرت له الأرض حنكها ! وأما معدتي فمطحنة رحاها الأدنى مبرد ورحاها الأعـــلى لسان ثرثار ! فالرجاء أن تكون بزعقتك ولبطتك ومعدتك مثلما تشاء أينما تشاء عندمـــا تشاء . بلـّغ سلامي مشطراً ومخمساً ومذيلاً بشوقي ومحبتي ودعائي الى اخوان الصفا والله يحفظك عزيزاً لجبران .

(بوسطن – نيويورك) في اول كانون الثاني سنة ١٩٢١)

أخي ميشا . أسعد الله صباحك – وكل سنة وأنت بخير – وأثقل الله كرمتك بالعناقيد – وملأ الله بيـدرك بالغلة – وأفعم الله جرّاتك بالزيت والعسل والخمر – ووضع الله يدك على قلب الحيـاة لتشعر بنبضات قلب الحيـاة .

هذه أول رسالة أكتبها في السنـة الجديـدة – ولو كنت في نيويورك لطلبت اليك أن نصرف السهرة معاً في الصومعة الهادئة . ولكن ما أبعدني عن نيويورك وما أبعد الصومعة عني !

كيف حالك ، وماذا تكتب ، وماذا تنظم ، وبماذا تفكر ؟ هل صار عدد السائح الممتاز على أهبة الصدور أم هي المطابع والآلات تتسارع عندما نريدها أن تتهامل وتتهامل عندما نريدها أن تتسارع ؟ انما الغرب آلة وكل شيء في الغرب رهن الدولاب . نعم يا ميشا ، حتى وقصيدتك « هل تعلم الأشواك » هي رهن دواليب سلوم المكرزل !

لم تكن صحتي حسنة في الأسبوع الغابر ، لذلك لم أكتب شيئاً جديداً

ولكنني غربلت مقـالة « الضائع » ودلكت الخشن فيها ثم بعثت بها الى الهلال . اذكر اسمي يا ميشا أمام رفاقنا مشفوعاً بودتي وشوقي والله يحفظك عزيزاً لأخيك . جبران .

(بوسطن – نيويورك) مساء الجمعة (١٩٢١)

عزيزي ميخائيل . سلام عليك وبعد تجد طيه رسالة باسم مستشار الرابطة القلمية من بشاره الخوري صاحب جريدة البرق . وهي كما تراهـا قصيرة لطيفة وتـدل في الوقت نفسه على شيء من الألم في روح كاتبها – والألم دلالة حسنة .

ماذا حلّ بالصور الشمسية التي أخذناها في كاهونسي ؟ ألا فاعلموا أنني أريد الحصول على نسخة من كل صورة . فان لم أحصل على حقوقي رفعت عليـكم دعوتين ، واحدة في محكمة الصداقة والأخرى في ديوان أحمد باشا الجزار .

واذكر يا ميشا اسمي مشفوعاً بمـودتي أمـام اخواننا ورفاقنا والله يحفظك عزيزاً لأخيـك . جبران .

(بوسطن – نيويورك) الاثنين (١٩٢١)

عزيزي ميشا . اليك رسالة لطيفة من اميل زيدان فانظر فيهـا ودبر أمرها بالفكر الثـاقب والرأي السديد شأنك في كل حالة وكل زمان وكل مكان . الحرّ قتّال في هذه المدينة مثله في جميع الأماكن المحيطة بهذه المدينة ، فكيف حالـكم في نيويورك وماذا تفعلون ؟

في قلبي يا ميشا صور وأشباح تتمايل وتتمشى وتتهادى كالضباب ولكنني لا أستطيع وضعها في قوالب من الألفاظ . ربما كان السكوت أجدر بي حتى يعود هذا القلب الى ما كان عليه منذ سنة . ربما كان السكوت أولى بي ولكنَّ ما أصعب السكوت وما أمرّه في فم رجل تعود الكلام وألف الانغام !

وألف سلام لك وللاخوان الأحباء وابقَ أخاً عزيزاً لجبران .

(كتبت اليه مرة بتاريخ ١٦ تموز سنة ١٩٢١ بادئاً رسالتي بهذه المداعبة :
« سلام على قلبك الدقاق ، وانفك البراق ، وعلى ما ابيض من شعرك وما اسود من شعرك . وبعد فقد وافاني كتابك فسبب لك مني مسبة بدل المحبة لأنه مقتضب حتى الجفاء . »
فكان جوابه ما يلي) :

(بوسطن – نيويورك) ماء الخميس (١٩٢١)

عزيزي ميشا . ألف سلام على قلبك الذي لا يدق ولا يرق ولا يخفق ولا يبرق . وبعد فإنك تعيّرني بما ابيضّ من شَعري وما اسودّ من شِعري . وتنكر اقتضاباً في مقالي وسكوتاً عن حالي ، ثم تتدرج الى السباب وتدخل فيه من باب الى باب ، فلا حول ولا !

أما أنا فلا أرى بك عيباً يُنكر ، فأنت كامل بما فتم في صدغيك ، وغزر في قمة رأسك ، وفاض من شِعرك ، وراق في نثرك ، فكأنك تُخلقت كما شئت وأنت جنين ، وبلغت ما أردت وأنت في المهد ، فإنا لله وإنا اليه راجعون !

يعزّ عليّ أن أكون غائباً و «مَدّة»[1] نسيب حاضرة، ولكن ما العمل وليس في «المَدّة» ما يمتد من بلد الى بلد. ومن نكد الدنيا أن يشبع قومٌ مما لذّ وطاب، ويجوع قوم «حتى» الى نعمة الله ولا يحصلون على لقمة منها — كذا قضت الأيام ما بين أهلها!

سررت بالحاح نسيب عليك بكتابة مقدمة مجموعة «الرابطة» ولا شك أنك قد كتبت أو ستكتب ما سيكون «عقداً في جيد «المجموعة» ونقشاً في معصمها» فلا زلت يا أخا العرب «درة في تاج الأدب وكوكباً ساطعاً في سمائها».

صحتي أحسن مما كانت عليه منذ أسبوع. ولكن عليّ أن أبقى بدون شغل وبدون عمل وبدون فكر وعاطفة ثلاثة أشهر أو أكثر قبل الحصول على العافية بتمامها. أقول يا ميشا ان الامتناع عن العمل أصعب عمل، وان الراحة عند من تعود الشغل أقسى عقاب.

لقد قمت بالواجب عليّ نحو وليم كاتسفليس والمحتفلين بوداعه. وذلك بارسال تلغراف الى وليم وآخر الى انطون سمعان جواباً على تلغراف يدعوني فيه الى نيويورك لحضور الحفلة.

والله يحفظك ويحفظ اخوانك اخواني ورفاقك رفاقي واسلم عزيزاً لأخيك. جبران.

---

١ «المدة» أكلة امتاز نسيب باعدادها وهي من اللحم والخضرة واصناف التوابل وتطبخ في صينية بالفرن. ونسيب كان طاهينا الأكبر، لاسيا في زمان عزوبته.

(بوسطن – نيويورك) الأحد (١٩٢١)

عزيزي ميشا . قد استحسنت المقدمة جداً . ما قولك في إبدال « أكلوني البراغيث » بمثل آخر من نوعه ؟ هذا سؤال لا انتقاد ... بيد أنني أشعر أن بيت المعري يستدعي بكبره مثلاً كبيراً بتفاهته . أما « أكلوني البراغيث » فمضحك ولكنه صغير حتى عند تلامذة المدارس فيجب أن لا نشرفه باقامته عدواً « للحيوان المستحدث » .

أقول ثانيةً انني أسأل ولا أنتقد . أخوك جبران .

(بوسطن – نيويورك) ١٩٢١

أخي ميشا . مذ جئت هذه المدينة وأنا أتنقل من طبيب اختصاصي الى طبيب اختصاصي ، ومن فحص دقيق الى فحص أدق . كل ذلك لأن هذا القلب قد فقد وزنه وقافيته . وأنت تعلم يا ميخائيل أن وزن هذا « القلب » لم يكن قط مطابقاً للأوزان وقافيته لم تكن أبداً مماثلة للقوافي . ولما كان العرض تابعاً للجوهر والظل للحقيقة كان من المقرر المحتوم أن تأتلف هذه الكتلة في صدري مع ذلك الضباب المرتعش في الفضاء – ذلك الضباب الذي أدعوه « أنا » .

لا بأس يا ميشا ، فكل ما قُدّر يكون . غير أنني أشعر بأنني لن أترك لحف هذا الجبل قبل طلوع الفجر . وسيلقي الفجر نقاباً من النور والبهاء على كل شيء .

عندما تركت نيويورك لم أضع في حقيبتي سوى « النبي » وبعض الملابس أما دفاتري العتيقة فما برحت في زوايا تلك الغرفة الصامتة ، فماذا يا ترى أفعل لأرضيك وأرضي « الرابطة الأدبية » في دمشق ؟ من أوامر الأطباء

الانصراف عن كل عمل عقلي ، ولكن اذا « رشحت » قريحتي بشيء في الأسبوعين القادمين فاني سأتناول اسفنجتي وألتقط بها ما « ترشحه » قريحتي ماذا وإلا فعذري مقبول .

لا أدري أي متى أعود الى نيويورك . يقول لي الأطباء ألا أعود حتى تعود إليّ عافيتي . ويقولون لي ان من « الواجب » عليّ الذهاب الى البرية والاستسلام الى الحياة البسيطة الخالية من كل فكر ومن كل قصد ومن كل منزع — أي أنهم يطلبون مني أن أتحول الى ملفوفة في بستان أو الى نبتة طفيلية ! لذلك أرى من الموافق أن تبعثوا برسم الرابطة الى دمشق خالياً من سحنتي أو أن تبعثوا الرسم القديم بعد أن تطلوا وجهي فيه بلطخة من الحبر . ولكن اذا كان لا بد من أن تظهر الرابطة النيويوركية كاملة مكملة أمام الرابطة الدمشقية فما قولك في أن يترجم نسيب ، أو عبدل ، أو ميشا (اذا كان ذلك ممكناً) قطعة من « المجنون » أو « السابق » ؟ هذا رأي سقيم ، بل وقد يكون سخيفاً ، ولكن ما العمل يا ميخائيل وأنا في هذه الحالة ؟ ان من لا يستطيع خياطة ثوب جديد يعود فيرقع أثوابه العتيقة . أتعلم يا أخي أن هذه العلة قد حتمت عليّ بتأجيل نشر « النبي » الى زمن غير معلوم ؟

سوف أقرأ مقالك في « الديوان » بلذة فائقة ، وأنا أعلم بأنه سيكون عادلاً وجميلاً مثل كل شيء كتبته .

اذكر اسمي أمام اخواني عمال الرابطة . قل لهم إن محبتي لهم وأنا في ضباب الليل ليست بأقل منها في جلاء النهار . والله يحفظك ويحرسك ويبقيك أخاً عزيزاً لجبران .

(بوسطن – نيويورك) مساء الخميس (١٩٢١)

أخي ميشا. بعد أن قرأت آخر عدد من مجلة الرابطة الأدبية، وبعد أن استعرضت أعدادها الغابرة تيقنت أن بيننا وبينهم هوة عظيمة فلا منا اليهم ولا منهم الينا. مهما فعلنا يا ميخائيل لا نستطيع أن نحررهم من عبودية القشور اللفظية. الحرية المعنوية تنبعث من الداخل ولا تأتي من الخارج. أنت أعلم الناس بهذه الحقيقة، فلا تحاول ايقاظ من أنزل الله النوم على قلوبهم لحكمة خفية. افعل لهم ما شئت وابعث اليهم ما شئت، ولكن لا تنس أنك ستضع على وجه «رابطتنا» نقاباً كثيفاً من الشبهة والشك. اذا كان لنا قوه فقوتنا في وحدتنا وانفرادنا. واذا كان لا بد من الاشتراك في العمل فلنشترك مع من يماثلنا ويقول قولنا. في عقيدتي أن عباس محمود العقاد – وهو فرد واحد – لأقرب بما لا يقاس من منازعنا ورغائبنا الأدبية من كل ما ظهر وسيظهر من الرابطة الدمشقية. أما أنا – أنا كعامل في الرابطة القلمية أخضع وأخضع بمسرة لصوت الأكثرية. ولكن أنا كفرد لا أريد ولا أقدر الاتفاق على أمر أدبي فني مع تلك الفئة الدمشقية التي تحاول غزل البرفير من مادة مخاطية.

قد تأثرت، تأثرت جداً، لما قلته لي عن سابا[1]. ليتني كنت قادراً على خدمة هذا الشاب الودود بشيء من الأشياء. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

حسناً فعلت بوضعك شيئاً من الحماسة في روح رشيد وندره ونسيب.

---

١ شقيق نسيب عريضه وقد ألم به مرض عضال.

اذا بقينا على هذه الحالة تبقى مجموعة الرابطة لسنة ١٩٢٣ او لسنة ١٩٢٤ في جيبة من جيوب الأثير ! ابعثوا إليّ – غير مأمورين – بست نسخ من المجموعة وقيدوا الثمن على حسابي أو ابعثوا الي بكردي حوالة .

صحتي يا ميشا أفضل مما كانت عليه . وقد قال لي الأطباء انني سأعود الى الحالة الاعتيادية اذا انصرفت ستة أشهر عن كل عمل وعن كل اجهاد ، بل وعن كل شيء إلا الأكل والشرب والراحة ! الله يساعدني يا ميشا !

اذن أنت على شفار الجنون . هذه بشارة جليلة بهولها هائلة بجلالها وجمالها . أقول إن الجنون أول خطوة نحو التجرد الرباني . كن مجنوناً يا ميشا . كن مجنوناً وأخبرنا ما وراء نقاب « العقل » من الأسرار . ان القصد من الحياة الاقتراب الى تلك الأسرار – وليس كالجنون مطية . كن مجنوناً وابق أخاً مجنوناً لأخيك المجنون جبران .

« مركب سلام الى الاخوان »

« أين مقالتك في « الديوان »

لم أرها للآن فما حل بها ؟ »

(بوسطن – نيويورك) ١٩٢٢

أخي ميشا . لقد أثر بي ذهاب سابا تأثيراً عظيماً هائلاً . أنا أعلم أنه قد بلغ المحجة ، وأعلم أنه قد صار في مأمن مما نشكوه ، وأعلم أنه قد حصل على ما أتمنى الحصول عليه كل يوم وكل ليلة . اني أعلم كل ذلك – ومن الغرابة أن علمي لا يمحو هذه الغصة المتمايلة بين قلبي وحنجرتي . وما معنى هذه الغصة يا ترى ؟

لقد كان لسابا أماني يريد تحقيقها . وكانت حصته من الآمال والأحلام تضارع حصة كل واحد منا ، فهل في ذهابه قبل أن تزهر أمانيه وقبل أن تثمر أحلامه ما يولد الغصات في قلوبنا ؟ أليس حزني عليه – بالحقيقة – أسفي على حلم كان في شبابي فقضى شبابي قبل أن يتحقق حلمي ؟ أليس الحزن والأسف واللوعة أشكال من الأنانية البشرية ؟

يجب ألا أعود الى نيويورك يا ميشا . قد حكم عليّ الطبيب بالانزواء والابتعاد عن المدن والمدنية . لذلك قد استأجرت كوخاً صغيراً قريباً من البحر وسأذهب اليه مع شقيقتي بعد يومين . وسأبقى هناك حتى يعود هذا القلب الى نظامه أو يصير جزءاً من النظام الأعلى . غير أنني أرجو أن أراك قبل انقضاء هذا الصيف . لا أدري كيف وأين ومتى ولكن لا بد من ترتيب المسألة بصورة من الصور .

ان أفكارك « الزهدية » تشابه أفكاري تماماً . منذ زمن بعيد وأنا أحلم بصومعة وحديقة صغيرة وعين ماء . أتذكر « يوسف الفخري » ؟ أتذكر أفكاره السوداء ويقظته البيضاء ؟ أتذكر رأيه في المدنية والمتمدنين ؟

أتدري يا ميخائيل أن المستقبل سيجدنا في صومعة قائمة على كتف وادٍ من أودية لبنان . إن هذه المدنية الغاشمة قد شدت أوتار روحنا حتى كادت تنقطع . فعلينا أن نرحل قبل أن تنقطع . ولكن علينا أن نبقى صابرين متجلدين حتى يوم الرحيل . علينا أن نصبر يا ميشا .

اذكر اسمي أمـام الاخوان وقل لهم انني أحبهم وأتوق اليهم وأعيش بالفكر وايامهم . والله يحفظك يا ميشا ويحرسك ويبقيك لأخيك جبران .

مساء الأربعاء

(بوسطن – نيويورك) مساء الخميس (شباط ١٩٢٣)

عزيزي ميشا . لا تقل ان مناخ بوسطن قد طاب لي واني قد استسلمت الى الراحة فنسيت نيويورك ، ورفـاقي في نيويورك ، وما ينتظرني من الأعمال والواجبات في نيويورك . يعلم الله أنني لم أصرف شهراً في غـابر حياتي يماثل الشهر المـاضي بصعوباته ومصائبه ومشكلاته ومعضلاته . ولقد سألت نفسي مرات ما اذا كانت «جنيّتي» أو «تابعتي» أو «قرينتي» قد تحولت الى عفريت يعاديني ويقاومني ويوصد الأبواب أمامي ويضع العثرات في سبيلي . منذ مجيئي الى هذه المدينة العوجاء وأنا في جحيم من الدنيويات ، ولولا شقيقتي لتركت كل شيء وعدت الى صومعتي نافضاً غبـــار الدنيـا عن قدميَّ .

عندمـا استلمت برقيتك في هذا الصباح شعرت كمن يستيقظ من حلم مزعج وبقيت هنيهة أفكر وأسترجع تلك الساعات اللذيذة التي صرفناها معاً متحدثين عن الأمور الروحية والفنية ونسيت أنني في معمعة وأن فيالقي في حالة حرجة ، ولكنني ما لبثت أن عدت فتذكرت مصائبي الغابرة والآتية وتذكرت أن من الواجب عليَّ البقاء هنـــا والقيام بوعودي وتحقيق مواعيدي . عليَّ يا ميخائيل أن أقرأ من كتاباتي مرتين في الأسبوع الآتي ، المرة الأولى من المجنون والسابق والمرة الثانية من النبي ، وذلك أمام هيئة

«معتبرة» ممن يهمهم هذا النوع من الأفكار وهذا الشكل من التعبير . غير أن الأمور التي أبقتني في هذه المدينة ، والتي تجبرني على البقاء عشرة أيام أخرى ، لا تتعلق بما كتبت أو بما قرأت أو سأقرأ بل بأشياء جامدة بليدة متعبة تملأ القلب شوكاً وعلقماً وتقبض على الروح بكف حديدية خشنة كالمبرد .

لم أنسَ قط أن يوم الأربعاء القادم هو موعد اجتماع الرابطة ولكن ما العمل والعين بصيرة واليد قصيرة ؟ أرجو أن تجتمعوا وتقرروا ما فيه فائدة وأن تذكروني بكلمة حسنة ، فأنا في هذه الأيام بحاجة ماسة الى تمنيات الأصدقاء وصلوات المتعبدين بل وأنا بحاجة الى نظرة حلوة في عين مخلص .

سوف تبلغ هدية اخواننا في البرازيل البيت الأبيض[1] ، وسوف يشكر لهم ولسن كرم أخلاقهم وحسن نواياهم ، سيتم كل ذلك بصورة جميلة لايقة ثم تأتي موجة من بحر النسيان وتغمر المسألة من أولها الى آخرها . ولكن مجلة الفنون ما برحت نائمة والرابطة القلمية ما زالت فقيرة واخواننا في البرازيل وفي الولايات المتحدة لا يذكرون تلك ولا يشعرون بوجود هذه ! ما أغرب الناس يا ميشا وما أغربنا بين الناس !

سلام عليك يا أخي وسلام على رفاقنا . والله يحفظك عزيزاً لأخيك جبران .

---

١ هي الهدية التي قدمتها الجالية السورية في البرازيل الى الرئيس ولسن بواسطة لجنة من السوريين في نيويورك . وقد كنت رئيس اللجنة التي قامت بتقديمها . — م. ن.

(بوسطن – نيويورك ١٩٢٣)

أخي الحبيب ميشا . ما أعذبك سائلاً عن علتي ، ويا ليتني قادراً على الاجابة بصورة صريحة ، فعلتي « يوم علينا ويوم لنا » غير أنني أشعر اجمالاً بأنني أحسن حالاً مما كنت عليه منذ عشرة أيام ، ولا أكتمك أنني قد مللت علتي ، وربما كان هذا الملل أهون السبل الى العافية .

أما بخصوص استكتاب عبد المسيح أدباء مصر فأقول انه سيفعل حسناً – على أنني أرجو أن تكون بضاعة المصريين « والمتمصيرين » أحسن من ذلك « الخرنوب » الذي جاءنا منذ عامين من دمشق . لو كنت صاحب جريدة يا ميشا لاستكتبت قوالي المعنى والعتابا في لبنان ونشرت أقوالهم . ولكن السائح لسان الرابطة القلمية ، لذلك لا يستطيع أن يجنّ السائح كما يجنّ واحد منا .

خذها وعبد يسوع « تطبيشة » هائلة على ظهريكما لأنكما « أنبل » من أن تشتركا في « لعبة » يوم السبت – الله يساعدني ويساعدكما على يوم السبت في ادارة السائح !

سأحاول الرجوع الى نيويورك قبل نهاية هذا الأسبوع وسوف أخاطبك بواسطة التلفون عند رجوعي فقد صرت مشتاقاً اليك والى كل واحد من اخوانك واخواني والله يبقيك يا ميشا أخاً محبوباً لجبران .

(بوسطن – نيويورك ١٩٢٣)

أخي الحبيب ميشا . اغفر لي سكوتي الطويل وساعدني بطلب المغفرة من اخوانك اخواني . قال لي الأطباء في أوائل الصيف أن أهجر الكتابة

بكل أشكالها فامتثلت بعد صراع عنيف جرى بين ارادتي وارادة شقيقتي وبعض أصحابي . ولكن النتيجة قد جاءت حسنة فأنا اليوم أقرب الى حالتي القديمة من أي وقت في العامين المنصرمين . فالابتعاد عن المدنية ، والمعيشة البسيطة الهادئة المرتبة ، وهواء البحر والغابات قد أبدل القلب المنتفض بقلب يكاد لا يخفق واليد المرتعشة بيد تكتب اليك هذه السطور .

سوف أعود الى نيويورك بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وعند ذلك أعرض نفسي أمام اخواني فان رضوا عني عرفت حلمهم وان غضبوا عليّ عرفت عدلهم . فالشحاذ لا يتعنت والمجرم لا يشترط .

ألف حمل سلام الى الجميع والله يحرسك ويبقيك لأخيك جبران .

هذه أول رسالة كتبتها منذ ثلاثة اشهر .

(نيويورك – الى الداخلية) مساء الاثنين (١٩٢٣)

عزيزي ميشا . أسعد الله مساءك – وبعد فاني أبشرك أن نسيبنا باقٍ معنا وفينا ومنا الى ما شاء الله ، وسفره الى الارجنتين أصبح أسطورة من أساطير الأقدمين .

لا لم تجتمع الرابطة في آخر أربعاء من هذا الشهر وذلك لسببين أولهما غيابك عنا وثانيهما عدم وجود ما يدعو الى الاجتماع – وأظن أن السبب الاول كافٍ وهو المولد للسبب الثاني .

لقد سررت بقولك انك ستعود الينا يوم الخميس . لقد طال غيابك عنا يا ميخائيل وفي غيابك تتحول حلقتنا الى شيء سديمي ضبابي لا شكل لها ولا صورة .

لم يرق لي قولك «وعزرائيل بميخائيل» - في شرعي أن ميخائيل أقوى من عزرائيل ، فالأول له سلطة على الثاني ، أما الثاني فليس له سلطان على الأول . ان في الأسماء سرّاً أعمق وأدق مما نتصور ، وفيها رموزٌ أدلّ وأهمّ مما نفكر ، ولقد كان ميخائيل منذ البدء أكثر سطوة وأشد بأساً من عزرائيل .

الى اللقاء يا أخي – والله يحفظك عزيزاً لجبران .

(بوسطن – نيويورك) صباح الأحد ١١ آب ١٩٢٣

أخي العزيز ميشا . أسعد الله صباحك ، وبعد فقد سررت بصدور كتاب «الغربال» لكنني ، ولا أكتمك ، لم يرق لديّ صدوره في هذا الفصل من السنة – هذا مع علمي أن قيمة الكتاب ، وهو وحيد من نوعه ، لا تتقيد بفصل من الفصول بل ولا بعقد من العقود ... لا بأس فما طُبع قد طُبع ...

لقد صرفت الساعات الطوال مع الأرشمندريت بشير بمراجعة ترجمة «المجنون» و «السابق» ورغم تمردي فقد أُعجبتُ بحماسة الرجل وعزمه . وقد قال لي عندما فرغنا من المراجعة والتصحيح «سوف أدفع ترجمة الكتابين الى ميخائيل نعيمه ونسيب عريضه وأطلب منهما نقداً صارماً» ، فاستحسنت كلمته هذه وعرفت أنه بالحقيقة يريد الاستفادة[1] .

---

١ أطلعني الأرشمندريت بشير على ترجمته لقطعة أو لقطعتين . فرأيت ان عناء «المساعدة» أشق من الترجمة . وتركته يترجم بمعرفته ولغته دون أقل تدخل مني . – م. ن.

لم أفعل شيئاً حريّاً بالذكر مذ تركت نيويورك سوى تدوين بعض رؤوس أقلام وتطبيق بعض الأفكار العتيقة . يبدو لي يا ميشا أن الحياة المرتبة في بيت شقيقتي تبعدني عن التوليد والانشاء . من الغريب أن يكون التشويش في العيش أفضل مستحث لقريحتي .

سوف أفرح وأبتهج بقصيدتك وقصيدة نسيب الجديدتين ولكنني سأقف مخجولاً أمامكما لفراغ جعبتي — غير أنني لن أقف وحيداً اذا بقي رشيد على تسويفه ، واذا بقي على تسويفه فلا أدري كيف يستطيع اصدار ديوانه .

بلّغ سلامي ومحبتي الى الرفاق والخلان وقل لهم ان الحياة بدونهم لحياة مبتورة والله يباركك يا ميشا ويبقيك أخاً عزيزاً لجبران .

(بوسطن — نيويورك) الاحد (١٩٢٣)

أخي العزيز ميشا . أهنئك وأهنئ نفسي « بالغربال » فهو بدون شك أول نسمة حية من تلك العاصفة الربانية التي ستهصر جميع الأغصان والقضبان اليابسة في غابة آدابنا . لقد قرأت الكتاب ، قديمه وجديده ، من ألفه الى يائه ، فتقررت لديّ حقيقة فكرت فيها مرات وأبديتها لك مرة واحدة وهي هذه : لو لم تكن شاعراً وكاتباً لما بلغت من فن النقد المستوى الذي أنت فيه ، ولما تيسر لك رفع الستار عن حقيقة الشعر والشعراء والانشاء والمنشئين . أقول يا ميشا انك لو لم تختبر الشعر بروحك لما تبينت اختبارات سواك الشعرية ، ولو لم تسر طويلاً في جنة الشعر لما تمردت على الذين لا يسيرون إلا في مضايق الأوزان والقوافي . لقد كان

سان بف ورسكين وولتر بيتر من الفنيين قبل وبعد أن ينقدوا آثار غيرهم الفنية ، وكان كل واحد منهم ينقد الأشياء بنور روحه الوضعي لا بذوقه المقتبس ، فالنور الروحي هو منبع كل جميل وكل نبيل ، يتحول بمشيئة صاحبه الى نقد فيجيء النقد فناً جميلاً نبيلاً ، ولولا ذلك النور لجاءَ النقد تعنتاً مملاً خالياً من رنة التأكيد الايجابي ونغمة الاقتناع الجازم .

نعم يا ميشا ، أنت شاعر مفكر قبل كل شيء ، وما مقدرتك الفريدة على النقد سوى مظهر من مظاهر فكرتك وشاعريتك ، فلا تقدم مثل « البيضة » فأنا لا ولن أقبله لأنه يدل على مقدرة جدلية لا على حقيقة مجردة .

سأعود الى نيويورك بعد عشرة أيام ان شاء الله فنتحدث طويلاً ونصنع الرسوم لديوان رشيد ونقوم بكثير من الأعمال — وسنحلم أحلاماً جميلة .

قل للاخوان انني صرت مشتاقاً اليهم والله يبقيك أخاً عزيزاً لجبران .

(بوسطن – نيويورك) ٣٠ ايلول (١٩٢٤)

اذا تحسنت حالتي بين اليوم والسبت القادم

فاني أذهب تواً الى آلبني١

عزيزي ميشا . منذ أيام وأنا رهن هذه الغرفة ، وقد قمت من فراشي لأكتب اليك . أنت تعلم أنني تركت نيويورك مريضاً ولم أزل أُحارب التسمم في معدتي . ولولا ذلك لما تأخرت عن الذهاب الى الميتم يوم تدشينه .

---

١ عاصمة ولاية نيويورك ، وكان الميتم في جوارها .

وأنت تعلم يا ميشا أن أشغالي مهما كانت مهمة لا توقفني عن التغيب يومين أو ثلاثة أيام خصوصاً اذا كان تغيبي للاشتراك في تدشين أنبل معهد سوري في الولايات المتحدة . أرجوك أن تقــدم للمطران عذري وتبين له السبب الحقيقي في عدم مجيئي .

وبلّغ سلامي مشفوعاً بمحبتي الى الاخوان والله يبقيك أخاً حبيباً لجبران .

(بوسطن – نيويورك . ١٩٢٥)

أخي ميشا . سلام عــلى روحك وبعد فقد بعثت الساعة برسم لغـلاف السائح الممتـاز كما أشرت إليّ . واشارات الأمراء أمراء الاشارات ! واني أرجوك أن تحتم على عبدول أن يحتفظ به بعد الفراغ من نسخه عند الحفارين .

ترى هل وجدت في الصومعة الهادئة بعض الراحة والسلامة[١] ؟ قد خفت عليك من البرد فيها ولقد كان من الواجب عليّ أن أخبرك عن آلة كهربائية موجودة في الصومعة تساعد على تدفئة قرنة من قرانيها . «على كل حال» ان القلوب الحامية لا تحتـاج الى نار خارجية !

سأعود الى نيويورك بعد أسبوع – أكثر أو أقل – فنلتقي ونتحدث طويـلاً في مـا تحت الأرض وفوق السحـاب ، والله يحفظك يا ميشا أخاً محبوباً لجبران .

---

١ عندما سافر جبران الى بوسطن قبيل عيد الميلاد من تلك السنة سلمني مفاتيح محترفـه لأني قلت له اني في حاجة الى خلوة كخلوته لأنهي بعض مـا كنت اكتبه . – م. ن.

(بوسطن – نيويورك) مساء الاثنين ١١ تشرين الاول سنة ١٩٢٨

عزيزي ميشا . سلام على روحك ، وبعد فما أحسنك مستفحصاً عن صحتي وما أكبر قلبك . كنت مصاباً بالداء المعروف بالنقرس الصيفي فلما ذهب الصيف وحرّه ذهب النقرس .

عرفت أنك رجعت الى بابل الجديدة منذ أكثر من ثلاثة أسابيع ، فقل يا زين الشباب ، ماذا جلبت معك من كنوز غيبتك وغيبوبتك ؟ سوف أعود الى نيويورك بعد أسبوع ، وسوف أبحث وأفتش في جيوبك لأحصل عما جلبت معك .

كتاب « يسوع » تناول صيفيتي مريضاً وصحيحاً – ولا أكتمك أن قلبي ما برح فيه ، رغم أنه قد صدر « وطار من هذا القفص » .

بلغ سلامي يا ميخائيل الى اخوانك اخواني والله يحفظك لجبران .

(بوسطن – نيويورك ٢٦ آذار ١٩٢٩)

عزيزي ميشا . ما أحسنك وما أعطفك سائلاً عن صحتي . لقد صرت يا ميشا في حالة « مقبولة » وقد ذهبت آلام النقرس أو « العصبي » وقد تحول التورّم الى ضدّه ، أما العلة فهي في مكان أعمق من الأعصاب والعظام ، ولقد فكرت مرّات في ما اذا كانت علة أو صحة .

هي حالة يا ميشا ، صحةً كانت أم علةً ... هو فصل من فصول حياتي وفي حياتك وحياتي شتاءٌ وربيع . وأنت وأنا ، بالحقيقة ، لا ندري أيهما أفضل . عندما نجتمع سأخبرك عما جرى لي ، وعندئذ تعلم لماذا صرخت

مرة « لكم لبنانكم ولي لبناني » .

ليس بين الفاكهة أحسن من الليمون الحامض ، وأنا أتناول الليمون كل يوم ... والباقي على الله !

قلت لك في رسالة ان الأطباء حظروا عليّ العمل ، ولكنني لا أستطيع سوى العمل ، ولو بالفكر ، أو للكتابة !.. ما قولك في كتاب مؤلف من أربع حكايات ، ميكل انجلو ، شيكسبير ، سبينوزا ، بيتوفن ، وما قولك في ما لو كانت كل حكاية نتيجة مقررة لما في القلب البشري من الألم والطموح « والغربة » ثم الأمل ؟ ما قولك في كتاب من هذا النوع ؟.. هذا – أما كتاب « حديقة النبي » فأمر مقرر ، على أنني أرى أن من الحكمة أن أبتعد عن الطابعين في الوقت الحاضر .

سلامي الى اخوانك اخواني الأحباء – والله يحفظك أخاً لجبران .

(بوسطن – نيويورك . برقية بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٢٩)

أثرت بي برقيتك تأثيراً عميقاً . أنا أحسن . رجوع العافية سيكون بطيئاً . قيل لي امتنع عن الشغل سنة كاملة . هذا أشقّ عليّ من المرض . سيعتدل كل شيء في حياتي على التمادي . محبتي اليك والى رفاقنا . جبران .

(بوسطن – نيويورك ٢٢ ايار ١٩٢٩)

أخي ميشا . أنا أحسن حالاً اليوم مما كنت عليه يوم تركت نيويورك . ما أعظم حاجتي الى الراحة والى البعد عن الاجتماع وضجيجه ومشكلاته .

سوف أرتاح . وسوف أبتعد يا ميشا ولكن أريد أن أبقى قريباً منك ومن اخواني بالروح والعاطفة فلا تقصوني ولا تنسوني .

ألف سلام لك ولعبد المسيح ولرشيد ولوليم ولنسيب ولكل واحد ممن تجمعنا بهم رابطة الله .

والسماء تحرسك وتباركك يا أخي . جبران .

ملك البلاد وراعي الغنم

الرواية التالية هي آخر ما كتبه جبران بالعربية . وقد أعدها « للسائح الممتاز » الذي كان سيظهر في أوائـــل سنة ١٩٣١ . غير أن « السائح » سبق جبران بضعة شهور الى « الدار الثانية » . وعدده الممتاز لم يظهر . والرواية لم تنشر حتى الآن :

المـــكان – مرعى أخضر بين الهضاب في ظلال الأسد الصخري في شمالي لبنان .

الزمـــان – عصرية يوم من أواخر أيام الصيف .

الاشخاص – راعي الأغنام . الملك . ثم وزير الملك .

الراعي جالس في ظل الأسد الصخري ينظر بارتياح الى أغنامه وفي يده ناي ينفخ به بين الآونة والأخرى .

يأتي اذ ذاك الملك على صهوة جواده وينظر الى الراعي .

•

الملك – أراك مرتاحاً في ظلال هذه الصخرة ، فما أشد سلاحك !

الراعي – ما أكثر فرحك في صهوة فرسك ! على أنني أراك متعوباً !

الملك – (ينظر حوله) – أتعلم مَن أنا ؟

الراعي – لا ، وهل تعلم أنت مَن أنا ؟

الملك – (ضاحكاً) – لو عرفت مَن أنا لأغمي عليك وجلاً .

الراعي – (قابضاً عـلى حفنة من تراب) – لو عرفت مَن أنا لمُتَّ فرحاً .

الملك – ما أكثر وقاحتك !

الراعي – ما أبلدك وأغلظك !

الملك – عليك أن تعلم مَن أنا لتعتبر .

الراعي – وعليك أن تعلم مَن أنا لترتعش خوفاً .

الملك – لو شئتُ الساعة لقتلتك بحد سيفي .

الراعي – ولو شئتُ أنا لقتلت سبعة رجال مثلك بعصاي .

الملك – (مترددا) – أنا ؟ أنا هو الملك .

الراعي – وأنا . أنا راعي هذا القطيع .

الملك – أمجنون أنت ؟

الراعي – لم أقل انني ملك هذه الأرض فكيف تدعوني مجنوناً ؟

الملك – ألا تعلم أن الموت والحياة بين شفتيّ ؟

الراعي – اذاً أنت الذي قتلت جدتي وأنت الذي أنعمت بمولود على جارة لي قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها .

الملك – لا ، لم أقتل جدتك ولم أبعث بمولود الى جارتك .

الراعي – اذاً لمَ تدّعي الملك ؟ ولمَ تقول لي إن الموت والحياة بين شفتيك ؟

الملك – ماذا يا ترى تفعل لو رأيتني محاطاً بجندي ؟

الراعي – أنت تراني الآن محاطاً بنعاجي ولا أراك تفعل أمراً معقولاً .

الملك – وماذا تقول لو رأيتني جالساً على عرشي ؟

الراعي – هأنذا أسند ظهري الى هذه الصخرة وللآن لم أسمع كلمة حسنة منك !

الملك – (متضجراً) – إنا لله وإنا اليه راجعون . أتعلم يا رجل معنى كلمة ملك ؟

الراعي – نحن الله ! ونحن المعاد والمرجع ! أتعلم يا رجل معنى كلمة راعٍ وغنم ؟

الملك – أتعلم معنى قولنا : قائد . زعيم . عميد . سلطان ؟

الراعي – (متمثلاً التضجر) – أتعلم معنى قولنا : قائد أغنام . زعيم فحول . رئيس حملان . عميد القطيع ؟

الملك – أتعلم معنى قولنا : بلاد . مملكة . حكومة . شرائع . جرائم . عقوبات ؟

الراعي – أتعلم معنى قولنا : مراعي . أودية . سهول . موارد . حظائر ؟

الملك – يبدو لي أنك لست من البشر .

الراعي – لا ، لست من البشر اذا كنت أنت منهم .

(في هذه الدقيقة يترجل الملك ويقترب من الراعي وفي حركاته شيء من التهديد)

الملك – أنا هو الملك . وكل ملك والد لكل فرد من رعيته ، وكوالد عليّ أن أهذبك وأنير ظلمتك وسوف أهذبك الآن بالقوة .

الراعي – ما أحمقك يا رجل ! وما أكثر دعواك ! لو كان بامكانك تهذيبي وانارة ظلمتي لما فعلت . ألا رُحْ في سبيلك يا هذا . رح وابحث عمن يهذبك وينير ظلمتك ، ثم عُد إليّ فان وجدتك كفؤاً لتكون أحد رعاياي سيَّرتك الى المراعي الخصبة والى المناهل العذبة .

الملك – (متجلداً) – اعـلم أن الأرض متجزئة الى ممالك ولكل مملكة دستور .

الراعي – (يقاطعه) – نعم ، والممالك والدساتير متدليات من الدماغ . ودماغكم ضعيف وهو مقسوم الى طائفات متبوعة وتابعة تسوس بالدعوى وتساس بالهوان .

الملك – اعلم أن النـاس هم حاكمون ومحكومون ، فالمتبوع يسوس والتابع يؤدي الجزية .

الراعي – بالله ! ترى بين الناس من يدفع ضريبة ليسمع السخافة تتكلم ويرى الشناعة تتبرج وترقص ؟

الملك – ان الناس يدفعون الثمن للعقول الراجحة التي تدير شؤونهم وتهديهم الى السبيل القويم .

الراعي – اذاً أنت مديون لي بنصف ما في الأرض ، لأنني رغم غباوتك وتضجري منك فقد هديتك السبيل القويم .

الملك – واعلم أن لكل مملكة شرائع بعضها منزل والبعض اتفق عليه أمراء الشعب وشيوخه ، فمن يقف عليها يصان ومن لا يتبعها يعاقب ويهان .

الراعي – يلوح لي أن شرائعكم المنزلة وغير المنزلة ثرثرة ألفتها الملائكة ولكنكم للآن لا تعرفون . ولو عرف الناس لشنقوك أو سجنوك حتى الحشرجة .

الملك – واعلم يا ولدي الجاهل أن الفيلسوف وراعي الغنم سيّان أمام تلك الشرائع .

الراعي – واعلم يا جدي المحنط أن الملك والخنفساء سيّان أمام وجه الشمس .

الملك – (متجلداً) – واعلم أن لكل مملكة جنوداً وقواداً يغزون ويهاجمون أعداء المملكة الأخرى عنـد الحاجة ويدافعون عندما تهاجمهم جنود المملكة المجاورة .

الراعي – (يضحك حتى يستلقي على ظهره) – عندما تغزو جنود سيدي الملك وأعوان سيدي المملكة المجاورة بحق أو بغير حق أنا أعلم الناس بماذا يفعل سيدي الملك وأعوان سيدي الملك وأين يكون مركزهم من الجيش .

الملك – أقول لك إن حد السيف نصيب الأعداء .

الراعي – نعم ، سيف الأكثرية الجاهلة على عنق الفرد الأوحد . يا لها من جبانة !.. ألم أقل مرة إن الأكثرية والجبانة توأمان ؟ ألم أقل ذلك مرة ؟

الملك – (غاضباً) – الأكثرية الجاهلة ! الفرد الأوحد ! ماذا تقول يا رجل ؟ ان ما تقوله سوف يقودك الى مكان يوعز اليك بألفاظ غير هذه الألفاظ ، وسوف تندم ، سوف تندم وسوف تبكي بكاءً مراً .

الراعي – (ضاحكاً) – نعم سوف أندم على هذيانك . وسوف أبكي ولكن على بلادتك . سوف أندم وسوف أبكي لأن ملك هذه البلاد هو جرذون أعرج .

(في هذه اللحظة يمتشق الملك سيفه أما الراعي فيظل جالساً ولكنه يتمسك بعصاه ويقول ضاحكاً)

الراعي – اضرب يا بليد ! لا ولن أضرب أولاً ، ومن يقاتلني ليس بأحسن من جرذون متوج .

الملك – (يقف) – أنت نكتة جديدة وقد تلهينا بلقياك . يجب أن نذهب .



جبران في « الصومعة »

آخر صورة فوتوغرافية له وقد أخذت قبل وفاته بمدة قصيرة

الراعي – أنت مهزأة عتيقة – غير أننا لم نسر برآك . اذهب ولا ترجع .

الملك – (مستبسماً) – قل لي ماذا تفعل ههنا سوى رعاية هذه الأغنام ؟

الراعي – أرى أنك ترغب في الحديث ؟ أنا لا أفعل شيئاً سوى أني أجلس في الشمس ، على أنني بين الآونة والأخرى أنظر الى قطيعي ، ولكن لا أكتمك يا بليدي أن كل نعجة من هذا القطيع ترفع رأسها من وقت لآخر لترى ما اذا كنت أنا ههنا أم لا . هذا كل ما أفعله في هذا المكان . ولكن قل لي اذا كنت من القائلين الشجعان ماذا أنت من الفاعلين ؟

الملك – ألم أقل لك انني ملك هذه الأرض ؟

الراعي – ليس فيك من الملوكية أكثر من هذه الصخرة الغريبة الشكل . لقد تفرستك فلم أجد فيك سوى البلادة المتحدرة من البلادة – (مشيراً الى القطيع) – أترى ذلك الكبش – الكبش ذا القرنين الكبيرين ؟ أقول لك انه ليس من كباشي الحسنة ولكن له عادة غريبة وهو أنه يهز رأسه كل صباح مطوحاً نحو الفضاء . لذلك فهو لا يسير إلا وسارت الأغنام والكباش معاً وراءه . في قطيعي فحول أكبر منه جثة ذوو قرون أضخم وأفخم ولكنهم لا يقودون القطيع لشرف في طبيعتهم ولا عراض عن شرف القيادة وقد يحسبون القيادة شكلاً من الصغارة .

الملك – لا يشبّه الملك بالكبش سوى الجاهل الأحمق الذي لا يعرف ما يقول ويقول ما لا يعرف ، ويجب علينا أن نغفر للجاهل الأحمق لأنه لا يدري ما يقول ، والأقوال والأعمال بالنيات ، وأنت لا تعرف كيف تخاطب

الأمراء والسلاطين ، وعلى الملوك والأمراء أن يتفهموا ذلك ويكونوا صابرين .

الراعي – أقول لك يا ولدي الصغير انني عندما شبهتك بالكبش ظننتني مطرياً مادحاً اياك أكثر مما تستحق ، ولكن ما العمل وأنت من أولئك الذين لا يميزون بين الاطراء والهجاء ؟

الملك – (ناظراً الى الراعي نظرة طويلة جدية) – لست بالأبله أيها الرجل . لا لست بالأبله كما ظننت . أنت تمتهننا بمعرفة ولكن لن أدنس يدي بدمك . يجب أن تُقتَل ولكن بسيف رجل من طبقتك .

الراعي – (يضحك ضحكاً عالياً) – بيد رجل من طبقتي ؟ بيد رجل من طبقتي ؟ ألا تعلم يا بليد أنك لو بحثت في كل قرنة من مملكتك المسروقة المزيفة لما وجدت رجلاً من طبقتي ؟ قلت مملكتك المسروقة المزيفة فهل فهمتني ؟

الملك – (يكفهر وجهه وتظهر على ملامحه أمارات الخوف ثم يمثل دور الغضب ثم يستل سيفه ويصرخ قائلاً) – قم ودافع عن نفسك فاني قاتلك لا محالة .

الراعي – (يتناول عصاه بدون أن يتزحزح من مكانه ويقول) – عصاي بسيفك يا شجاع .

الملك – (يضرب الراعي بسيفه والراعي لا يزال جالساً) – خذها أيها الحقير الملعون .

الراعي – (يلاقي السيف بعصاه ولكن بحركة كأنها سحرية يقذف بها السيف من يد الملك ثم يقول) – اذهب والتقط سيفك وعد الى عصاي مرة ثانية .

الملك – (يذهب ويلتقط السيف ويمشي نحو الراعي ببطء) – ألم تقل اني سرقت مملكتي ؟ ألم تقل هذا ؟ (يضرب ثانية فيلاقي الراعي ضربته بنكتة من عصاه فكأنه قطة فارسية تلاعب فأرة) لماذا لا تقف أيها الشيطان ؟ أنت بدون شك من الأبالسة . لماذا لا تقف ؟

الراعي – قاتلني وأنا جالس يا صغيري اللطيف قبل أن تناضلني واقفاً . أليس في جلوسي الكفاية ؟

الملك – (يضرب ثالثة والراعي يقذف بعصاه سيف الملك الى مسافة بعيدة)

الراعي – اذهب والتقط حديدك يا صاحب الجلالة .

الملك – (يلتقط السيف ويعود على مهل مع شيء من الخوف كأنه يرى في الراعي ساحراً ثم يقول) – سوف أقتلك جنيّاً كنت أم بشراً .

الراعي – (يضحك) – أنت لا تستطيع أن تقتل ذبابة . أنت المنتشل من جيوب الغد وأنت المنتصب واقفاً وأنا الجالس قاعداً تأتيني بسيف وأنا أقابلك بعصا . تعالَ واضرب يا أشجع الشجعان .

(بينما الملك يحاول أن يضرب والراعي ينظر اليه ضاحكاً يسمع صوت « ياهو !.. ياهو !.. ياهو !.. » فيقف الملك مصغياً)

الراعي – هنالك رجل يناديك باسمك . أشكر الله أن اسمي ليس « ياهو !.. ياهو !.. »

الملك – (مجاوباً) – ياهو !.. ياهو !..

الراعي – ألا اسمعوا الملوك والعبيد ينادون بعضهم بعضاً باسم واحد وبذات النغمة السقيمة القديمة .

(يُسمع وقع خطوات . الملك يعيد سيفه الى غلافه ويقف الى جانب فرسه ممثلاً الطمأنينة لأن جلالته لا يرغب في أن يظهر مبارزاً إلا الملوك . في هذه الدقيقة يجيء الوزير مدججاً بكل أشكال وآلات الصيد ويقف هنيهة مبغوتاً ثم يحدق بوجه الراعي وعندما يتبينه جلياً يخضع له على ركبتيه قائلاً) :

« يا أميري . يا أميري . أنت لم تزل حيّاً ؟ »

الراعي – (ينظر الى الوزير مبتسماً) – هو ذا صديقي القديم الذي كان يلعب لي دور الحصان المطهم في دار جـــدي . فيركبني ظهره فيقفز ويمرح ويتبختر ويصهل ويصيح . انظروه الآن حاملاً سلاح ملك البلاد . لماذا لا ؟ كلنا يترقى ويتطور ، ذلك اذا كان يفكر بذلك . ولكن أشك في ارتقاء هذا الرجل الذي يدعو نفسه ملكاً .

الوزير – (للراعي) – يا مولاي ، انها لأكبر فرصة أن أراك ثانية .

الراعي – لا تتلفظ بهذه الكلمات بصوت عالٍ فقد يسمعك جلالة الملك .

الملك – (للوزير) – من هو هذا الرجل الوقح الذي تخضع أمامه وتنحني لديه وتسلم عليه بالامارة ؟ من هو يا ترى هذا الصعلوك المتجبر ؟

الوزير – هو يا سيدي ضاهر السعدي واحد من الثلاثة الأمراء السعديين وهم ما بقي من أوراق ذلك الغصن من تلك الشجرة القديمة . واسمع يا مليكي . تأمله الآن يرعى قطيعاً من الغنم وأخوه في وادي العاصي يحرث الأرض وأخوه الثالث قد بنى معملاً للأنوال في سفح هذا الجبـــل ليحوك القطن والكتان .

الراعي – (هازّاً رأسه) – اذاً نحن لم نزل الملوك . اتركوني وشأني وسامحوني .

تخليد جبران

هذه كلمة أسوقها الى محبي جبران في الشرق والغرب، لا سيما الى أولئك الذين يتحدثون في أمر «تخليده» بالتماثيل وما اليها .

ليس جبران في حاجة الى من يخلد ذكره في الحجر أو البرونز أو سواهما . فهو أخلد منهما كانسان . وأبقى أثراً كشاعر وفنان . ولا نفع له أو لسواه من نَصب يقوم في ساحةٍ ما من مدينةٍ ما فيمسي على التمادي محطة للعصافير ومصيدة للغبار . واذا كان المقصود من كل ذلك « تكريم » جبران فأجمل ما نكرمه به هو نشر أدبه وفنه بين الناس . ذاك أمرٌ على قلبه بما لا يقاس . وذاك ما أنفق حياته لأجله . فتماثيل تقيمها روحه في أرواح الناس لأعظم وأروع من تماثيل يقيمها له الناس في ساحات المدن وعلى قوارع الطرق .

وهذه مؤلفات جبران العربية ما تزال مبعثرة هنا وهناك بغير ما تنسيق أو تبويب . وهذه مؤلفاته الانكليزية ما تزال في حاجة الى ترجمة تضارع الأصل ولو بعض المضارعة بجودة أسلوبها وتؤدي معانيها باخلاص . وهذه رسومه ما تزال محجبة مهملة . فهل أقل من أن تُجمع مؤلفاته العربية وتترجم مؤلفاته الانكليزية وتطبع كلها طبعاً جميلاً بشكلٍ واحد وقطع واحد حتى يسهل الوصول اليها واقتناؤها على من يشاء ؟ وهل أقل من أن تحصى آثاره الفنية وتنظم وتعرض في مكان يليق بها ؟ وهل أقل من أن

ينفق ولو بعض ريع كتبه على تنظيم رسومه و كتبه ؟

ان تشكيل لجنـة من ذوي الذوق والفهم للاهتمام بهذه الأمور لأكبر مـــا يمكن محبي جبران فعله من أجل أنفسهم وأجل جبران . فهو أعظم كاتب ظهر في الشرق منذ أجيال . وهو متفرد في فنه ليس في هذا الشرق وحده الذي لم ينجب بعد رسامين معدودين بـل في الغرب الذي يعد ذاته رب الفن ومهد الفنانين .

الميثاق السري

ترجمة القصيدة التي ألقيتها بالانكليزية في حفلة تذكارية اقامها لجبران رهط من اصدقائه الأميركيين في قاعة متحف زوريخ في نيويورك في ٢٩ نيسان ١٩٣١ :

•

قادني القدر الى حيث أخي والموت كانا على ميعاد اللقاء .

فوجدتهما في عناق مكين . وسمعت أخي يقول :

« يا أمّ أنفاسي .

ألا مُريها أن تتلاشى في الفضاء .

فقد أثقلتْ أنفي بروائح الآمال الجهيضة والأيام والليالي العفنة .

وأنا أود أن أعيش بلا نفَس في الأعالي والأعماق .

حيث الجمال الذي لا يتنفس .

مدّي يدك يا حبيبتي الى صدري . تعمقي . تعمقي .

فقد تظفرين هناك بكسرة من قلب .

هي كل ما عندي لأقدمه لكِ .

أما ما بقي فليس بعدُ لي .

فقد نثرتُ نتفاً منه على لوحات هنا وهناك .

وذوّبت بعضه ألحاناً .

والبعض بذرته في حقول لم يفضّ المحراث بكارتها .

والبعض صهرته في أتون الشوق والألم ألسنةً للذين لا ألسنة لأشواقهم وآلامهم .

والآن طهريني يا حبيبتي .

اغسليني من ملح الأرض ورغوتهـــا كيما أمخر وإياك البحر الذي لا شواطىء له . »

فاستجاب الموت ابتهال أخي . وبقبلة الصمت ختم على الميثاق .

وبينا أنا أشهد السر العجيب ،

وقد اعتراني ذهول واكتنفتني ظلمات ألف ليل دامس ،

اذا بي أسمع صوتاً فائق اللطف والنعومة :

« كل آتٍ قد مضى كل ماضٍ سيعود »

جبران الحي

الكلمة التي افتتحت بها حفلة الأربعين لجبران التي أقامتها الجالية السورية في بروكلين برعاية الرابطة القلمية . وكنت عريف الحفلة :

•

لقد اجتمعنا ههنا لا لنمجد انساناً مات ، بل لنتمجد بانسان حيّ . ولا مجد للانسان إلا في تدرّجه من ناسوته الى لاهوته — من الفاني الى الباقي — من الشناعة الى الجمال — من الوهم الى الحق — من ظواهر الحياة المزدوجة الى باطنها الموحّد .

كلنا على الطريق . ويا لها من طريق مفروشة بالأوجاع ، محدّدة بمعاثر المطامع ، مظللة بخيالات الشهوات . غير أن روح الله يرف فوقها ونور الله يتخلل ظلماتها . وما الفرق بين السائرين عليها إلا في أن البعض يتوانى في السير متلهياً هنا وهنالك بحلاوة لا تلبث أن تنقلب الى مرارة . والبعض يجدّ في السير عالماً أن كل ملذات الأرض جذورها في تربة الألم . وأن الألم ابن الجهل . وأن لا غلبة على الجهل إلا بالمعرفة . وأن لا معرفة إلا بالحق .

كلنا آنية للحق . غير أننا لا نسع منه إلا بقدر ما نفسح له مجالاً في نفوسنا . فالجرة التي ملأتها خلّاً يستحيل عليك في الوقت ذاته أن تملأها

خمراً . كذلك القلب الذي أترعته بشهوات الأرض أنّى لك أن تملأه بأشواق السماء ؟

وبالأحرى اننا نعكس الحق بقدر ما تكون صفيحة الروح فينا صافية أو غير صافية . فمن تعكرت صفيحة روحه عكس الحق عكراً ومشوهاً . ذاك لا يعني أنه خلو من الحق . فالبدر المنعكس في بركة عكرة هو البدر عينه المنعكس في بركة صافية . والشمس التي تشرق عليك من وراء لوحة صافية من الزجاج ، فتأنس بأشعتها ، هي الشمس ذاتها التي تطل عليك من وراء لوحة مقنّعة بالدخان ، فلا تكاد تراها .

ان روح جبران خليل جبران من الأرواح التي صفت للحق فاصطفاها . وفي ذلك مجدها – وفي ذلك شقاؤها . لأن الروح التي تعكس الحق صافياً ولو لحظة واحدة تتألم فيما بعد كلما انعكس عليها ما ليس حقاً . وأين آلام الأرواح العكرة من آلامها ؟ والعين التي تلمح وجه الجمال المطلق ولو لمحة واحدة تدمع دماً كلما وقعت بعد ذلك على وجه ما ليس جمالاً . وأين من دموعها دموع العيون التي لا تبصر إلا جمال الأرض ؟

من ليس يعرف آلام جبران ليس يعرف أفراحه . ومن ليس يعرف أفراحه لن يدرك تلك القدرة التي مكنته من أن يرسل آلامه وأفراحه موسيقى تترقرق في مقاطع من الكلم ، وألواناً تذوب وتتجمد أفكاراً وأشواقاً حية ، وخطوطاً كأنها سلالم تنحدر بك الى أقصى دركات الألم البشري وتصعد بك الى عرش الإله الساكن في قلب كل انسان . وفي كل ذلك يدنينا جبران من أنفسنا لأنه يدنو من نفسه ويجلو صفائح أرواحنا بجلائه صفيحة روحه ويمجدنا بالحق الذي يتمجد به .

انه لِغرضٍ لا أعرفه ولا تعرفونه وُلد جبران في لبنان وفي العصر الذي ولد فيه . ولحكمة أجهلها وتجهلونها كانت العربية لغته . فكأني بالعين التي تبصر كل حاجة أبصرت ما في حياتنا الروحية من القحط فأرسلت لنا هذه السحابة المباركة لتمطرنا بعض بركاتها .

من شاء أن يرى في ذلك مفخرة فليكن له ما شاء . أما أنا فأكبرُ على بقعة عطشى من الأرض أن تفاخر سواها بطلٍّ أرسلته لها السماء . وأوثر أن أقول :

« اللهم اجعلنا مستحقين لهذه العطية كيما نستحق سواها . »

جبران خليل جبران

الفجر

ملحق

فهرس الصور